فهو قائم بما كلفه ، عارف ما يرضيه وما يسخطه ـ لا شك أن البون بين حاليهما شاسع . وقوله تعالى : ﴿ **هل يستويان مثلا** ﴾ أى : هل تستوى صفتاهما وحالاهما ؟

﴿ **الحمد لله** ﴾ أى بعد أن بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد ، وثبت أن لا إله إلا هو .. ثبت أن الحمد لله لا لغيره .

﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أى : بل أكثر الناس لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره فيشركون به سواه . كقوله تعالى : ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آالله خير أما يشركون** ﴾[1] الله خيرا . ولما لم يلتفت المشركون إلى الحق ، ولم ينتفعوا بضرب المثل ، أخبر سبحانه بأن مصير الجميع إلى الله وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه وهو الحكم العدل ، وهناك يتميز المحق من المبطل فقال سبحانه .

﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ أى : أنك ستموت وهم سيموتون ، ثم تختصمون عند ربكم ، فتحتج أنت عليهم بأنك قد بلغت فكذبوا ، ويعتذرون هم بما لا طائل تحته ، وبما لا يدفع عنهم لوما ولا تقريعا ويقول التابعون للرؤساء : أطعناكم فأضللتمونا ، ويقول السادة : أغوانا الشيطان وآباؤنا الأولون . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله تعالى : ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ يقول يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدى الضال ، والضعيف المستكبر . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا** ﴾[2] وكقوله تعالى : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا** ﴾[3] .

« الأمثال القرآنية »

دراسة تحليلية :

قال الدكتور محمد بكر اسماعيل فى كتابه الأمثال القرآنية دراسة تحليلية ما نصه :

(مفهوم المثل فى أصل اللغة ، ومفهومة فى القرآن الكريم : قال ابن فارس (الميم ، والتاء ، واللام ، أصل صحيح يدل على مناظرة الشىء ، وهذا مثل هذا أى نظيره .

والمثل والمثال فى معنى واحد ، وربما قالوا مثيل كشبيه .

قال الفيروز أبادى فى البصائر (المثل ، والمثل ، والمثيل كالشبه ، والشبه والسبيه لفظا ومعنى والجمع أمثال .

(١) سورة النحل الآية : ٥٩

(٢) سورة الفرقان الآية : ٣٠

(٣) سورة النساء الآيتان : ٤١ ـ ٤٢

وقد يستعمل المثل ـ بكسر الميم ـ عبارة عن المشابه لغيره فى معنى من المعانى ، أى معنى كان .

وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ، وذلك أن الند يقال فيما يشاركه فى الجوهرية فقط ، والشكل يقال فيما يشاركه فى الكيفية فقط ، والمادى يقال فيماه يشاركة فى الكمية فقط ، والمثل عام فى جميع ذلك ، ولهذا لما أراد الله نفى التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال تعالى : ﴿ **لبس كمثله شيء** ﴾ .

أى ليس مثل صفته شيء من أوصاف الخلق ، فالكاف بمعنى مثل ، والمثل بمعنى الصفة ، وفى الآية تأويلات أخرى أهمها هذا التأويل والله أعلم .

والمثل ـ بفتح الميم والتاء ـ يستعمل غالبا فى الأمور المعنوية ، لهذا قال تعالى : ﴿ **للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم** ﴾ (النحل ٦٠) .

وقال جل شأنه : ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ (الروم ٢٧) .

هذا وقد فرق الامام الفخر الرازى ـ من جهة أخرى ـ بين المثل والمثل فقال (المثل بالكسر هو الذى يكون مساويا للشيء فى تمام الماهية ، والمثل بالفتح هو الذى يكون مساويا له فى بعض الصفات الخارجة عن الماهية .

(وقيل المكسور بمعنى شبه ، والمفتوح بمعنى الوصف) .

وابن منظور فى لسان العرب لا يفرق بين المثل بالكسر ، والمثل بالفتح بل يجعلهما بمعنى واحد فيقول (مثل كلمة تسوية) يقال هذا مثله ، ومثله كما يقال : شبهه وشبهة بمعنى) .

قال الراغب فى مفرداته : (أصل المثول : الانتصاب والمثل المصور على مقال غيره ، يقال : مَثل الشيء أى أنتصب وتصور ومنه قوله ـ ﷺ ـ (من أحب أن يمثل له الرجال قياما فليتبوا مقعده من النار) [(١)]

والتمثال الشيء المصور ، وتمثل كذا تصور ، قال تعالى ﴿ **فتمثل لها بشرا سويا** ﴾ (مريم ١٧) .

والمثل عبارة عن قول فى شيء يشبه قولا فى شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره نحو قولهم : الصيف ضيعنت اللبن فإن هذا القول يشبه قولك أهملت وقت الا مكان أمرك وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال فقال : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها** ﴾ وفى أخرى : ﴿ **وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ .

والمثال مقابلة شيء بشيء هو نظيره ، أو وضع شيء ما ليحتذى به فيما يفعل .

والمثله : نقمة تنزل بالانسان فيجعل مثالا يرتدع به غيره وذلك كالنكال ، وجمعه : مثلات . قال

(١) سنن أبى داود ـ كتاب الأدب ـ باب الرجل يقول : فلان يقرئك السلام ٥ / ٣٩٧ رقم ٥٢٢٩ .
وسنن الترمذى ـ كتاب الأدب ـ باب كراهة قيام للرجل ٥ / ٩ رقم ٢٧٥٥ وقال : حديث حسن .

تعالى : فى سورة الرعد : ﴿ **وقد خلت من قبلهم المثلات** ﴾[1] .

قال : وقد أمثل السلطات فلانا إذا نكل به ، والأمثل يعبر به عن الأشبه بالأفضل ، والأقرب للخير ، وأماثل القوم كناية عن خيارهم . وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ **إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما** ﴾[2] .

وقال ﴿ **ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾ (طه ٦٣) أى : الأشبه بالفضيلة وهى تأنيث الأمثل . أ هـ .

هذا ويأتى لفظ المثل بمعنى الصفة كقوله تعالى : ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون** ﴾ (الرعد ٣٥) .

ويأتى بمعنى الحال كقوله تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا** ﴾[3] والفرق بين الحال والصفة أن الأول متغير ، والثانى ثابت أو شبه ثابت ، ويأتى لفظ المثل بمعنى القصة والحكاية .

وقال صاحب المصبح المنير : والمثل يستعمل على ثلاثة أوجه :

الأول : بمعنى الشبيه .

الثانى : بمعنى نفس الشيء وذاته .

الثالث : يكون زائد المعنى بلاغى .

ويوصف به المذكر والمؤنث ، والجمع . فيقال : هو ، وهى ، وهما وهم ، وهن مثله . وفى التنزيل : ﴿ **أنؤمن لبشرين مثلنا** ﴾ (المؤمنون ٤٧) .

ومثال استعماله زائدا قولهم : (مثلك لا يعرف كذا) أى : أنت لا تعرف كذا ، وحملوا عليه قوله تعالى : ﴿ **أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ (الأنعام ١٢٢) أى كمن هو فى الظلمات وقوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ **فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا** ﴾ أى : فإن آمنوا بما آمنتم به .

قال ابن جنى فى الخصائص : قولهم (مثلك) لا يفعل كذا قالوا مثل زائدة ، والمعنى أنت لا تفعل كذا قال : وإن كان المعنى كذلك إلا أنه على غير هذا **التأويل** الذى رأوه من زيادة (مثل) وإنما تأويله : أنت من جماعة شأنهم كذا ، ليكون أثبت للأمر إذا كان له فيه أشباه وأضراب ، ولو انفرد هوبه لكان انتقاله عنه غير مأمون وإذا كان له فيه أشباه كان أحرى بالثبوت والدوام وعليه قوله : **ومثلى لا تنبو عليك مضاربه** . أ هـ .

هذا وقد يطلق المثال فى اللغة على معان أخر غير التى ذكرناها ، فقد ــ سمى الفراش مثالا ، والقصاص مثالا ، والحجة مثالا ، كما جاء فى بعض المعاجم كلسان العرب ومقاييس اللغة .

ويأتى المثال بعنى المقدار ، ويكون بمعنى العبرة .

---

(١) سورة الرعد الآية : ٦

(٢) سورة طه الآية : ١٠٤

(٣) سورة البقرة الآية : ١٧

ومنه قوله عز وجل : ﴿ **فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين** ﴾ (الزخرف ٥٦) . ويكون المثل بمعنى الآية .

قال الله ـ عز وجل ـ فى صفة عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ ﴿ **وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل** ﴾ أى آية تدل على نبوته . (**الزخرف ٥٩) وجميع المعانى التى ذكرناها للمثل تصاريفه المختلفة ترد إلى معنى المشابهة على نحو ما .**

وضرب المثل فى الكلام أن يذكر لحال ما يناسبها فيظهر من حسنها ، أو قبحها ما كان خفيا ، وهو مأخوذ من ضرب الدراهم ، وهو إحداث أثر خاص فيها ، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعا ينفذ أثره إلى قلبه ، ولا يظهر التأثير فى النفس بتحقير شيء وتقبيحه الا بتشبيهه بما جرى العرف بتحقيره ونفور النفوس منه (تفسير المراغى ح ١ ص . ٧٠ ط الحلبى) .

وقد يكون ضرب المثل مشتقا من قولك : (ضرب فى الأرض) أى : سار فيها ، فمعنى ضرب المثل جعله ينتشر وينبع ويسير فى البلاد . وإلى هذا ما ذهب إليه أبو هلال فى مقدمة كتابه .

وقد يكون معنى (ضرب المثل) نصبه للناس بإشهاره لتستدل عليه خواطرهم كما تستدل عيونهم على الأشياء المنصوبة . واشتقاقه حينئذ من قولهم : (ضربت الخباء) إذا نصبته وأثبت طنبه .

فمثلا قوله تعالى : ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ (الرعد ١٧) .

معناه : ينصب منارهما ويوضح أعلامهما ليعرف المكلفون الحق بعلاماته فيقصدوه . ويعرفوا الباطل فيجتنبوه ، كما قال الشريف الرضى فى كتابه (تلخيص البيان فى مجازات القرآن) .

وقد يكون معنى الضرب : إبقاء شيء على شيء ، فكأن المثل مطابق للحالة أى للصفة التى جاء لايضاحها .

وأما المثل عند علماء البيان فمفهومه أخص من مفهومه فى أصل اللغة فهو عندهم : استعارة تمثيلية شاع استعمالها مذكرا أو مؤنثا من غير تغيير فى العبارة الواردة .

فإذا فشت الاستعارة التمثيلية ، وشاع استعمالها وظلت باقية على هيئتها ، واستساغها العقلاء لما فيها من دقة التصوير ، أضحت مثلا يضرب .

كقوله : **الصيف ضيعت اللبن** بكسر تاء الفاعل فقد ورد فى امرأة فرطت فى أمر ، ثم طلبته بعد فوات فرصته ، ثم شاع استعماله وذاع ، حتى صار مثلا لكل من طلب أمرا ، بعد التفريط فيه ، وبعد فوات الأوان .

وكقولهم : (تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن) لمن يعرض له أمر لا يشتهيه ، تشبيها له بربان السفينة تزجيها الرياح إلى غير الوجهة التى يريدها .

وهكذا يقال فى جميع الأمثال السائرة نثرا ونظما .

والاستعارة التمثيلية : هى اللفظ المركب المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة ما من إرادة المعنى الأصلى . (وتشبيه التمثيل هو ما كان وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من عدة أمور اثنين فما فوق ـ حسيا كان ذلك الوجه أو غير حسى) .

وإذا أطلق لفظ التمثيل انصرف إلى الاستعارة التمثيلية فإذا أريد التشبيه ذو الوجه المركب قيل تشبيه التمثيل ، أو تشبيه تمثيلى .

قال الجرجانى : التشبيه عام ، والتمثيل أخص منه فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا .

هذا هو مفهوم المثل عند علماء البلاغة ، وهو موافق للمفهوم اللغوى فى أكثر استعمالاته ، بل هو المعول عليه فى مفهوم اللفظ عندهم .

فإن قيل : (محمد مثل الأسد) فمعناه أنه يشبهه فى صفة من صفاته وهى الشجاعة ، ولكن لا يكون هذا التشبيه تمثيلا إلا إذا كان هيئة مركبة منتزعة من عدة أوصاف ، أو أحوال يحتاج الذهن فى إدراكها ، ومنهم جوانبها المختلفة ، وتذوق بلاغتها إلى تأمل وأنعام نظر .

فالتشبيه الذى يعد من قبيل المثل ، أو يقال إنه تشبيه تمثيلى هو مالا يقدر على صياغته إلا البليغ .

ولهذا وجدنا الجرجانى قسم التشبيه فى كتابه (أسرار البلاغة) إلى نوعين فيقول :

اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين :

أحدها : أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأويل .

والآخر : أن يكون المشبه محصلا بضرب من التأول والمراد بالتأول إرجاع وجه الشبه إلى معنى يكون متحققا فى الطرفين بوجه من التلطف والحيلة والذكاء .

وأكثر أمثال القرآن الكريم نجد وجه الشبه فيها منتزعا من هيئة مركبة فيها الصوت واللون والحركة ويحتاج البليغ فى إدراكه إلى إعمال فكر وإمعان نظر فإذا استطاع أن يدرك وجه الشبه بين الطرفين نوع إدراك ملك عليه التمثيل مشاعره ، وبهره ما فيه من جمال التعبير ، ودقة التصوير ، وروعة البيان .

والحق عندى أن المثل فى اللغة أعم مما ذكره علماء البيان فليس هو محصورا فى الاستعارة التمثيلية والتشبيه التمثيلى ، والكناية ، وإنما هو قول محكى بليغ يصور المعنى المراد تصويرا دقيقا ، لا يتأتى فى غيره من الأساليب .

وما سمى المثل مثلا إلا أنه ماثل فى الذهن ، منطبع فى الخيال .

قال الآلوسى فى تفسيره : (والأمثال تضرب للكشف والبيان والمثل ـ بفتحتين ـ كالمثل بكسر فسكون ـ والمثيل فى الأصل النظير والشبيه ثم أطلق على الكلام البليغ الشائع الحسن ، المشتمل أما على تشبيه بلا تشبيه أو استعارة رائعة تمثيلية وغيرها . أو حكمة وموعظة نافعة ، أو كناية بديعة ، أو نظم من جوامع

الكلم الموجز ولا يشترط فيه أن يكون استعارة مركبة خلافا لمن وهم ، بل لا يشترط أن يكون مجازا إلى آخر ما قال) أ . هـ .

ولهذا نستطيع أن نقرر أن أصدق تعريف للمثل وأشمل أن يقال هو (إبراز المعنى فى صورة حسية تكسبه روعة وجمالا ، وتجعله أكثر إمتاعا للعقل وإمتاعا للأذن . بغض النظر عن مضربه ومورده بل لا يشترط أن يكون له مورد ، وإنما يجرى مجرى الحكم التى يتناقلها الناس فيما بينهم على سبيل الاحتجاج أو النصح ، أو الاتعاظ ، أو التفكه والتندر وما إلى ذلك من أغراض المثل التى سيأتى ذكرها .

وبهذا التعريف تدخل أمثال القرآن الكريم فهى تمثيل حال أمر بحال أمر آخر ، سواء ورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة أم بطريق التشبيه ، أم بطريق الكناية فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوى الذى هو الشبيه والنظير ، ولا يستقيم حملها ما يذكر فى كتب الأدب من تشبيه المضرب بالمورد ولا يشترط أن يكون فيه غرابة أو طرافة ولكنها صور مختلفة لمعانى ترد للعبرة والاتعاظ ، وتقريب ما يستعصى على العقول فهمه من الأمور الغيبية ، كصفة الجنة ، وكيفية زوال الدنيا ، وغير ذلك ، سواء صرح فيه بلفظ المثل أم لم يصرح به بأن أرسل إرسالا فاتخذه الناس مثلا يحتجون به ويعتبرون بما فيه . فالأمثال القرآنية مقاييس عقلية تخلو من التكلف والاعتاف ، وقواعد كلية للمبادىء الخلقية الصالحة لكل زمان ومكان .

والأصل فى المثل كما عرفنا أنه يقوم على تشبيه شىء بشىء لوجود عنصر تشابه بينهما أو أكثر .

وفى هذا الوجود الكبير أشباه ونظائر لا يحصيها إلا الله تعالى : إن الملاحظة الذكية تستطيع أن تتصيد للشىء الواحد عدة أشباه ونظائر من هذا الوجود الكبير .

ولا يشترط فى التشبيه أن يكون مطابقا من كل الوجوه ، بل يكفى فيه أن يلمح منه جانب فيه شبه ما صالح لتحقيق غرض من أغراض التشبيه أو التمثيل .

والمثل القرآنى أسلوب بيانى يجمع فى طياته نماذج حية مستمدة من الواقع المشاهد لتكون هذه النماذج أقيسة عامة للحقائق المجردة ، أو الأعمال المجربة ، أو الأمور التى لا تقع تحت الحس والادراك فى الدنيا والتى يترتب عليها أحكام شمولية ، ويبنى عليها صلاح أمر الناس فى الدنيا والآخرة وبهذا الاطلاق العام لمعنى المثل فى القرآن الكريم نفهم معنى قوله تعالى فى سورة الاسراء (٨٩) .

﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ وقوله تعالى فى سورة الزمر (٢٧)

﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ﴾ وقوله تعالى فى سورة الروم (٥٨)

﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ .

فهذا التعميم الموجود فى هذه الآيات إنما ينطبق على ذكر النماذج لكل نوع ليقاس عليها الأفراد المشابهة بغية الوصول إلى فهم أمور الدين والدنيا جميعا وما جاء فى القرآن من بيان قصص الأولين ، وما جرى لهم من أحداث ، وما أجرى الله عليهم من عقاب أو ثواب يعد من قبيل الأمثال ، فالقصة مهما طالت يصح أن نطلق عليها لفظ المثل لما فيها من العظات والعبر ، والمقاييس التى يعرف بها الخير والشر ، ويدرك بواسطتها ما هو طيب وما هو خبيث قال تعالى : ﴿ **ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين** ﴾ (النور ٣٤) .

وقد سماها الله أمثالا ، لأنها نماذج من حكمته فى إقامة عدله ، وقطع دابر الفساد المنتشر فى الأرض .

ولقد أشارت هذه الآية إلى ثلاثة أمور أنزلها الله تعالى لصلاح أمر عباده فى الدنيا والآخرة .

الأول : آيات **مبينات** لقواعد العقيدة ، وأحكام الشريعة وبعض الحقائق الكونية .

الثانى : **قصص** الذين خلوا من قبلنا ، وسماها الله مثلا ، لأن الغرض من ذكرها التنبيه على سنة الله وحكمته فى مجازاة عباده . وأبان الله هذا المعنى بقوله فى سورة الفتح : **(٢٣)**

﴿ **سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ **وبقوله فى سورة الأحزاب** ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل . ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ **(٦٢)** .

ونظير ذلك قول الله تعالى فى سورة فاطر (٤٣ ، ٤٤) .

﴿ **فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلا ، ولن تجد لسنت الله تحويلا أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا** ﴾ .

وقوله الله تعالى فى سورة (الأنفال ٣٨) .

﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين** ﴾ أى : فإنه يأتيهم ما أتى للأولين من عذاب وهلاك لأن ذلك من سنة الله فى عباده فليقيسوا أحوالهم وأعمالهم على أحوال وأعمال من سبقوهم من الكافرين ، وليعلموا أن سنة الله لها صفة الثبات وأن عقاب الله سينزل بهم كما نزل بالذين من قبلهم إذا استمروا على ما هم عليه من كفر ومقاومة لدعوة الحق .

ومن ذلك أيضا قول الله تعالى ـ فى سورة (غافر) :

﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كان يكسبون ، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم**

ما كانوا به يستهزئون ، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ، ﴾ (٨٢ ــ ٨٥ .

وقوله تعالى فى سورة (محمد ١٠) .

﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾ .

الأمر الثالث الذى تضمنته سورة (النور) فى الآية : ٣٤ هى :

المواعظ التى يرتقى بها المتقون إلى مراتب الأبرار والمقربين والمواعظ نوعان :

منها ما كان من قبيل الأمثال وهى أبلغ فى تقويم الأخلاق والسلوك ، وأعظم تأثيرا فى تخليص القلوب من شوائب الشرك ونزعات الشيطان ، ونزوات الهوى .

ومنها ما هو من قبيل النصح المجرد عن المشابهة ، والمماثلة ، وهى ما يسمى بالوعظ المباشر .

كما فى قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو ، وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ (**١٩٩ – الأعراف**)

« أنواع المثل فى القرآن الكريم »

يرى بعض الباحثين أن الأمثال القرآنية تنقسم من حيث هى إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الأمثال المصرحة أو القياسية .

وهى التى صرح فيها بلفظ المثل أو ما يقوم مقامه كقوله تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا** ﴾ (البقرة ١٧) .

﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون** ﴾ (الرعد ٣٥) .
﴿ **مثل نوره كمشكاة فيها مصباح** ﴾ (النور ٣٥)
﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة** ﴾ النور ج ٣)
﴿ **أو كظلمات فى بحر لجى** ﴾ (النور ٤٠) .

والثانى ــ ما يسمى بالأمثلة المرسلة ، وهى جمل قد أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه وكثر التمثيل بها لما فيها من العظة والعبرة والاقناع .

وقد اكتسبت صفة المثلية بعد نزول القرآن الكريم وشيوعها فى المسلمين ، ولم تكن فى وقت نزوله ، وهى فى جملتها مبادىء خلقية ودينية مركزة مثل قوله تعالى :

﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ (آل عمران ٩٢) .
﴿ **ليس لها من دون الله كاشفة** ﴾ (النجم ٥٨) .

﴿ الآن حصحص الحق ﴾ (يوسف ٥١) .
﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ﴾ (يس ٧٨) .
﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ (يوسف ٤١) .
﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ (هود ٨١) .
﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ (سبأ ٥٤) .
﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ (الانعام ٦١)
﴿ ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله ﴾ (فاطر ٤٣)
﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ (الاسراء ٨٤) .
﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ﴾ (البقرة ٢١٦) .
﴿ كل نفس بما كسبت وهينة ﴾ (المدثر ٣٨) .
﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ (المائدة ٩١) .
﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ (التوبة ٩١) .
﴿ هل جزاء الإحسان إلاالإحسان ﴾(الرحمن ٦٠) .
﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ﴾ (البقرة ٢٤٩) .
﴿ الآن وقد عصيت قبل ﴾ (يونس ٩١) .
﴿ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ﴾ (الحشر ١٤) .
﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ (فاطر ١٤) .
﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (الروم ٣٢) .
﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ﴾ (سبأ ١٣) .
﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ (سبأ ٢٣) .
﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ (البقرة ٢٨٦) .
﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ﴾ (المائدة ١٠٠) .
﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر ﴾ (الروم ٤١) .
﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ (الحج ٧٣) .
﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ (الصافات ٦١) .
﴿ وقليل ما هم ﴾ (ص ٢٤) .
﴿ فاعتبروا ياأولى الأبصار ﴾ (الحشر ٢) .

الثالث : ما يسمى بالأمثال الكامنة ، وهى لم تضرب لبيان حال خاصة ، ولا لصفة معينة ، ولا لتخليص حادثة وقعت فى زمن من الأزمان ، ولم يصرح فيها بالتمثيل من قريب ولا من بعيد ، ولكن يدل

مضمونها على معنى يشبه مثلا من أمثال العرب المعروفة أى أنها أمثال **بمعانيها** لا بألفاظها ، **فالتمثيل** فيها كامن غير ظاهر ، لهذا اسموها بالأمثال الكامنة .

قال الماوردى : سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول : سمعت أبى يقول : سألت الحسين بن الفضل فقلت إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن ، **فهل تجد** فى كتاب **الله** : ﴿ **خير الأمور أوساطها** ﴾ ؟ .

قال : نعم فى أربعة مواضع : قوله تعالى :

١ - ﴿ **لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك** ﴾ (البقرة ٦٨) .

٢ - ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ (الفرقان ٦٧) .

٣ - ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** ﴾ (الاسراء ٢٩) .

٤ - ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا** ﴾ (الاسراء ١١٠) .

قلت : **فهل** تجد فى كتاب الله ، (من جهل شيئا عاداه) .

قال : نعم ، فى موضعين : قوله تعالى : ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه** ﴾ (يونس ٣٩) .

وقوله : ﴿ **وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾ (الأحقاف ١١) .

قلت : فهل تجد فى كتاب الله (احذر شر من أحسنت إليه) .

قال : نعم قوله تعالى : ﴿ **وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله** ﴾ (التوبة ٧٤) .

قلت : فهل تجد فى كتاب الله (ليس الخبر كالعيان) .

قالق : فى قوله تعالى : ﴿ **قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى** ﴾ (البقرة ٢٦٠) .

قلت : **فهل** تجد (فى الحركات البركات) .

قال : فى قوله تعالى : ﴿ **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة** ﴾ (النساء ١٠٠) .

قلت : فهل تجد (كما تدين تدان) .

قال : فى قوله تعالى : ﴿ **من يعمل سوءا يجزبه** ﴾ (النساء ١٢٣) .

قلت : فهل تجد فيه قولهم : (حين تقلى تدرى) .

قال : فى قوله تعالى : ﴿ **وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا** ﴾ (الفرقان ٤٢) .

قلت : فهل تجد فيه (لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين) .

قال : ﴿ **هل آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل** ﴾ (يوسف ٦٤) .

قلت : فهل تجد فيه (من أعان ظالما سلط عليه) .

قال : فى قوله تعالى : ﴿ **كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير** ﴾ (الحج ٤) .

قلت : فهل تجد فيه (لا تلد الحية إلا حية) .

قال : فى قوله تعالى : ﴿ **ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾ (نوح ٢٧) .

قلت : فهل تجد فيه (للحيطان آذان) .

قال : فى قوله تعالى : ﴿ **وفيكم سماعون لهم** ﴾ (التوبة ٤٧) .

إلى غير ذلك مما نقله السيوطى فى الاتقان (الجزء الرابع) .

وأرى أن النوع الثالث ليس داخلا فى الأمثال على أى صورة من الصور ، لخلوه من وجه المشابهة بين الممثل والممثل له .

وهو مخالف فى حقيقته المثل ومفهومه فى اللغة ، وما ذكره السيوطى وغيره عن الحسين بن الفضل ضرب من تدريب القريحة على استخراج النظائر القرآنية لبعض ما تمثل به العرب فى عصورهم المختلفة من الأقوال الحكيمة التى أوجزت حادثة من الحوادث ، أو دلت على معنى من المعانى المعقولة .

أحكام صادقة لا مرية فيها

قال تعالى :

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

معانى المفردات

(مثوى) : مُقاماً ، من ثوى بالمكان يثوى ثُويًّا وثواءً : إذا أقام به . (والذى جاء بالصدق) : هو الرسول ﷺ (وصدق به) : هم أتباعه . (أسوأ الذى عملوا) أى : ما عملوه من المعاصى قبل الإسلام ، (ويجزيهم أجرهم) أى : يثيبهم على الطاعات التى فعلوها فى الدنيا (بكاف عبده) أى : يكفيه وعيد المشركين وكيدهم ، (الذين من دونه) : هم الأصنام . (ذى انتقام) أى : مما عاداه وعادى رسوله . (يحل عليه) : يجب عليه (يتوفى الأنفس) : يقبضها عن الأبدان . (لله الشفاعة جميعاً) : لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه (اشمأزت) : نفرت وانقبضت عن التوحيد (فاطر) : مبدع : أى : خلقهما سبحانه على غير مثال سبق .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ فيما سلف بعض هنات المشركين ، وبعض مقابحهم وأعقبه بمثل يشرح حالهم ـ أردف ذلك نوعا آخر منها وهو أنهم يَكْذِبُونَ فيثبتون لله ولدا ويثبتون له شركاء . ويكذّبون القائل المحق ، فيكذبون محمداً ﷺ بعد قيام الأدلة القاطعة على صدقه ، وبعد أن ذكر وعيد هؤلاء أعقبه بوعد الذى جاء بالصدق ووعد المصدقين له فبشرهم بالجنة والرضوان والغفران هذا فى الآخرة ، وفى الدنيا بالنصر فيكفيهم فى الدنيا ما أهمهم ، ولايضيرهم ما يخوفونهم به من غضب الأوثان والأصنام ، فإن الأمور كلها بيده ـ تعالى ـ فمن يضلله فلا هادى له ، ومن يهده فلا مضل له ، وهو ذو العزة المنتقم الجبار .

ثم ذكر أن قول المشركين يخالف فعلهم : فحين تسألهم من خلق السموات والأرض ؟ يقولون : الله : وهم مع ذلك يعبدون غيره ، ثم سألهم سؤال تعجيز : هل ما تعبدونه من وثن أو صنم يستطيع أن يكشف ضراً أراده الله بأحد ، أو يمنع خيراً قدره الله لأحد ؟ إذاً فالله حسبى وعليه أتوكل .

ثم أمره ـ سبحانه ـ أن يقول لهم : اعملوا كما تشاءون وسوف تعلمون من يحل عليه عذاب مقيم يوم القيامة .

ثم أخبر ـ سبحانه ـ أنه أنزل على رسوله الكريم القرآن الكريم بالحق وأنه ليس عليه إلا إبلاغه ،

فمن اهتدى فنفع ذلك عائد إليه ومن ضل ضلاله عليه ، وما وُكل عليهم ليجبرهم على الهدى .

ثم ذكر أنه ـ تعالى ـ يقبض الأرواح حين انقضاء آجالها ويقطع صلتها بها ظاهراً وباطناً ، وظاهراً فقط حين النوم ، فيمسك الأولى ولا يردها إلى البدن ، ويرسل الثانية إلى البدن حين اليقظة ، وفى ذلك دلائل على القدرة لمن يتفكر ويتدبر . ثم أبان ـ سبحانه ـ أن هذه الأصنام التى اتخذت شفعاء لا تملك لنفسها شيئا ولا تعقل شيئا ، فكيف تشفع ؟ وبعدئذ ذكر مقابحهم ومعايبهم وأنه إذا قيل : لا إله إلا الله وحده ظهرت آثار النفرة فى وجوههم ، وإذا ذكرت الأصنام ظهرت علامات الفرح والسرور فيها ، وهذا منتهى الجهل والحمق الشديد .

وبعد أن ذكر عن المشركين حبهم للشرك ونفرتهم من التوحيد ـ أمر رسوله بالالتجاء إليه لما قاساه فى أمر دعوتهم من شديد مكابرتهم وعنادهم تسلية له ، وبيانا لأن سعيه مشكور ، وتعليما لعباده أن يلجئوا إليه حين الشدة ، ويدعوه بأسمائه الحسنى . ﴿ **قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون** ﴾[1] .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين * والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ .

قال العلامة ابن كثير : يقول ـ عز وجل ـ مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله ، وجعلوا معه آلهة أخرى ، وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا لله ولداً ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ـ ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ ولهذا قال عز وجل : ﴿ **فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه** ﴾ أى : لا أحد أظلم من هذا لأنه جمع بين طرفى الباطل ، كذب على الله وكذب رسول الله ﷺ قالوا الباطل وردوا الحق ، ولهذا قال جلت عظمته متوعداً لهم : ﴿ **أليس فى جهنم مثوى للكافرين** ﴾ وهم الجاحدون المكذبون ثم قال جل وعلا : ﴿ **والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون** ﴾ .

قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد : الذى جاء بالصدق هو رسول الله ﷺ وقال السدى : هو جبريل ـ عليه السلام ـ (وصدق به) يعنى محمداً ﷺ وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد : (والذى جاء بالصدق وصدق به) قال : أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة

---

(١) سورة الزمر الآية : ٤٦

فيقولون : هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (والذى جاء بالصدق) هو رسول الله ﷺ (وصدق به) قال : المسلمون . وقوله تعالى : ﴿ **أولئك هم المتقون** ﴾ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : اتقوا الشرك . ﴿ **لهم ما يشاءون عند ربهم** ﴾ يعنى : الجنة مهما طلبوا وجدوا ﴿ **ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ كما قال ـ عز وجل ـ فى الآية الأخرى : ﴿ **أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون** ﴾[1] .

وفى ذكر تكفير الأسوأ إشارة إلى استعظامهم للمعصية مطلقا لشدة خوفهم من الله ، وإلى أن الحسن الذى يعملونه هو الأحسن عند الله لحسن إخلاصهم فيه .

قوله تعالى : ﴿ أليسَ الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام * ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون * من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ يعنى : أنه تعالى يكفى من عَبَده وتوكل عليه ، فهو وحده ـ سبحانه ـ الذى يدفع عن عباده الآفات ، ويزيل عنهم المصائب والويلات ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم : وأتى بالكلام على طريق الأسلوب الإنكارى للإشارة إلى كفايته ـ تعالى ـ على أبلغ وجه ، كأنها من الظهور بحيث لا يتيسر لأحد أن ينكرها ، فمن كان عبداً لله ، قائماً بحقه فى المكروه والمحبوب فذلك الذى تناوله قوله تعالى : ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ ؟ ، فالكفاية التامة مع العبودية التامة ، والناقصة مع الناقصة ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان ، قال تعالى : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾[2] فلم يجعل لعدوه سلطاناً على عباده المؤمنين ، فإنهم فى حرزه وكلاءته وحفظه وتحت كنفه .

وقوله تعالى : (**ويخوفونك بالذين من دونه** ﴾ يعنى : المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها من دون الله جهلا منهم وضلالا ، ولهذا قال ـ عز وجل ـ : ﴿ **ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام** ﴾ ؟ أى : ومن يضلله الله لتدنيسه نفسه وحبه للإثم والفسوق ومعصية الرسول ، فما له من هاد يهديه إلى الرشاد ويخلصه من الضلال . ﴿ **ومن يهد الله فما له من مضل** ﴾ أى : ومن يوفقه الله إلى أسباب السعادة بتزكية نفسه وتحبيبها إلى العمل الصالح ، فلا مضل له يصرفه عن مقصده أو يصيبه سوء يغير سلوكه ، إذ لاراد

---

(١) سورة الأحقاف آية : ١٦
(٢) سورة الحجر من الآية :٤٢

لفضله ، ولا معارض لإرادته ، وإلى ذلك أشار بقوله : ﴿ **أليس الله بعزيز ذى انتقام** ﴾ أى : الله عزيز لا يغالب منيع لا ينازع ولا يمانع ، وذو انتقام من أعدائه لأوليائه ، فهو الذى لا يضام من استند إلى جنابه أو لجأ إلى بابه .

وقوله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ يعنى المشركين كانوا يعترفون أن الله ـ عز وجل ـ هو الخالق للأشياء كلها ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ **قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته** ﴾ أى : لا تستطيع شيئا من الأمر وهذا كقوله تعالى : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾[(١)] وقوله تعالى : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم** ﴾[(٢)] وكقوله تعالى : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير * وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير** ﴾[(٣)] . وفى الحديث الصحيح عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : كنت خلف النبى ﷺ يوما ، فقال : « يا غلام ، إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف »[(٤)] . رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ **قل حسبى الله** ﴾ أى : الله الكافى وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير . ﴿ **عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون** ﴾ وهذا كما قال هود ـ عليه السلام ـ لقومه حين قال له قومه : ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾[(٥)] وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله عز وجل أوثق منه بما فى يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل »[(٦)] .

---

(١) سورة فاطر الآية : ٢

(٢) سورة يونس الآية : ١٠٧

(٣) سورة الأنعام الآيتان : ١٧ ـ ١٨

(٤) انظر سنن الترمذى « أبواب صفة القيامة » جـ ٤ ص ٧٦ حديث ٢٦٣٥ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

(٥) سورة هود الآيات : ٥٤ ـ ٥٦ .

(٦) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب الأدب » جـ ٤ ص ٢٧٠ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس مع اختلاف فى ترتيب جمله .

وانظر الحلية جـ٣ ص ٢١٨ فقد ورد الحدث من رواية ابن عباس .

وقوله تعالى : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أى : على طريقتكم وهذا تهديد ووعيد ﴿ إنى عامل ﴾ أى : على طريقتى ومنهجى ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أى : ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أى : فى الدنيا ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أى : دائم مستمر لا محيد عنه ، وذلك يوم القيامة - أعاذنا الله منها .

قوله تعالى : **﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل * الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾** .

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ : ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب ﴾ يعنى : القرآن الكريم ﴿ للناس بالحق ﴾ أى : لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ﴿ فمن اهتدى فلنفسه ﴾ أى : فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿ ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ أى : إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ، ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أى : بموكل أن يهتدوا . كقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾[1] وكقوله تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾[2] ، وكقوله تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

ذكر سبحانه بعد ذلك نوعاً من أنواع قدرته البالغة ، وصفته العجيبة فقال - جل فى علاه - : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ أى : هو الذى يقبض الأنفس حين انقضاء آجالها بالموت ، ويقطع تعلقها بالأجساد تعلق المتصرف فيه . ﴿ والتى لم تمت فى منامها ﴾ أى : ويتوفى الأنفس التى لم يحضر أجلها ، فيقبضها عن التصرف فى الأجساد مع بقاء الأرواح متصلة بها ﴿ فيمسك التى قضى عليها الموت ﴾ أى : فيمسك التى قضى عليها الموت فلا يردها إلى الأجساد ، ﴿ ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ أى : ويرسل النائمة إلى الأجساد حين اليقظة إلى أجل مسمى وهو وقت الموت . لذا كان الحبيب المصطفى ﷺ حينما يتيقظ من نومه يقول : « الحمد لله الذى رد على روحى ، وعافانى فى جسدى ، وأذن لى بذكره »[4] (رواه ابن السنى بإسناد صحيح عن أبى هريرة) .

وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره (طرفه الذى يلى الجسد ويلى الجانب الأيمن) فإنه لا يدرى ما خلفه عليه ، ثم ليقل : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين »[5] وهذا الحديث شرح للآية الكريمة ، والمؤمن فى تدبره للآية

---

(١) سورة يونس الآية : ١٠٨ . (٢) سورة الأنعام الآية : ١٠٤ . (٣) سورة الأسراء ، الآية : ١٠٥

(٤) انظر ابن السنى « باب ما يقول إذا استيقظ من منامه » جـ ٥ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

(٥) انظر صحيح البخارى « كتاب الدعوات » جـ ٨ ص ٨٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

والحديث معاً يشعر أن روحه فى يد الله ، وأنه يستمد محياه لحظة بعد أخرى هبة من رب العالمين ، قد يضع جنبه فلا ينهض إلا يوم النشور ، فإن كان ذلك فهو يرجو الرحمة . وإن قام ليبدأ نهاراً آخر فهو يرجو أن يحيا فى ضمان الله وحفظه .

وعن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهم أسلمت نفسى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت : فإن مت مِت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تقول »[1] (رواه البخارى) ، وقوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ أى : إن فيما ذكر لآيات عظيمة دالة على كمال قدرته وحكمته لمن يتفكر فى طريق تعلق الأنفس بالأبدان وتوفيها منها بانقطاع تصرفها حين الموت مع بقائها فى عالم آخر إلى أن يعيد الله الخلق ، وفى قطع تصرفها فى الظاهر فقط فى حال النوم . ثم إرسالها حال اليقظة إلى انقضاء آجالها . ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجلٌ مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لايملكون شيئا ولا يعقلون * قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون * وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون * قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ .

يقول ـ تعالى ـ ذاماً للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله وهم الأصنام والأنداد التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان وهى لا تملك شيئا من الأمر ، بل وليس لها عقل تعقل به ولا سمع تسمع به ولا بصر تبصر به ، بل هى جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير ، ثم قال : **قل** ، أى : يا محمد لهؤلاء الزاعمين إن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه ﴿ **من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه** ﴾[3] .

﴿ **له ملك السموات والأرض** ﴾ أى : هو المتصرف فى جميع ذلك ﴿ **ثم إليه ترجعون** ﴾ أى : يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزى كلا بعمله . كقوله تعالى : ﴿ وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة واليه ترجعون * ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾[4] . ثم قال ـ تعالى ـ ذامّا للمشركين أيضاً : ﴿ **وإذا ذكر الله وحده** ﴾ أى : إذا قيل : لا إله إلا الله وحده ﴿ **اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ قال مجاهد : اشمأزت :

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الدعوات » باب إذا بات طاهرا جـ ٨ ص ٨٤ ـ ٨٥ فقد ورد الحديث عن البراء بن عازب . وانظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع جـ ٤ ص ٢٠٨١ ، ٢٠٨٢ حديث رقم ٥٦/٢٧١٠ فقد ورد الحديث بلفظه عن البراء بن عازب .

(٢) سورة الأنعام الآيات : ٦٠ ـ ٦٢ (٣) سورة البقرة من الاية : ٢٥٥ (٤) سورة الزخرف الآيتان : ٨٥ ـ ٨٦ .

انقبضت ، وقال السدى : نفرت ، وقال قتادة : كفرت واستكبرت . كما قال تعالى : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾[١] أى : عن المتابعة والانقياد فقلوبهم لا تقبل الخير ومن لم يقبل الخير يقبل على الشر ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **وإذا ذكر الذين من دونه** ﴾ . **أى : من الأصنام** والأنداد ﴿ **إذا هم يستبشرون** ﴾ أى : يفرحون ويسرون .

وقوله تعالى : ﴿ **قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ . أى : ادع - أنت يا محمد - الله وحده لا شريك له الذى خلق السموات والأرض وفطرها أى : جعلها على غير مثال سابق ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ أى : السر والعلانية ﴿ **أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ أى : فى دنياهم ، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم .

قال مسلم فى صحيحه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة - رضى الله عنها - بأى شىء كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يفتتح صلاته ؟ قالت - رضى الله عنها - : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »[٢] .

وقال الإمام أحمد بسنده : عن أبى عبد الرحمن قال : أخرج لنا عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قرطاساً وقال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا نقول : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت رب كل شىء وإله كل شىء . أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك والملائكة يشهدون ، أعوذ بك من الشيطان وشركه ، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثما أو أجره إلى مسلم »[٣] قال أبو عبد الرحمن - رضى الله عنه - : كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن يقول ذلك حين يريد أن ينام . تفرد به أحمد .

عاقبة الظالمين

قال تعالى :

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ

(١) سورة الصافات الآية : ٣٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » جـ ١ ص ٥٣٤ حديث ٢٠٠/٧٧ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الرحمن ابن عوف .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ١٧١ فقد ورد الحديث فى رواية لعبد الله ابن عمرو .

ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

معانى المفردات

(يحتسبون) : يظنونه ويتوقعونه ، (حاق بهم) : نزل أو أحاط بهم . (خولناه نعمة) : أعطيناه إياها . (هى فتنة) : تلك النعمة امتحان وابتلاء . (بمعجزين) : بفائتين من العذاب بالهرب . (يقدر) يضيقه على من يشاء بحكمته .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد ما ذكر ـ سبحانه ـ عن المشركين حبهم للشرك ونفرتهم من التوحيد وأمر رسوله بالالتجاء إليه وحده وتفويض الأمر إليه فهو ـ سبحانه ـ الحاكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون ، ذكر أحوال هؤلاء المشركين يوم القيامة حين يرون الشدائد والأهوال وما ينتظرهم من العذاب ، ثم حكى عنهم أنهم حين الوقوع فى الضر من فقر ومرض يفزعون إلى الله ويلجئون إليه علما منهم أنه لا دافع له إلا هو ، وإذا نالتهم بعض النعم من فضله زعموا أن ذلك بكسبهم ، وحسن صنيعهم ، وجميل تدبيرهم ، والحقيقة أن ما أوتوه إنما هو فتنة لهم واختبار لحالهم ، ليعلم أيشكرون أم يكفرون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون وما هذه المقالة ببدع منهم ، بل قالها كثير قبلهم فلم ينفعهم ذلك شيئا ، ثم ذكر سبحانه أن بسط الرزق وتقتيره بيد الله يبسطه تارة ، ويقبضه أخرى ، وليس ذلك لسعة الحيلة وحسن التدبير وحدهما ، فإنا نرى كثيرا من العقلاء وأرباب التدبير للمال وحسن تصريفه فى ضيق شديد ، وكثيرا من الجهلاء والحمقى فى بحبوحة من العيش ورغد عظيم منه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون * وبدا لهم سيئات ماكسبوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون ﴾ .

أخرج الإمام مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل من أهل النار

فيقال له : يا ابن آدم كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول : شر مضجع ، فيقال : هل تفتدى بقراب الأرض ذهبا ؟ قال : فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تعالى : (كذبت لقد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل ، فيؤمر به إلى النار)[١] .

فقوله ـ عز وجل ـ ﴿ **ولو أن للذين ظلموا** ﴾ وهم المشركون ﴿ **ما فى الأرض جميعا ومثله معه** ﴾ أى : ولو أن جميع ما فى الأرض وضعفه معه لهم ﴿ **لا فتدوا به من سوء العذاب** ﴾ أى : الذى أوجبه الله تعالى عليهم يوم القيامة ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾[٢] وكقوله تعالى : ﴿ . . والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾[٣] وكقوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم * يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم** ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾ أى : وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن فى بالهم ولا فى حسابهم . ﴿ **وبدا لهم سيئات ماكسبوا** ﴾ أى : وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا فى الدار الدنيا من المحارم والمآثم . ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ أى : وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به فى الدار الدنيا كقوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لايعلمون * قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون * فأصابهم سيئات ماكسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ماكسبوا وماهم بمعجزين * أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

يقول ـ تبارك وتعالى ـ مخبرا عن الإنسان أنه فى حالة الضراء يتضرع إلى الله ـ عز وجل ـ وينيب إليه ويدعوه وإذا خوله نعمة منه بغى وطغى وقال : ﴿ **إنما أوتيته على علم** ﴾ أى : لما يعلم الله تعالى من استحقاقى له ، ولولا أنى عند الله خصيص لما خولنى هذا قال الله عز وجل : ﴿ **بل هى فتنة** ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصى مع علمنا المتقدم بذلك فهى فتنة أى : اختبار ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون ﴿ **قد قالها الذين من قبلهم** ﴾ أى : قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿ **فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ أى : فما صح قولهم ولا نفعهم

(١) انظر مسند الإمام أحمد جـ٣ ص٢٠٧ ـ ٢٠٨ فقد ورد الحديث من رواية لأنس بلفظ « منزلك » بدلا من « مضجعك » .
(٢) سورة آل عمران الآية : ٩١ .
(٣) سورة الرعد من الآية : ١٨ .
(٤) سورة المائدة الآيتان : ٣٦ ـ ٣٧ .
(٥) سورة العنكبوت الآيات : ٥٣ ـ ٥٥ .

جمعهم وما كانوا يكسبون ﴿ **فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء** ﴾ أى : من المخاطبين ﴿ **سيصيبهم سيئات ما كسبوا** ﴾ أى : كما أصاب أولئك ﴿ **وما هم بمعجزين** ﴾ كما قال تبارك وتعالى مخبرا عن قارون أنه قال له قومه : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون * فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم * قال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون * فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟** ﴾ أى : أو لم ير هؤلاء أن الله هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء تارة ، ويضيق على من يريد أخرى ، كما يشاهد من اختلاف الناس فى سعة الرزق وضيقه ، وليس ذلك لجهل فى الكاسب أو علم لديه ، فربما كان العاقل القادر ضيق الرزق والجاهل أو المريض ذا سعة وبسطة فى المال ، والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة لذا يعطى الكافر ، كما يعطى المؤمن قال تعالى : ﴿ **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ أى : إن فى هذا لدلالات لقوم يؤمنون بالله ويقرون بوحدانيته ، وهم الذين يعلمون أن الذى يفعل ذلك هو الله ولا سواه وأنه سبحانه يفعل ما يريد .

رحمة وتوجيه

قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

(١) سورة القصص الآيات : ٧٦ - ٨١ (٢) سورة الإسراء الآيتان : ١٩ ، ٢٠ .

معانى المفردات

﴿ **أسرفوا** ﴾ الإسراف : تجاوز الحد فى كل ما يفعله المرء ، وكثر استعماله فى إنفاق المال وتبذيره ، والمراد هنا الإفراط فى المعاصى .

﴿ **لا تقنطوا** ﴾ أى : لا تيأسوا ﴿ **وأنيبوا** ﴾ الإنابة : الرجوع ﴿ **وأسلموا له** ﴾ الإسلام لله : الاخلاص له ﴿ **أحسن ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ : هو القرآن ، ﴿ **بغتة** ﴾ : فجأة ﴿ **يا حسرتا** ﴾ أى : يا حسرتى وندمى ﴿ **فرطت** ﴾ أى : قصرت ، ﴿ **فى جنب الله** ﴾ أى : فى عبادته وطاعته ﴿ **لمن الساخرين** ﴾ أى : المستهزئين ، ﴿ **كرة** ﴾ أى : رجعة ﴿ **وجوههم مسودة** ﴾ أى : لما يظهر عليها من آثار الذل والحسرة ﴿ **مثوى** ﴾ : مقام الظفر بالبغية على أتم وجه .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن أوعد الكافرين ـ فيما سلف ـ أردفه ـ سبحانه ـ ذكر رحمته وفضله على عباده المؤمنين **بغفران ذنوبهم** إذا هم تابوا وأنابوا إليه وأخلصوا له العمل ، ليكون فى ذلك مطمع لهؤلاء الضالين ومنبه لهم من ضلالهم . أخرج البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا فأتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾ ونزل ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾[1] . ثم ذكر سبحانه ما سيكون للمشركين من أهوال يوم القيامة ، ووعد المتقين بما يمنحهم من الفوز والنعيم فى ذلك اليوم .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ الآيات . قال البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمدا ﷺ فقالوا إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ ونزل ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

وهذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب التفسير » تفسير « سورة الزمر » جـ ٦ ص ١٥٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .
وانظر فتح البارى بشرح البخارى فى « كتاب التفسير » تفسير « سورة الزمر » جـ ٨ ص ٥٤٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية ابن عباس .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب كون الإسلام يهدم ما قبله جـ ١ ص ١١٣ حديث رقم ١٢٢/١٩٣ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن يتب منه ، ومثل هذه الآية قول المولى عز وجل فى سورة النساء : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾(١)

وقوله تعالى : ﴿ إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما ﴾(٢) . وقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾(٣) وقوله تعالى : ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾(٤) وقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾(٥) وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾(٦) وقوله تعالى : ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً ﴾(٧) ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾(٨) .

وقوله : ﴿ والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً * إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً * ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾(٩) .

وقوله تعالى : ﴿ حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب ﴾(١٠) وقوله جل شأنه : ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين ﴾(١١) وقوله جل شأنه : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾(١٢) وقوله : ﴿ ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾(١٣) .

حديث قدسى جليل

أخرج الإمام مسلم :

عن أبى ذر الغفارى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه ـ عز وجل ـ أنه قال : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال

(١) سورة النساء الآيات : ٢٦ ـ ٢٨ .
(٢) سورة النساء الآية : ٤٠ .
(٣) سورة النساء الآية ٣١ .
(٤) سورة النساء الآية : ٤٨ .
(٥) سورة النساء من الآية : ٦٤ .
(٦) سورة النساء الآية : ١١٠ .
(٧) سورة النساء الآية : ١١٦ .
(٨) سورة الحجر الآية : ٤٩ .
(٩) سورة الفرقان الآيات : ٦٨ ـ ٧١ .
(١٠) سورة غافر الآيات : ١ ـ ٣ .
(١١) سورة القصص الآية : ٦٧ .
(١٢) سورة النور من الآية : ٣١ .
(١٣) سورة التحريم الآية ٨ .

إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[١] .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذى قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم ندم وسأل عابداً من عباد بنى إسرائيل هل له من توبة ، فقال : لا : فقتله وأكمل به مائة ثم سأل عالما من علمائهم هل له من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ، ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدها فأتاه الموت فى أثناء الطريق فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأمر الله عز وجل أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة[٢] .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ قال : قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله ، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله ، ومن زعم أن عزيرا ابن الله ومن زعم أن الله فقير ، ومن زعم أن يد الله مغلولة ، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول الله تعالى لهؤلاء : ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم** ﴾ . ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولا من هؤلاء ، من قال ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ وقال : ﴿ **ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ قال ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - : من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه .

وروى الطبرانى من طريق الشعبى عن سنيد بن شكل أنه قال : سمعت ابن مسعود يقول : إن أعظم آية فى كتاب الله ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾[٣] وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾[٤] وإن أكثر آية فى القرآن فرحا فى سورة الزمر ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله** ﴾[٥] وإن أشد آية فى كتاب الله تفويضاً ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب** ﴾[٦] فقال له مسروق : صدقت .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم الظلم » جـ ٤ ص ١٩٩٤ - ١٩٩٥ حديث رقم ٢٥٧٧/٥٥ فقد ورد الحديث من رواية لأبى ذر .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب التوبة » باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله جـ ٤ ص ٢١١٨ - ٢١١٩ حديث رقم ٤٦ ، ٢٧٦٦/٤٧ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٥٥ . (٤) سورة النحل من الآية : ٩٠ . (٥) سورة الزمر من الآية : ٥٣ .

(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب « فضل سورة الكهف وآية الكرسى » جـ ١ ص ٥٥٦ حديث رقم ٨١٠/٢٥٨ فقد ورد الحديث من رواية أبى بن كعب فى فضل آية الكرسى .

وانظر تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤٥٠ تفسير « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى بن كعب .

وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم ، والذى نفس محمد ﷺ بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم » تفرد به أحمد[١] .

قوله تعالى : ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون** ﴾ .

بعد أن وعد سبحانه بالمغفرة ، أمر بشيئين :

١ ـ الإنابة إليه بقوله تعالى : ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون** ﴾ أى : أيها الناس ، أنيبوا إلى ربكم بالتوبة ، وارجعوا إليه بالطاعة ، واستجيبوا إلى ما دعاكم إليه من توحيده وإفراد الألوهية قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تجدوا نصيراً ولا معيناً من عذابه النازل بكم .

٢ ـ اتباع الأحسن بقوله : ﴿ **واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون** ﴾ أى : واتبعوا ما أمركم به ربكم فى تنزيله ، واجتنبوا ما نهاكم عنه فيه ، فإن هذا القرآن حبل الله المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، وهو سبب طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً . فاتبعوه ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة وأنتم لا تعلمون به حتى يغشاكم . ولا يخفى ما فى هذا من تهديد ووعيد .

فالواجب على المؤمن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن لا يقدر عليها ويحال بينها وبينه إما بمرض أو موت أو ظهور علامات الساعة الكبرى التى لا يقبل معها عمل ، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليه ، ويتمنى الرجوع إلى حال يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمنية لذا يقول سبحانه : ﴿ **أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين** ﴾ أى يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط فى التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين لله عز وجل ، وقوله عز وجل : ﴿ **وإن كنت لمن الساخرين** ﴾ أى : إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر مستهزىء غير موقن مصدق ﴿ أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكوّن من المحسنين ﴾ أى تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : أخبر الله تعالى ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، وعملهم قبل أن يعملوه . وقال تعالى : ﴿ **ولا ينبئك مثل خبير** ﴾ ﴿ **أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين** ﴾ . فأخبر سبحانه أن لو ردوا لما قدروا

(١) انظر مسند الإمام أحمد جـ٣ ص٢٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أنس بن مالك .

على الهدى فقال تعالى : ﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾[١] وقد قال الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : لو أن الله هدانى ، فتكون عليه حسرة ، قال : وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هدانى . قال فيكون له الشكر »[٢] ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين** ﴾ أى : قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتى فى الدار الدنيا ، وقامت حججى عليك فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها . .

وقوله تعالى : ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين * وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لايمسهم السوء ولا هم يحزنون** ﴾ .

يخبر تعالى عن يوم القيامة : أنه تسود فيه وجوه ، وتبيض وجوه ، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة كما قال تعالى : ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾[٣] وكقوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجو يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة** ﴾[٤] وكقوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[٥] .

وقال تعالى ههنا : ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة** ﴾ . وجوههم مسودة بسبب كذبهم وافترائهم . ﴿ **أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين** ﴾ أليست جهنم كافية لهم سجنا وموئلا ، لهم فيها الخزى والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق .

قال ابن أبى حاتم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس ، يعلوهم كل شىء من الصغار حتى يدخلوا سجنا من النار فى واد يقال له بولس من نار الأنيار ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال** »[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ **وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لايمسهم السوء ولا هم يحزنون** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون * لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون** ﴾[٧] وكقوله تعالى : ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً * ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾[٨] .

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٢٨ .
(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ٢ ص٥١٢: فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .
(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٠٦ ، ١٠٧ . (٤) سورة عبس الآيات : ٣٩ ، ٤٣ (٥) سورة يونس الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .
(٦) انظر تفسير ابن كثير جـ٧ ص١٠٢ تفسير قوله تعالى : « أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » فقد ورد الحديث بلفظه .
(٧) سورة الأنبياء الآيات : ١٠١ - ١٠٣ (٨) سورة مريم الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

أحكام عصاة المؤمنين

هذا البحث عبارة عن مجموعة من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية قام بجمعها وتقديمها فى كتاب الأستاذ/ مروان كجك ، ويحدثنا الأستاذ مروان كجك عن أهمية هذه الفتاوى فيقول ما نصه :

اقتضى الواقع الإسلامى اليوم ضرورة الرجوع إلى منهاج سلفنا الصالح والتحصن فى قلاع الحق ، فلا ندع مكاناً لرأى خارج عن الشريعة يعمل فى صفوف المسلمين ليصرفهم عن الغاية التى أرسل الرسل من أجلها .

ومع ابن تيمية نسير فى صراط مستقيم - إن شاء الله - واضعين التصور الإسلامى منهجا ينظر من خلاله إلى الأشخاص والأوضاع والأحوال غير آبهين بمسميات يستغل بريقها على ساحة العمل الإسلامى اليوم ، ولا يخفى المراد منها إلا على النعام أو الأطفال .

ويجدر بنا فى وقت كثر فيه الكلام عن التفسيق ، والتكفير ، واللعن والتخليد فى النار ، أن نصغى إلى كلمة الحق ، فننزل الناس منازلهم التى أنزلهم إياها الشرع . فلا نبارك الاستهانة بأمر الدين ، ولا نغلو فى الأحكام غلواً يفوتنا فيه الحق ، فلا نربى فينا مستخفاً متهاوناً ، ولا ندفع أحداً إلى قنوط أو يأس ، ولا نساهم فى بناء إنسان لا يرى الآخرين إلا كفارا ، أو فساقاً ، أو آبقين ، كذلك ولا ننشىء فى أحد تصوراً يرى من خلاله الناس كلهم صالحين وأمرهم موكول إلى ربهم . .

وتأتى مسألة التكفير فى طليعة ما يعانى منه الشباب اليوم من عدم وضوح الرؤية وسلامة النظرة . وهنا لابد من وضع الأمر فى نصابه وتجليته تماماً أمام الباحثين عن الحقيقة . وفى هذا يقول ابن تيمية - رحمه الله - فيما يكفر به الشخص عند أهل السنة والجماعة :

« إنه تقرر من مذهب أهل السنة والجماعة ما دل عليه الكتاب والسنة أنهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب ، ولا يخرجونه من الإسلام بعمل إذا كان فعلا منهياً عنه ، مثل الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، ما لم يتضمن ترك الإيمان ، وأما إن تضمن ترك ما أمر الله بالإيمان به مثل الإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، فإنه يكفر به ، وكذلك يكفر بعدم اعتقاد وجوب الواجبات الظاهرة المتواترة ، وعدم تحريم المحرمات الظاهرة المتواترة » . ويقول فى موضع آخر : « من جحد مبانى الإسلام فهو كافر بالاتفاق » . حتى ولو اقتنى أشرطة تسجيل القرآن المرتل والمجوّد ، أو زين خطبه وكلماته بآيات الله البينات أو ادعى كذباً وبهتاناً أنه لا يريد إلا خير الإسلام والمسلمين .

أما فساق أهل الملة فيقول رحمه الله فى حقهم : « يؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذى يستوجبون به الجنة ، وأنهم لا يخلدون فى النار ، بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال خردلة من إيمان ، وأن النبى ﷺ ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته .

وفى موضع آخر ينبه إلى صنف آخر من الذين يكفرون ولو قالوا : (لا إله إلا الله) وهم مما لا يخلو منهم عصر ممن لم يحتمل العيش فى الظل ، فأطل برأسه غروراً وتيهاً لما لم يجد من لم

يسفع ناصيته الخاطئة الكاذبة أولئك الذين يكذبون الرسول ﷺ وهل رفض السنة إلا التكذيب الفاضح للرسول ﷺ الموصوف من ربه :

﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى** ﴾(١) يقول رحمه الله : « من قال بلسانه : لا إله إلا الله ، وكذب الرسول فهو كافر باتفاق المسلمين » .

ومع ذلك فلا يجوز الإسراع فى إصدار الأحكام على الناس بغير علم ، أو تكفير المسلمين تبعا لهوى فى أنفسنا أو تبعا لتفسير لا يحتمل معه كفر محض ، بل لابد من الرجوع فى ذلك إلى أهل الذكر ، ومعرفة ما تنازع فيه المسلمون حتى لا نطلق الأحكام جزافاً ، فنضع فى اللوحة المضيئة من نضع ، ونخص بالقائمة السوداء من نخص . وفى هذا المعنى يقول رحمه الله : « لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه كالمسائل التى تنازع فيها أهل القبلة » .

وليس الكفر ضرورة لازمة للكافر لا يمكنه الانعتاق منه ، بل باستطاعته أن يؤمن بالله ورسوله ويتبع سبيل المؤمنين . وقد أمر الله نبيه أن يُبلغ الكافرين بأنهم إن انتهوا من كفرهم يغفر الله لهم ما قد سلف قال تعالى : ﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف** ﴾(٢) .

وفى ذلك يقول ﷺ لعمرو بن العاص - رضى الله عنه - :

« يا عمرو إن الاسلام يجب ما قبله »(٣) وهذا ما أشار إليه ابن تيمية فى قوله : « تقبل توبة الداعى إلى الكفر وتوبة من فتن الناس عن دينهم » .

والتوبة باب واسع من أبواب رحمة الله بعباده ، وهى واجبة على كل عبد ، يقول : « إن التوبة واجبة على كل عبد فى كل حال ، لأنه دائما يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور ، فعليه أن يتوب دائما » .

وليس هناك ذنب لا يغفر للمستغفرين الصادقين فى استغفارهم المشفقين من عذاب الله « إن الله يغفر كل ذنب : الشرك والقتل والزنا ، وغير ذلك من حيث الجملة ، فهى عامة فى الأفعال مطلقة فى الأشخاص » فرحمة الله وسعت كل شىء ولا غرابة فى ذلك أليس الله سبحانه هو القائل فى كتابه المجيد : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ . أى : لمن تاب رغم أنف الذين يحتكرون حق توزيع المغفرة على من يشاءون ، وحجزها عمن يشاءون . . .

ولا يخلد فى النار موحد مات على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قال ابن تيمية : « من مات على الإيمان فإنه لا يخلد فى النار » .

« وإن كان من أهل الكبائر فأمره موكول إلى الله ، إن شاء عذب وإن شاء غفر له » « فإن ارتد عن الإسلام ومات مرتداً كان فى النار » . « فالسيئات تحبطها التوبة ، والحسنات تحبطها الردة » .

---

(١) سورة النجم الآيتان : ٣ ، ٤ . (٢) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ١٩٨ - ١٩٩ فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل لعمرو بن العاص . وانظر ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ فقد ورد الحديث من روايات لعمرو بن العاص .

« ومن غفر له لم يعذب ومن لم يغفر له عذب ، وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة » « ومن كان له حسنات وسيئات فإن الله لا يظلمه ، بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

ولابد قبل ذلك كله من معرفة الحق والفقه فى دين الله لتطابق الأحكام الأحوال ، فلا نظلم أحدا . ولا نفرط فى حق أحد فحكم أئمة الناس غير حكم عامتهم ، وفى ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله : « فالمتأول والجاهل والمعذور ليس حكمه حكم المعاند والفاجر ، بل قد جعل الله لكل شىء قدراً » معتمداً فى ذلك الرأى على قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[1] .

وقول النبى ﷺ فى الصحيحين : « ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين »[2] ويعلن ابن تيمية رأيه صراحة فى أمور التكفير ، والتفسيق ، والعصيان ، فيقول : « إنى من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلى تكفير ، وتفسيق ، ومعصية إلا إذا قد علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التى من خالفها كان كافرا تارة ، وفاسقا تارة وعاصيا تارة ، وإنى أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها وذلك يعم الخطأ فى المسائل الخيرية القولية والمسائل » .

فعلى دعاة الإسلام وشبابه أن يعوا هذه الحقائق والأحكام ، وهم أكثر الناس حاجة لمعرفتها والإحاطة بمراميها والأخذ بها بكل حكمة وروية ، وأن ينظروا إليها مجتمعة غير مجزأة فمن اجتزأ من الاسلام أحكاما وأضرب عن أحكام لم يسر إلا فى طريق ملتوية تقود إلى تجارب مخفقة كتلك التجارب التى تبرز بين الحين والآخر على الساحة الإسلامية ، فيتخذها المعاندون فى الأرض ذريعة لضرب الحركة الإسلامية والتنكيل بأهلها تشريداً وتعذيباً وقتلا .

ولا يذهبن بنا الغرور إن عرفنا طرفا من العلم أن ذلك يكفينا ، وينير لنا السبيل ولكن لنعلم أنه لابد من الأخذ عن أهل العلم والمعرفة المخلصين الواعين الذين ينظرون بمنظار الشريعة ، ويبصرون ببصائر الحق ، ولا نحكم بغير علم وروية . فللعلم عدته ، وللتتلمذ مدته ، ولا تستساغ الثمار إلا ناضجة ، ولا يجتنى الزرع إلا إذا استحصد ، ولنعد تلامذة فى مدرسة الإسلام **فنتلقى للعمل ، ونعد** للحركة ، ولا تنحرف بنا الآمال والأحلام عن نسيان الواقع ، لنحسن التعامل معه على الوجه الأمثل الذى رسمه الإسلام ، وخطته الشريفة وفهمه الأوائل وطبقه السلف الصالح رضوان الله عليهم » وإنى لأرجو الله سبحانه وتعالى أن تؤدى هذه الرسالة المجموعة من خلال كتب ابن تيمية الغرض المبتغى منها ، فيسترشد بها الشباب ، وتكون تبصرة لأولى الألباب ممن يريد أن يعمل على تبليغ الدعوة ويود لو استطاع حمل الأمانة بجدارة تساوى ثقل المهمة الملقاة على عاتق هذا الجيل من المسلمين . والله أسأل أن ينفعنى بها والمسلمين والمثوبة لا ترجى إلا من الله الذى أطمع أن يجعلها لى مغفرة لخطيئتى يوم الدين . اللهم آمين .

---

(١) سورة الإسراء من الآية ١٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب التوبة » باب « غيرة الله - تعالى - وتحريم الفواحش » جـ ٤ ص ٢١١٤ حديث رقم ٣٥ / ٢٧٦٠ فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل لعبد الله بن مسعود « وليس أحد أحب إليه العذر من الله ؛ من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل »

الوعـد والوعيد

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله :

وأما قول القائل : من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة ، واحتجاجه بالحديث المذكور .

فيقال له : لا ريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد وقد قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾[1] وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما * ومن يفعل ذلك عدوانا وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً ﴾[2] .

ومثل هذا كثير من الكتاب والسنة ، والعبد عليه أن يصدق بهذا وبهذا ، لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد ويكذبوا بالوعيد .

« والحرورية والمعتزلة » أرادوا أن يصدقوا بالوعيد دون الوعد ، وكلاهما أخطأ ، والذى عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بالوعد والوعيد فكما أن ما توعد الله به العبد من العقاب . قد بين سبحانه أنه بشروط : بأن لا يتوب ، فإن تاب تاب الله عليه ، وبأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وبأن لا يشاء الله أن يغفر له ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[3] فهكذا الوعد له تفسير وبيان . فمن قال بلسانه : لا إله إلا الله وكذب الرسول فهو كافر باتفاق المسلمين ، وكذلك إن جحد شيئاً مما أنزل الله .

فلابد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ ، ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره إلى الله إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له فإن ارتد عن الإسلام ومات مرتداً كان فى النار ، فالسيئات تحبطها التوبة ، والحسنات تحبطها الردة ، ومن كان له حسنات وسيئات فإن الله لا يظلمه ، بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . والله تعالى قد يتفضل عليه ويحسن إليه بمغفرته ورحمته .

ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد فى النار . فالزانى والسارق لا يخلد فى النار ، بل لابد أن يدخل الجنة . فإن النار يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وهؤلاء المسئول عنهم يسمون القدرية المباحية المشركين . وقد جاء فى ذمهم من الآثار ما يضيق عنه هذا المكان والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(مجموع الفتاوى ج ٨ ص ٢٧٠)

---

(١) سورة النساء آية : ١٠ .

(٢) سورة النساء الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ .

(٣) سورة النساء من الآية : ٤٨

النار الكبرى

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

وقوله تعالى : ﴿ ويتجنبها الأشقى * الذى يصلى النار الكبرى * ثم لايموت فيها ولايحيى ﴾[(١)]
وقد ذكر فى سورة الليل : ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذى كذب وتولى ﴾[(٢)] .

وهذا الصلْى قد فسره النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى أخرجه مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجىء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل »[(٣)] فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية .

وفى رواية ذكرها ابن أبى حاتم فقال : « ذكر عن عبد الصمد بن عبد الوارث ثنا أبى ثنا سليمان التيمى عند أبى هريرة عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه : ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ فقال النبى ﷺ : أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيأتى بهم إلى نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما تنبت الحبة الغثاء فى حميل السيل »

وهذا المعنى مستفيض عن النبى ﷺ - بل متواتر - فى أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى سعيد وأبى هريرة وغيرهما .

وفيها الرد على طائفتين : على الخوارج ، والمعتزلة الذين يقولون « إن أهل التوحيد يخلدون فيها » وهذه الآية حجة عليهم . وعلى من حكى عنه من غلاة المرجئة » « أنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد » .

فإن إخباره بأن أهل التوحيد يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء وهؤلاء .

والقول بـ « أن أحداً لا يدخلها من أهل التوحيد » ما أعلمه ثابتاً عن شخص معين فأحكيه عنه . لكن حكى عن مقاتل بن سليمان وقال : احتج من قال ذلك بهذه الآية .

وقد أجيبوا بجوابين :

أحدهما : جواب طائفة ، منهم الزجاج ، قالوا : هذه نار مخصوصة لكن قوله بعدها : ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ لا يبقى فيه كبير وعد ، فإنه إذا جنب تلك النار جاز أن يدخل غيرها .

---

(١) سورة الأعلى الآيات : ١١ - ١٣ .

(٢) سورة الليل الآيات : ١٤ - ١٦ .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار » جـ ١ ص ١٧٢ ، ١٧٣ حديث رقم ١٨٥/٣٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى سعيد الخدرى .

وجواب آخرين قالوا : لا يصلونها صلى خلود . وهذا أقرب . وتحقيقه أن الصلى هنا هو الصلى المطلق ، وهو المكث فيها والخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائما .

فأما من دخل وخرج فإنه نوع من الصلى ، ليس هو الصلى المطلق لا سيما إذا كان قد مات فيها والنار لم تأكله ، فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود . والله أعلم .

(مجموع الفتاوى ج ١٦ ص ١٩٤)

الرد على الوعيدية والواقفية .

قال شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى قدس الله روحه .

فصل : فى قوله تعالى : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له . . .** ﴾

وقد ذكرنا فى غير موضع أن هذه الآية فى حق التائبين ، وأما آيتا النساء قوله : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء** ﴾ .

فلا يجوز أن تكون فى حق التائبين ، كما يقوله من يقوله من المعتزلة فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضا بنصوص القرآن واتفاق المسلمين . وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد ، وتلك الآية فيها تعميم وإطلاق عنده خص فيها الشرك بأنه لا يغفر ، وما عداه لم يجزم بمغفرته ، بل علقه بالمشيئة فقال سبحانه : ﴿ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ .

وقد ذكرنا فى غير موضع أن هذه كما ترد على الوعيدية من الخوارج والمعتزلة ، فهى ترد أيضا على المرجئة الواقفية الذين يقولون « يجوز أن يعذب كل فاسق فلا يغفر لأحد ، ويجوز أن يغفر للجميع فإنه قد قال : (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فأثبت أن ما دون ذلك هو مغفور لكن لمن يشاء ، فلو كان لا يغفره لأحد بطل قوله : ﴿ ويغفر ما دون ذلك ﴾ ولو كان يغفره لكل أحد بطل قوله : (لمن يشاء) فلما أثبت أنه يغفر ما دون ذلك وأن المغفرة هى لمن يشاء دل ذلك على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك ، لكنها لبعض الناس .

وحينئذ فمن غفر له لم يعذب ، ومن لم يغفر له عذب وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة ، وهو القطع بأن بعض عصاة الأمة يدخل النار وبعضه يغفر له ، لكن هل ذلك على وجه الموازنة والحكمة أو لا اعتبار بالموازنة ؟ فيه قولان للمنتسبين إلى السنة من أصحابنا وغيرهم ، بناء على أصل الأفعال الإلهية هل يعتبر فيها الحكمة والعدل . وأيضا فمسألة الجزاء فيها نصوص كثيرة دلت على الموازنة ، كما بسط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن قوله : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا** ﴾ فيه نهى عن القنوط من رحمة الله وإن عظمت الذنوب وكثرت ، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه ، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله . قال بعض السلف : إن الفقيه كل الفقيه الذى لا ييئس الناس من رحمة الله ، ولا يجرئهم على معاصى الله . والقنوط يكون بأن

يعتقد أن الله لا يغفر له . إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته ويغفر ذنوبه . وإما بأن يقول : نفسه لا تطاوعه على التوبة ، بل هو مغلوب معها ، والشيطان قد استحوذ عليه ، فهو ييأس من توبة نفسه : وإن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له ، وهذا يعترى كثيراً من الناس . والقنوط يحصل بهذا تارة وبهذا تارة : فالأول : كالراهب الذى أفتى قاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له فقتله وكمل به المائة . ثم دل على عالم فأتاه فسأله فأفتاه بأن الله يقبل توبته والحديث فى الصحيحين .

والثانى : كالذى يرى للتوبة شروطاً كثيرة ، ويقال له لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فييأس من أن يتوب .

وقد تنازع الناس فى العبد هل يصير فى حال تمتنع منه التوبة إذا أرادها ؟ والصواب الذى عليه أهل السنة والجمهور أن التوبة من كل ذنب . وممكن أن الله يغفره . .

والمقصود أنه لا يجوز أن يقنط أحد ، ولا يقنّط أحداً من رحمة الله فإن الله نهى عن ذلك ، وأخبر أنه يغفر الذنوب جميعاً . فإن قيل : (إن الله يغفر الذنوب جميعا) معه عموم على وجه الإخبار ، فدل على أن الله يغفر كل ذنب ؟ ومعلوم أنه لم يرد أن من أذنب من كافر وغيره فإنه يغفر له ، ولا يعذبه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة والتواتر والقرآن والإجماع . إذ كان الله أهلك أمما كثيرة بذنوبها ، ومن هذه الأمة من عذب إما قدرا وإما شرعا فى الدنيا قبل الآخرة .

وقد قال الله تعالى : (من يعمل سوءاً يجز به)[1] وقال : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[2] فهذا يقتضى أن هذه الآية ليست على ظاهرها ، بل المراد أن الله قد يغفر الذنوب جميعا ، أى : ذلك مما قد يفعله ، أو أنه يغفره لكل تائب . لكن يقال : فلم أتى بصيغة الجزم والإطلاق ، موضع التردد والتقييد ؟ قيل : بل الآية على مقتضاها فإن الله أخبر أنه يغفر جميع الذنوب ، فقال : (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم)[3] .

وقال فى حق المنافقين : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم)[4] . لكن هذا اللفظ العام فى الذنوب هو مطلق فى المذنبين . فالمذنب لم يتعرض له بنفى ولا إثبات ، لكن يجوز أن يكون مغفورا له ، ويجوز أن لا يكون مغفورا له . إن أتى بما يوجب المغفرة غفر له وإن أصر على ما يناقضها لم يغفر له .

وأما جنس الذنب فإن الله يغفره فى الجملة : الكفر والشرك وغيرهما ، يغفرها لمن تاب منها ، ليس فى الوجود ذنب لا يغفره الله تعالى بل ما من ذنب إلا والله تعالى يغفره فى الجملة .

وهذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعاً ، وفيها رد على طوائف ، رد على من يقول : إن الداعى إلى البدعة لا تقبل توبته ويحتجون بحديث إسرائيلى ، فيه : « أنه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت ؟ » وهذا يقوله طائفة ممن ينتسب إلى السنة والحديث وليس من العلماء بذلك ، كأبى على

---

(١) سورة النساء من الآية : ١٢٣ .
(٢) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ ، ٨ .
(٣) سورة محمد الآية : ٣٤ .
(٤) سورة المنافقون من الآية : ٦ .

الأهوازى وأمثاله ممن لا يميزون بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة ، وما يحتج به وما لا يحتج به . بل يروون كلماً فى الباب محتجين به .

وقد حكى هذا طائفة قولا فى مذهب أحمد أو رواية عنه ، وظاهر مذهبه مع سائر أئمة المسلمين أنه تقبل توبة الداعى إلى الكفر ، وتوبة من فتن الناس عن دينهم .

وقد تاب قادة الأحزاب : مثل أبى سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، وغيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم من قتل ، وكانوا من أحسن الناس إسلاما ، وغفر الله لهم . قال تعالى : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف)[1] وعمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر والإيذاء للمسلمين ، وقد قال النبى ﷺ لما أسلم : « يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجب ما قبله ؟ »[2] (أخرجه مسلم) وفى صحيح البخارى عن ابن مسعود فى قوله : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب)[3] قال كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم[4] . ففى هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الإسلام لهم ، وإن كانوا هم أضلوهم أولاً .

وأيضا فالداعى إلى الكفر والبدعة وإن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه ؟ لكونه قبل من هذا واتبعه ، هذا عليه وزره ووزر من اتبعه إلى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم ، فإذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره ، ولا ما حمله هو لأجل إضلالهم ، وأما هم فسواء تاب أم لم يتب حالهم واحد ، ولكن توبته قبل هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى ، كما تاب كثير من الكفار وأهل البدع ، وصاروا دعاة إلى الاسلام والسنة ، وسحرة فرعون كانوا أئمة فى الكفر ثم أسلموا وختم الله لهم بخير .

توبة قاتل النفس

ومن ذلك توبة قاتل النفس . والجمهور على أنها مقبولة ، وقال ابن عباس : لا تقبل ، وعن أحمد روايتان . وحديث قاتل التسعة والتسعين فى الصحيحين دليل على قبول توبته . وهذه الآية تدل على ذلك ، وآية النساء إنما فيها وعيد فى القرآن كقوله : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً)[5] ومع هذا فهذا إذا لم يتب . وكل وعيد فى القرآن فهو

---

(١) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ١٩٨ ، ١٩٩ فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل لعمرو بن العاص . وانظر أيضاً ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ فقد ورد الحديث من حديث طويل لعمرو بن العاص أيضا .

(٣) سورة الإسراء من الآية : ٥٧ .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب التفسير » تفسير سورة بنى إسرائيل جـ ٦ ص ١٠٧ فقد ورد الحديث من رواية عبد الله بن مسعود بلفظ « قال كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم »

وفى رواية أخرى لعبد الله بن مسعود فى قوله تعالى : (.. الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) قال : ناس من الجن يعبدون فأسلموا .

وانظر صحيح مسلم « كتاب التفسير » باب فى قوله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » . جـ ٤ ص ٢٣٢١ فقد وردت الأحاديث ٢٨/٣٠٣٠ ، ٢٩ ، ٣٠ من روايات مختلفة لعبد الله بن مسعود تدور فى إطار هذا المعنى .

(٥) سورة النساء آية : ١٠ .

مشروط بعدم التوبة باتفاق الناس ، فبأى وجه يكون القاتل لاحقا به وإن تاب ؟ هذا فى غاية الضعف ، ولكن قد يقال لا تقبل توبته بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل ، بل التوبة تسقط حق الله ، والمقتول مطالبه بحقه ، وهذا صحيح فى جميع حقوق الآدميين حتى الدّيْن ، فإنه فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال « الشهيد يغفر له كل شىء إلا الدّين »[(١)] ولكن حق الآدمى يعطاه من حسنات القاتل . فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات حتى يكون له ما يقابل حق المقتول ، ولعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول ، فلابد أن يبقى له سيئات يعذب بها ، وهذا الذى قاله قد يقع من بعض الناس .

فيبقى الكلام : من تاب وأخلص ، وعجُز عن حسنات تعادل حق المظلوم ، هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يعذب به ؟

وهذا موضع دقيق على مثله يحمل حديث ابن عباس ، لكن هذا كله لا ينافى موجب الآية ، وهو أن الله تعالى يغفر كل ذنب : الشرك والقتل والزنا ، وغير ذلك مِن حيث الجملة ، فهى عامة فى الأفعال مطلقة فى الأشخاص .

ومثل هذا قوله : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)[(٢)] عام فى الأشخاص مطلق فى أحوال الأرجل ، إذ قد تكون مستورة بالخف واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال .

وكذلك قوله تعالى : (يوصيكم الله في أولادكم)[(٣)] عام فى الأولاد عام فى الأحوال ، إذ قد يكون الولد موافقا فى الدين ومخالفا وحراً وعبداً . واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال .

وكذلك قوله (يغفر الذنوب) عام فى الذنوب مطلق فى أحوالها فإن الذنب قد يكون صاحبه تائبا منه ، وقد يكون مصراً واللفظ لم يتعرض لذلك ، بل الكلام يبين أن الذنب يغفر فى حال دون حال ، فإن الله أمر بفعل ما تغفر به الذنوب ونهى عما به يحصل العذاب يوم القيامة بلا مغفرة فقال :

﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ . فهذا إخبار أنه يوم القيامة يعذب نفوساً لم يغفر لها ، كالتى كذبت بآياته واستكبرت وكانت من الكافرين ، ومثل هذه الذنوب غفرها الله لآخرين لأنهم تابوا منها .

فإن قيل فقد قال تعالى : **﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ﴾**[(٤)] وقال تعالى : **﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾**[(٥)] .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الإمارة » باب من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين : جـ٣ ص١٥٠٢ حديث ١٨٨٦/١١٩ من رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص بلفظ « يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين » .

(٢) سورة التوبة من الآية : ٥ .

(٣) سورة النساء من الآية : ١١

(٤) سورة آل عمران الآية : ٩٠ .

(٥) سورة النساء الآية : ١٣٧ .

قيل : إن القرآن قد بين توبة الكافر وإن كان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ **كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين * أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم** ﴾[١] .

وقوله : (كيف يهدى الله ؟) أى : أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين ، ولهذا قال : (والله لا يهدى القوم الظالمين) فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالا ، لا يحصل له الهدى إلى أى دين ارتد .

وكذلك قال فى قوله : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره ﴾[٢] ومن كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد ، قال : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾[٣] .

وهو سبحانه فى آل عمران ذكر التائبين منهم ، ثم ذكر من لا تقبل توبته ومن مات كافرا : فقال : ﴿ **إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين** ﴾[٤] وهؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالاً :

قيل : لنفاقهم ، وقيل : لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه ، وقيل : لن تقبل توبتهم بعد الموت ، وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والسدى : لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت فيكون كقوله تعالى : ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾[٥] .

وكذلك قوله : ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾[٦] قال مجاهد وغيره من المفسرين : (ازدادوا كفرا) ثبتوا عليه حتى ماتوا .

قلت : وذلك لأن التائب راجع عن الكفر ، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفراً بعد كفر ، فقوله : (ثم ازدادوا) بمنزلة قول القائل : ثم أصروا على الكفر ، واستمروا على الكفر ، وداموا على الكفر ، فهم كفروا بعد إسلامهم ثم زاد كفرهم ما نقص ، فهؤلاء لا تقبل توبتهم وهى التوبة عند حضور الموت ، لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره ، فلم يزدد بل نقص ، بخلاف المصر إلى حين المعاينة ، فما بقى له زمان يتسع لنقص كفره فضلا عن هدمه .

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ٨٦ ـ ٨٩ .
(٢) سورة النحل من الآية : ١٠٦ .
(٣) سورة النحل الآية : ١١٠ .
(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .
(٥) سورة النساء الآية : ١٨
(٦) سورة النساء الآية : ١٣٧ .

وفى الآية الأخرى قال : (لم يكن الله ليغفر لهم) وذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً ، قيل : لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره ، فإذا كفر بعد ذلك ومات كافرا حبط إيمانه ، فعوقب بالكفر الأول والثانى ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قيل يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية ؟ فقال : « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر »[1] (متفق عليه) . فلو قال : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم » كان هؤلاء الذين ذكرهم فى آل عمران فقال : (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفرو بعد ذلك وهو المرتد التائب فهذا إذا كفر وازداد كفرا لم يغفر له كفره السابق أيضا ، فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد ازدادوا كفرا فلا يدخلون فى الآية . والفقهاء إذا تنازعوا فى قبول توبة من تكررت ردته أو قبول توبة الزنديق فذاك إنما هو فى الحكم الظاهر ، لأنه لا يوثق بتوبته أما إذا قدر أنه أخلص التوبة لله فى الباطن فإنه يدخل فى قوله : **﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾** .

ونحن حقيقة قولنا : إن التائب لا يعذب لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، لا شرعا ولا قدرا ، والعقوبات التى تقام من حدّ أو تعزير إما أن يثبت سببها بالبينة مثل قيام البينة بأن زنا أو سرق أو شرب فهذا إذا أظهر التوبة لم يوثق بها ولو درىء من الحد بإظهار هذا لم يقم حد ، فإن كل من تقام عليه البينة يقول قد تبت ، وإن كان تائبا فى الباطن كان الحد مكفرا وكان مأجورا على صبره ، وأما إذا جاء هو بنفسه فاعترف وجاء تائبا ، فهذا لا يجب أن يقام عليه الحد فى ظاهر مذهب أحمد ، نص عليه فى غير موضع ، وهى من مسائل التعليق ، واحتج عليها القاضى بعدة أحاديث ، وحديث الذى قال : « أصبت حدا فأقمه على فأقيمت الصلاة » يدخل فى هذا لأنه جاء تائباً ، وإن شهد على نفسه كما شهد به ماعز والغامدية ، واختار إقامة الحد أقيم عليه وإلا فلا ، كما فى حديث ماعز « فهلا تركتموه ؟ » والغامدية ردها مرة بعد مرة .

فالإمام والناس ليس عليهم إقامة الحد على مثل هذا ، ولكن هو إذا طلب ذلك أقيم عليه كالذى يذنب سرا ، وليس على أحد أن يقيم عليه حدا ، لكن اختار هو أن يعترف ويقام عليه الحد أقيم وإن لم يكن تائبا ، وهذا كقتل الذى ينغمس فى العدو هو مما يرفع الله به درجته ، كما قال النبى ﷺ : « لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له[2] ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ؟! .

(مجموع الفتاوى ص ١٨ ج ١٦)

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب « استتابة المرتدين » . . الخ » جـ ٨ ص ١٧ ، ١٨ فقد ورد الحديث بلفظه رواية ابن مسعود .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية » جـ ١ ص ١١١ حديث رقم ١٢٠/١٩٠ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن مسعود .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الحدود » باب من اعترف على نفسه بالزنى جـ ٣ ص ١٣٢٣ - ١٣٢٤ فقد ورد الحديث رقم ١٦٩٥/٣٣ من رواية لابن بريدة .

النهى عن لعن من يحب الله ورسوله

كثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد ، وقد يكون ما تركه من المأمور الذى يجب لله عليه فى باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضرراً عليه من فعله من بعض الفواحش ، فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التى بها يصير العبد من المؤمنين حقا أعظم نفعاً من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة كحب الله ورسوله ، فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية حتى ثبت فى الصحيح « أنه كان على عهد النبى ﷺ رجل يدعى حمارا ، وكان يشرب الخمر ، وكان كلما أتى به إلى النبى ﷺ جلده الحد ، فلما كثر ذلك منه أتى به مرة فأمر بجلده فلعنه رجل فقال النبى ﷺ : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله »[1] (رواه البخارى) .

فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب لكونه يحب الله ورسوله مع أنه ﷺ لعن فى الخمر عشرة « لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها »[2] (أبو داود) .

ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذى قام به ما يمنع لحوق اللعنة له . (مجموع الفتاوى ج ١٠ ص ٣٢٩) .

لا يجوز لعن المعين

وبعد حديث عن معاوية رضى الله عنه وأنه جاهد مع النبى ﷺ وكان أمينا عنده يكتب له الوحى قال :

بل « يزيد » ابنه مع ما أحدث من الأحداث ، من قال فيه : إنه كافر مرتد ، فقد افترى عليه . بل كان ملكا من ملوك المسلمين كسائر ملوك المسلمين ، وأكثر الملوك لهم حسنات ولهم سيئات ، وحسناتهم عظيمة ، وسيئاتهم عظيمة ، فالطاعن فى واحد منهم دون نظرائه إما جاهل ، وإما ظالم .

وهؤلاء لهم ما لسائر المسلمين ، منهم من تكون حسناته أكثر من سيئاته ، ومنهم من قد تاب من سيئاته ، ومنهم من كفَّر الله عنه ومنهم من قد يدخله الجنة ، ومنهم من قد يعاقبه لسيئاته ، ومنهم من قد يتقبل الله فيه شفاعة نبى أو غيره من الشفعاء ، فالشهادة لواحد من هؤلاء بالنار هو من أقوال أهل البدع والضلال .

كما أنا نقول ما قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ﴾[3] فلا ينبغى لأحد أن يشهد لواحد بعينه أنه من أهل النار ، لإمكان أن يتوب أو يغفر له الله بحسنات ماحية ، أو مصائب مكفرة ، أو شفاعة مقبولة ، أو يعفو الله عنه ، أو غير ذلك . فهكذا الواحد

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الحدود وما يحذر من الحدود » باب « ما يكره من لعن شارب الخمر » جـ ٨ ص ٦٩٧ فقد ورد الحديث من رواية عن عمر بن الخطاب مع اختلاف فى ترتيب جمله وألفاظه .

(٢) انظر سنن أبى داود « كتاب الأشربة » باب العنب يعصر للخمر . جـ ٤ ص ٨١/٨٢ حديث رقم ٣٦٧٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٣) سورة النساء من الآية : ١٠ .

من الملوك أو غير الملوك . وإن كان صدر منه ما هو ظلم فإن ذلك لا يوجب أن نلعنه ونشهد له بالنار ، ومن دخل فى ذلك كان من أهل البدع والضلال ، فكيف إذا كان للرجل حسنات عظيمة يرجى له بها المغفرة مع ظلمه ! كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « أول جيش يغزو قسطنطينية مغفور له »[١] وأول جيش غزاها كان أميرهم « يزيد بن معاوية » . وكان معه فى الغزاة أبو أيوب الأنصارى وتوفى هناك ، وقبره إلى الآن . ولهذا كان المقتصدون من أئمة السلف يقولون فى يزيد وأمثاله : إنا لا نسبهم ولا نحبهم ، أى : لا نحب ما صدر منهم من ظلم ، والشخص الواحد يجتمع فيه حسنات وسيئات ، وطاعات ومعاص ، وبر وجوْر وشر فيثيبه الله على حسناته ، ويعاقبه على سيئاته إن شاء أو يغفر له ، ويحب ما فعله من الخير ويبغض ما فعله من الشر . (مجموع الفتاوى ج ١٠ ص ٣٢٩) .

تعزير من لعن أحداً من المسلمين

قال رحمه الله : رأيت فى فتاوى الفقيه أبى محمد فتوى طويلة فيها أشياء حسنة قد سئل بها عن مسائل متعددة قال فيها : « ومن لعن أحداً من المسلمين عزر على ذلك تعزيراً بليغاً . والمؤمن لا يكون لعاناً ، وما أقربه من عود اللعنة عليه ، قال : وأما لعن العلماء لأئمة الأشعرية فمن لعنهم عزر وعادت اللعنة عليه فمن لعن من ليس أهلا للعنة ، وقعت اللعنة عليه . .

فالفقيه أبو محمد أيضا إنما منع اللعن ، وأمر بتعزير اللاعن ، وهو ما ذكرناه من موافقة القرآن والسنة والحديث ، والرد على من خالف القرآن والسنة والحديث . (مجموع الفتاوى ج ٤ ص ١٥ ـ ١٧) .

التكفير والتفسيق

قال رحمه الله : ومن أصول أهل السنة أن الدين والإيمان قول وعمل : قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح ، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

ومع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصى والكبائر ، كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصى ، كما قال سبحانه وتعالى فى آية القصاص : ﴿ فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف ﴾[٢]

وقال : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾[٣]

---

(١) انظر صحيح البخارى . . « كتاب الجهاد والسير » باب ما قيل فى قتال الروم جـ ٤ ص ٥١ فقد ورد الحديث عن عمير بن الأسود العنسّى عن أم حرام بلفظ : « أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا ، قالت أم حرام : قلت يا رسول الله : أنا فيهم ، قال : أنت فيهم ثم قال النبى ﷺ ـ وأول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم . قلت : أنا فيهم يا رسول الله ، قال : لا » .

(٢) سورة البقرة من الآية: ١٧٨ . (٣) سورة الحجرات الآية : ٩ ومن الآية : ١٠ .

ولا يسلبون الفاسق الملّى اسم الإيمان بالكلية ، ولا يخلدونه فى النار كما تقوله المعتزلة ، بل الفاسق يدخل فى اسم الإيمان فى مثل قوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾[1] وقد لايدخل فى اسم الإيمان المطلق كما فى قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾[2] وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن »[3] (متفق عليه) .

ويقولون : هو مؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته ؟ فلا يعطى الاسم المطلق ، ولا يسلب مطلق الاسم . (مجموع الفتاوى ج ٣ ص ١٥١) .

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه :
عن العبد المؤمن هل يكفر بالمعصية أم لا ؟

فأجاب :

لا يكفر بمجرد الذنب ، فإنه ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف أن الزانى غير المحصن يجلد ولا يقتل ، والشارب يجلد ، والقاذف يجلد ، والسارق يقطع .

ولو كانوا كفارا لكانوا مرتدين ووجب قتلهم . وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف .

لا يكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة :

وحقيقة الأمر فى ذلك : أن القول قد يكون كفرا ، فيطلق الأمر بتكفير صاحبه ، ويقال : من قال كذا فهو كافر ، لكن الشخص المعين الذى قاله لا يحكم بكفره ، حتى تقوم عليه الحجة التى يكفر تاركها . وهذا كما فى نصوص الوعيد فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾[4] فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق ، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد ، فلا يشهد لمعين من أهل القِبلة بالنار لجواز أن لا يلحقه الوعيد لفوات شرط ، أو ثبوت مانع فقد لا يكون التحريم بلغه ، وقد يتوب من فعل المحرم ، وقد تكون له صفات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم ، وقد يبتلى بمصائب تكفر عنه وقد يشفع فيه شفيع مطاع .

وهكذا الأقوال التى يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق ، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده ، أو لم يتمكن من فهمها ، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها ، فمن كان من المؤمنين مجتهدا فى طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان ، سواء كان فى المسائل النظرية ، أو العملية ، هذا الذى عليه أصحاب النبى ﷺ ، وجماهير أئمة الإسلام (مجموع الفتاوى ج ٢٣ ص ٣٤٥) .

---

(١) سورة النساء من الآية : ٩٢ .
(٢) سورة الأنفال من الآية : ٢ .
(٣) أنظر صحيح البخارى « كتاب الحدود » باب « لا يشرب الخمر » جـ ٨ ص ١٩٥ ـ ١٩٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن أبى هريرة .
(٤) سورة النساء الآية : ١٠ .

لا أساس لتقسيم المسائل إلى أصول وفروع

وما قسموا المسائل إلى مسائل أصول يكفر بإنكارها ، ومسائل فروع لا يكفر بإنكارها :

فأما التفريق بين نوع وتسميته مسائل الأصول وبين نوع وتسميته مسائل الفروع فهذا الفرق ليس له أصل لا عن الصحابة ، ولا عن التابعين لهم بإحسان ، ولا أئمة الإسلام ، وإنما هو مأخوذ من المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع . . وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء فى كتبهم ، وهو تفريق متناقض ، فإنه يقال لمن فرق بين النوعين : ما حد مسائل الأصول التى يكفر بها المخطىء ؟ وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع ، فإن قال : مسائل الأصول هى مسائل الاعتقاد ومسائل الفروع هى مسائل العمل . قيل له : فتنازع الناس فى محمد ﷺ هل رأى ربه أم لا ؟ وفى أن عثمان أفضل من على ، أو على أفضل ؟ وفى كثير من معانى القرآن وتصحيح بعض الأحاديث هى من المسائل الاعتقادية العلمية ، ولا كفر فيها بالاتفاق ، ووجوب الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وتحريم الفواحش والخمر هى مسائل عملية ، والمنكر لها يكفر بالاتفاق .

وإن قال : الأصول هى المسائل القطعية ، قيل له : كثير من مسائل العمل قطعية ، وكثير من مسائل العلم ليست قطعية ، وكون المسألة قطعية أو ظنية هو من الأمور الإضافية ، وقد تكون المسألة عند رجل قطعية لظهور الدليل القاطع له ، كمن سمع النص من رسول الله ﷺ وتيقن مراده منه .

وعند رجل لا تكون ظنية ، فضلا عن أن تكون قطعية لعدم بلوغ النص إياه ، أو لعدم ثبوته عنده ، أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته .

وقد ثبت فى الصحاح عن النبى ﷺ حديث الذى قال لأهله : « إذا أنا مت فأحرقونى ، ثم اسحقونى ، ثم ذرونى فى اليم ، فوالله لئن قدر الله علىّ ليعذبنى عذابا ما عذبه أحدا من العالمين . فأمر الله البرَّ بردّ ما أخذ منه ، والبحر برد ما أخذ منه ، وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : خشيتك يا رب ! فغفر له[1] (متفق عليه) فهذا شك فى قدرة الله وفى المعاد ، بل ظن أنه لن يعود ، وأنه لا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك ، وغفر الله له .

ولكن المقصود هنا أن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل بين النوع والعين . ولهذا حكى طائفة عنهم الخلاف فى ذلك ، ولم يفهموا غور قولهم ، فطائفة تحكى عن أحمد فى تكفير أهل البدع روايتين مطلقا ، حتى تجعل الخلاف فى تكفير المرجئة والشيعة المفضلة لعلى ، وربما رجحت التكفير والتخليد فى النار ، وليس هذا مذهب أحمد ، ولا غيره من أئمة المسلمين ، بل لا يختلف قوله إنه لا يكفر المرجئة الذين يقولون : الإيمان قول بلا عمل ، ولا يكفر من يفضل عليا على عثمان ، بل نصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم وإنما يكفر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته ، لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول ﷺ ظاهرة بينة ، ولأن حقيقة قولهم تعطيل الخالق ،

---

(١) وانظر صحيح مسلم « كتاب التوبة » باب « فى سعة رحمة الله » جـ ٤ ص ٢١٠٩ ـ ٢١١٠ حديث رقم ٢٤ ، ٢٥ / ٢٧٥٦ فقد ورد حديثان لأبى هريرة مع اختلاف فى بعض الألفاظ .

وكان قد ابتلى بهم حتى عرف حقيقة أمرهم وأنه يدور على التعطيل ، وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة . لكن ما كان يكفر أعيانهم ، فإن الذى يدعو إلى القول أعظم من الذى يقول به ، والذى يعاقب مخالفه أعظم من الذى يدعو فقط ، والذى يكفر مخالفه أعظم من الذى يعاقبه ، ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق ، وإن الله لا يُرى فى الآخرة وغير ذلك ، ويدعون الناس إلى ذلك ، ويمتحنونهم ويعاقبونهم إذا لم يجيبوهم ويكفرون من لم يجبهم ، حتى أنهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقر بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق ، وغير ذلك ، ولا يولون متوليا ولا يعطون رزقاً من بيت المال إلا لمن يقول ذلك ، ومع هذا فالإمام أحمد - رحمه الله - ترحم عليهم واستغفر لهم ، لعلمه بأنه لم يبن لهم أنهم مكذبون للرسول ، ولا جاحدون لما جاء به ، ولكن تأولوا فأخطأوا وقلدوا من قال لهم ذلك .

وكذلك قال مالك رحمه الله ، والشافعى ، وأحمد ، فى القدرى : إن جحد علم الله كفر ، ولفظ بعضهم : ناظروا القدرية بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ، وإن جحدوه كفروا . وسئل أحمد عن القدرى : هل يكفر ؟ فقال : إن جحد العلم كفر . وحينئذ فجاحد العلم هو من جنس الجهمية . وأما قتل الداعية إلى البدع فقد يقتل لكف ضرره عن الناس ، كما يقتل المحارب ، وإن لم يكن فى نفس الأمر كافرا ، فليس كل من أمر بقتله يكون قتله لردته ، وعلى هذا قتل غيلان القدرى وغيره قد يكون على هذا الوجه . (ج ٢٣ ص ٣٤٦) .

لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله :

ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه ، كالمسائل التى تنازع فيها أهل القبلة ، فإن الله تعالى قال :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[1] .

وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطأهم .

والخوارج المارقون الذين أمر النبى ﷺ بقتالهم ، قاتلهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب أحد الخلفاء الراشدين . واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين من بعدهم . ولم يكفرهم على ابن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، وغيرهما من الصحابة ، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم ، ولم يقاتلهم على حتى سفكوا الدم الحرام وأغاروا على أموال المسلمين ، فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفار .

ولهذا لم يسب حريمهم ولم يغنم أموالهم .

وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسوله ﷺ بقتالهم ، فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق فى مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم ؟ فلا يحل لأحد من هذه الطوائف أن تكفر الأخرى ، ولا تستحل دمها ومالها ، وإن كانت فيها بدعة محققة ،

(١) سورة البقرة الآية : ٢٨٥ .

فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضا ؟ وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ ، وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ والغالب أنهم جميعاً جهال بحقائق ما يختلفون فيه .

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض لا تحل إلا بإذن الله ورسوله . قال النبى ﷺ لما خطبهم فى حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا »[(١)] (متفق عليه) .

وقال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »[(٢)] (رواه مسلم) .

وقال ﷺ : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ذمة الله ورسوله »[(٣)] (رواه البخارى) .

وقال : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » قيل : يا رسول الله هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « إنه أراد قتل صاحبه »[(٤)] . (متفق عليه) .

وقال ﷺ : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض »[(٥)] (متفق عليه) .

وقال : « إذا قال المسلم لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما »[(٦)] البخارى .

وهذه الأحاديث كلها فى الصحاح .

وإذا كان المسلم متأولا فى القتال أو التكفير لم يكفر بذلك كما قال عمر بن الخطاب لحاطب ابن أبى بلتعة : يا رسول الله دعنى : أضرب عنق هذا المنافق فقال النبى ﷺ : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[(٧)] (رواه مسلم) .

وهذا فى الصحيحين . وفيهما أيضا : من حديث الإفك : أن أسيد بن الحضير قال لسعد ابن عبادة : إنك منافق تجادل عن المنافقين ، واختصم الفريقان فأصلح النبى ﷺ بينهم . فهؤلاء

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الحج » باب « الخطبة أيام منى » جـ ٢ ص ٢١٥ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس من حديث طويل « خطبة يوم النحر » ومن رواية لأبى بكرة أيضا .

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب « البر والصلة والآداب » باب « تحريم ظلم المسلم ... الخ » جـ ٤ ص ١٩٨٦ حديث رقم ٣٥٦٤/٣٢ فقد ورد الحديث ضمن طويل من رواية لأبى هريرة .

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الفتن » جـ ٢ ص ١٢٩٨ حديث رقم ٣٩٣٣ فقد ورد الحديث بلفظه لأبى هريرة .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصلاة » باب « استقبال القبلة » جـ ١ ص ١٠٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس بن مالك مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب الفتن » باب « إذا التقى المسلمان بسيفهما » جـ ٨ ص ٦٤ فقد ورد الحديث من رواية لأبى بكرة . وانظر مسند أحمد جـ ٥ ص ٥١ .

(٥) انظر صحيح البخارى « كتاب الفتن » باب قول النبى ﷺ لا ترجعوا بعدى كفارا جـ ٨ ص ٦٣ فقد ورد الحديث من رواية عن ابن عمر .

وانظر صحيح مسلم جـ ١ ص ٨١ - ٨٢ « كتاب الإيمان » باب معنى قول النبى لا ترجعوا بعدى كفارا .. الخ حديث ٦٥/١١٨ ، ٦٦/١١٨ فقد ورد الأول عن جرير والثانى عن ابن عمر .

(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر جـ ١ ص ٧٩ حديث ١٠٠/١١١ فقد ورد الحديث عن عبد الله بن دينار بلفظ « أيما امرىء قال لأخيه يا كافر فقد باء بأحدهما » .

(٧) انظر صحيح البخارى « كتاب استتابة المرتدين .. الخ » جـ ٩ ص ٢٣ - ٢٤ فقد ورد الحديث عن حصين عن فلان .

البدريون فيهم من قال لآخر منهم : إنك منافق ، ولم يكفر النبى ﷺ لا هذا ولا هذا ، بل شهد للجميع بالجنة .

وكذلك ثبت فى الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه قتل رجلا بعدما قال : لا إله إلا الله وعظم النبى ﷺ لمَّا أخبره وقال : « يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ »[1] وكرر ذلك عليه حتى قال أسامة : تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ . ومع هذا لم يوجب عليه قوداً ، ولا دية ، ولا كفارة ، لأنه كان متأولاً ظن جواز قتل ذلك القائل لظنه أنه قالها تعوذاً . فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضا من أهل الجمل وصفين ونحوهم وكلهم مسلمون مؤمنون كما قال تعالى :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾[2] فقد بين سبحانه أنهم مع اقتتالهم وبغى بعضهم على بعض إخوة مؤمنون ، وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل .

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالى بعضهم بعضا موالاة الدين ، لا يعادون كمعاداة الكفار ، فيقبل بعضهم شهادة بعض ، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون معاملة المسلمين بعضهم مع بعض ، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك .

وقد ثبت فى الصحيحين أن النبى ﷺ سأل ربه : « أن لا يهلك أمته بسنة عامة فأعطاه ذلك ، وسأله : ألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطاه ذلك ، وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فلم يعط ذلك »[3] (أخرجه مسلم) . وأخبر أن الله لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم يغلبهم كلهم حتى يكون بعضهم يقتل بعضا وبعضهم يسبى بعضا .

وثبت فى الصحيحين لما نزل قوله تعالى : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم** ﴾ قال : « أعوذ بوجهك » ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : « أعوذ بوجهك » ﴿ أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾[4] .

قال : « هاتان أهون »[5] . (رواه البخارى فى تفسير سورة الأنعام) .

---

(1) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « تحريم قتل الكافر . . . الخ » ٩٦ ـ ٩٧ فقد ورد الحديث ٩٦/١٥٨ من حديث ابن أبى شيبة ، ٩٦/١٥٩ من حديث أبى ظبيان .

(2) سورة الحجرات آية : ٩ .

(3) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢١٥ « كتاب الفتن وأشراط الساعة » باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض فقد ورد الحديث ٢٨٨٩/١٩ من حديث طويل عن ثوبان .

وانظر فتح البارى بشرح البخارى جـ ٨ ص ٢٩١/٢٩٢/٢٩٣ « كتاب التفسير » باب « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » فقد ورد الحديث عن ثوبان .

(4) سورة الأنعام من الآية : ٦٥ .

(5) انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى « كتاب التفسير » باب « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » جـ ٨ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ فقد ورد الحديث من رواية عن جابر بلفظ « هذا أهون أو أيسر » . . ووقع فى الاعتصام « هاتان أهون أو أيسر » .

هذا مع أن الله أمر بالجماعة والائتلاف ، ونهى عن البدعة والاختلاف وقال : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء ﴾[١] وقال النبى ﷺ : « عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة »[٢] (أخرجه أحمد) . وقال : « الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم والذئب إنما يأخذ القاصية والنائية من الغنم »[٣] (رواه مسلم) ، فالواجب على المسلم إذا صار فى مدينة من مدائن المسلمين أن يصلى معهم الجمعة والجماعة ويوالى المؤمنين ولا يعاديهم وإن رأى بعضهم ضالا أو غاويا وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك ، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وإذا كان قادراً على أن يولى فى إمامة المسلمين الأفضل ولاه ، وإن قدر أن يمنع من يُظهِر البدع والفجور منعه . وإن لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعلم بكتاب الله وسنة نبيه الأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا فى القرآن سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سناً »[٤] (رواه مسلم) . وإن كان فى هجره لمُظهِر البدعة والفجور مصلحة راجحة هجره ، كما هجر النبى ﷺ الثلاثة الذين خلفوا حتى تاب الله عليهم ، وأما إذا ولى غيره بغير إذنه وليس فى ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية كان تفويت هذه الجمعة والجماعة جهلاً وضلالاً ، وكان قد ردّ بدعة ببدعة .

حتى إن المصلى الجمعة خلف الفاجر اختلف الناس فى إعادته الصلاة وكرهها أكثرهم ، حتى قال أحمد بن حنبل فى رواية عبدوس : من أعادها فهو مبتدع . وهذا أظهر القولين ، لأن الصحابة لم يكونوا يعيدون الصلاة إذا صلوا خلف أهل الفجور والبدع ، ولم يأمر الله تعالى قط أحدا إذا صلى كما أمر بحسب استطاعته أن يعيد الصلاة . . ولهذا كان أصح قول العلماء أن من صلى بحسب استطاعته أن لا يعيد حتى المتيمم لخشية البرد ، ومن عدم الماء والتراب ، إذا صلى بحسب حاله ، والمحبوس وذوو الأعذار النادرة والمعتادة والمتصلة ، والمنقطعة ، لا يجب على أحد منهم أن يعيد الصلاة إذا صلى الأولى بحسب استطاعته .

وقد ثبت فى الصحيح أن الصحابة صلوا بغير ماء ولا تيمم لما فقدت عائشة عقدها ولم يأمرهم النبى ﷺ بالإعادة بل أبلغ من ذلك أن من كان يترك الصلاة جهلا بوجوبها لم يأمره بالقضاء ، فعمرو ، وعمار لمّا أجنبا وعمرو لم يصل وعمار تمرغ كما تتمرغ الدابة لم يأمرهما بالقضاء ، وأبو ذر لما كان يجنب ولا يصلى لم يأمره بالقضاء ، والمستحاضة لما استحاضت حيضة شديدة منكرة منعتها الصلاة والصوم لم يأمرها بالقضاء . .

فالمتأول والجاهل والمعذور ليس حكمه حكم المعاند والفاجر ، بل جعل الله لكل شىء قدراً . (مجموع الفتاوى ج ٣ ص ٢٨٢) .

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٥٩ .

(٢) انظر تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ٦٢ باب « ذكر من اسمه السائب » فقد ورد الحديث من حديث طويل فى خطبة عمر لما دخل الشام بلفظ « عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة »

(٣) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٥ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ فقد ورد الحديث عن معاذ بن جبل بلفظ « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد » .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب المساجد » باب من أحق بالإمامة جـ ١ ص ٤٦٥ فقد ورد الحديث ٦٧٣/٢٩٠ من رواية لابن مسعود .

الكبر المباين للإيمان لا يدخل صاحبه الجنة

سئل رحمه الله عن معنى قوله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر »[١] هل هذا الحديث مخصوص بالمؤمنين أم بالكفار ؟ فإن قلنا مخصوص بالمؤمنين فقولنا ليس بشىء ؛ لأن المؤمنين يدخلون الجنة بالإيمان . وإن قلنا مخصوص بالكافرين فما فائدة الحديث .

فأجاب : .

لفظ الحديث فى الصحيح : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » فالكبر المباين للإيمان لا يدخل صاحبه الجنة كما فى قوله : ﴿ **إن الذين يستكبرون من عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ . ومن هذا كبر إبليس ، وكبر فرعون وغيرهما ممن كان كبره منافياً للإيمان ، وكذلك كبر اليهود ، والذين أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ **أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون** ﴾[٢]

والكبر كله مباين للإيمان الواجب فمن فى قلبه مثقال ذرة من كبر لا يفعل ما أوجب الله عليه ويترك ما حرم عليه ، بل كبره يوجب له جحد الحق ، واحتقار الخلق ، وهذا هو الكبر الذى فسره النبى ﷺ : حيث سئل فى تمام الحديث ، فقيل : يا رسول الله ! الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، فمن الكبر ذاك ؟ فقال : لا إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس »[٣] (أخرجه مسلم) . وبطر الحق : جحده ودفعه ، وغمط الناس : ازدراؤهم واحتقارهم ؛ فمن فى قلبه مثقال ذرة من هذا يوجب له أن يجحد الحق الذى يجب عليه أن يقر به ، وأن يحتقر الناس فيكون ظالماً معتدياً عليهم ، فمن كان مضيعاً الواجب ؛ ظالماً للخلق لم يكن من أهل الجنة ، ولا مستحقا لها ، بل يكون من أهل الوعيد .

فقوله : « لا يدخل الجنة » متضمن لكونه ليس من أهلها ، ولا مستحقا لها ، لكن إذا تاب ، أو كانت له حسنات ماحية لذنبه أو ابتلاه الله بمصائب كفر بها خطاياه ، ونحو ذلك ، زال ثمرة هذا الكبر المانع له من الجنة ، فيدخلها ، أو غفر الله له بفضل رحمته من ذلك الكبر نفسه ، فلا يدخلها ومعه شىء من الكبر ، ولهذا قال : من قال فى هذا الحديث وغيره : إن المنفى هو الدخول المطلق الذى لا يكون معه عذاب ، لا الدخول المقيد الذى يحصل لمن دخل النار ثم دخل الجنة ، فإنه إذا أطلق فى الحديث : فلان فى الجنة ، أو فلان من أهل الجنة كان المفهوم أنه يدخل الجنة ولا يدخل النار .

فإذا تبين هذا كان معناه أن من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ليس هو من أهل الجنة ، ولا يدخلها بلا عذاب ، بل هو مستحق للعذاب لكبره ، كما يستحقها غيره من أهل الكبائر ، ولكن قد يعذب فى النار ما شاء الله ، فإنه لا يخلد فى النار أحد من أهل التوحيد .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « تحريم الكبر وبيانه » جـ ١ ص ٩٣ حديث رقم ٩١/١٤٩ من رواية لابن مسعود .
(٢) سورة البقرة آية : ٨٧ .
(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « تحريم الكبر وبيانه » جـ ١ ص ٩٣ حديث رقم ٩١/١٤٧ من رواية لابن مسعود .

وهنا كقوله ﷺ : « لا يدخل الجنة قاطع رحم »[١] (رواه البخارى) .

وقوله : « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »[٢] (رواه مسلم) . وأمثال هذا من أحاديث الوعيد وعلى هذا فالحديث عام فى الكفار وفى المسلمين .

وقول القائل : إن المسلمين يدخلون الجنة بإسلامهم ، فيقال له : ليس كل المسلمين يدخلون الجنة بلا عذاب ، بل أهل الوعيد يدخلون النار ، ويمكثون فيها ما شاء الله ، مع كونهم ليسوا كفاراً ، فالرجل الذى معه شىء من الإيمان ، وله كبائر قد يدخل النار ، ثم يخرج منها : إما بشفاعة النبى ﷺ ، وإما بغير ذلك ، كما قال ﷺ : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى »[٣] (رواه أبو داود) .

وكما فى الصحيح أنه قال : « أخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان »[٤] . وهكذا الوعيد فى قاتل النفس والزانى وشارب الخمر وآكل مال اليتيم وشاهد الزور ، وغير هؤلاء من أهل الكبائر ، فإن هؤلاء - وإن لم يكونوا كفاراً - لكنهم ليسوا من المستحقين للجنة الموعودين بها بلا عقاب .

ومذهب أهل السنة والجماعة : أن فساق أهل الملة ليسوا مخلدين فى النار كما قالت الخوارج والمعتزلة ، وليسوا كاملين فى الدين والإيمان والطاعة ، بل لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب ، وبهذا الثواب . (مجموع الفتاوى ج ٧ ص ٦٧٧) .

الحسنات يذهبن السيئات

إن الحسنات التى هى فعل المأمور به تذهب بعقوبة الذنوب ، والسيئات التى هى فعل المنهى عنه ، فإن فاعل المنهى يذهب إثمه بالتوبة ، وهى حسنة مأمور بها ، وبالأعمال الصالحة المقاومة وهى حسنات مأمور بها ، بدعاء النبى ﷺ وشفاعته ، ودعاء المؤمنين وشفاعتهم ، وبالأعمال الصالحة التى تهدى إليه ، وكل ذلك من الحسنات المأمور بها .

فما من سيئة هى فعل منهى عنه إلا لها حسنة تذهبها هى فعل مأمور به حتى الكفر ، سواء كان وجوديا أو عدمياً ، فإن حسنة الإيمان تذهبه ، كما قال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب « أثم القاطع » جـ ٨ ص ٦ فقد ورد الحديث عن رواية لجبير بن مطعم بلفظ « لا يدخل الجنة قاطع » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « صلة الرحم وتحريم قطعها » جـ ٤ ص ١٩٨١ حديث رقم ١٩/٢٥٥٦ عن رواية لجبير بن مطعم فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « بيان أن لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . . . الخ جـ ١ ص ٧٤ حديث رقم ٩٣/٥٤ من رواية لأبى هريرة .

(٣) انظر سنن أبى داود « كتاب السنة » باب فى الشفاعة جـ ٥ ص ١٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس بن مالك .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة جـ ٩ ص ١٦٠ فقد ورد هذا من حديث طويل من رواية لأبى سعيد الخدرى بلفظ « . . . فيقول أذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه فيخرجون من عرفوا . . » .

ماقد سلف ﴾[١] وقال النبى ﷺ : « الإسلام يجبُّ ما قبله »[٢] وفى رواية « يهدم ما كان قبله »[٣] (رواه مسلم) .

وأما الحسنات فلا تذهب ثوابها السيئات مطلقا ، فإن حسنة الإيمان لا تذهب إلا بنقيضها وهو الكفر ، لأن الكفر ينافى الإيمان فلا يصير الكافر مؤمنا ، فلو زال الإيمان زال ثوابه . لا لوجود السيئة ، ولهذا كان كل سيئة لا تذهب بعمل لا يزول ثوابه ، وهذا متفق عليه بين المسلمين حتى المبتدعة من الخوارج والمعتزلة ، فإن الخوارج يرون الكبيرة موجبة للكفر المنافى للإيمان ، والمعتزلة يرونها مخرجة له من الإيمان وإن لم يدخل بها فى الكفر ، وأهل السنة والجماعة يرون أصل إيمانه باقيا ، فقد اتفقت الطوائف على أنه مع وجود إيمانه لايزول ثوابه بشىء من السيئات والكفر ، وإن كانوا متفقين على أنه مع وجوده لايزول عقابه بشىء من الحسنات ، فذلك لأن الكفر يكفى فيه عدم الإيمان ولا يجب أن يكون أمرا موجودا كما تقدم ، فعقوبة الكفر هى ترك الإيمان ، وإن انضم إليها عقوبات على مافعله من الكفر الوجودى أيضا .

وكذلك فقد روى فى بعض ثواب الطاعات المأمور بها مايدفع ويرفع عقوبة المعاصى المنهى عنها ، فإذا كان جنس ثواب الحسنات المأمور بها يدفع عقوبة كل معصية ، وليس جنس عقوبات السيئات المنهى عنها يدفع ثواب كل حسنة : ثبت رجحان الحسنات المأمور بها على ترك السيئات المنهى عنها . وفى هذا المعنى ما ورد فى فضل لا إله إلا الله ، وأنها تطفىء نار السيئات ؛ مثل حديث البطاقة وغيره[٤] (مجموع الفتاوى ج ٢٠)

حكم تارك مبانى الإسلام

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إن مبانى الإسلام الخمسة المأمور بها وإن كان ضرر تركها لايتعدى صاحبها فإنه يقتل بتركها فى الجملة عند جماهير العلماء ، ويكفر أيضا عند كثير منهم أو أكثر السلف ، وأما فعل المنهى عنه الذى لايتعدى ضرره صاحبه فإنه لايقتل به عند أحد من الأئمة ، ولايكفر به إلا اذا ناقض الإيمان ، لفوات الإيمان وكونه مرتدًّا أو زنديقاً .

وذلك أن من الأئمة من يقتله ويكفره بترك كل واحدة من الخمس لأن الإسلام بنى عليها ، وهو قول طائفة من السلف ورواية عن أحمد اختارها بعض أصحابه .

---

(١) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ١٩٨ ـ ١٩٩ فقد ورد الحديث من حديث طويل لعمرو بن العاص ، وانظر ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ فقد ورد الحديث ـ أيضاً ـ من حديث طويل من روايات لعمرو بن العاص .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « كون الإسلام يهدم ما قبله » جـ ١ ص ١١٢ حديث رقم ١٢١/١٩٢ من حديث طويل لابن شماس المهرى تضمن الحديث الذى معنا .

(٤) انظر الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٤١٦ الترغيب فى قول : لا إله إلا الله وما جاء فى فضلها ، فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد قال : لا إله إلا الله فى ساعة من ليل أو نهار إلا طمست ما فى الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات » رواه أبو يعلى .

ومنهم من لا يقتله ولا يكفره إلا بترك الصلاة والزكاة ، وهى رواية أخرى عن أحمد ، كما دل عليه ظاهر القرآن فى (براءة) وحديث ابن عمر وغيره ، ولأنهما منتظمان لحق الحق وحق الخلق ، كانتظام الشهادتين للربوبية والرسالة ولابد لهما من غيرجنسهما ، بخلاف الصيام والحج .

ومنهم من يقتله بهما ويكفره بالصلاة والزكاة إذا قاتل الإمام عليها كرواية عن أحمد .

ومنهم من يقتله بهما ولا يكفره إلا بالصلاة ، كرواية عن أحمد .

ومنهم من يقتله بهما ولا يكفره ، كرواية عن أحمد ، ومنهم من لا يقتله إلا بالصلاة ولا يكفره ، كالمشهور من مذهب الشافعى ، لإمكان الاستيفاء منه .

وتكفير تارك الصلاة هو المشهور المأثور عن جمهور السلف من الصحابة والتابعين .

ومورد النزاع هو فيمن أقر بوجوبها والتزام فعلها ولم يفعلها ، وأما من لم يقر بوجوبها فهو كافر باتفاقهم ، وليس الأمر كما يفهم من إطلاق بعض الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم : أنه إن جحد وجوبها كفر ، وإن لم يجحد وجوبها فهو مورد النزاع ، بل هنا ثلاثة أقسام :

أحدها : إن جحد وجوبها فهو كافر بالاتفاق .

والثانى : أنّ لا يجحد وجوبها ، لكنه ممتنع من التزام فعلها كبراً أو حسدا ، أو بغضا لله ورسوله ، فيقول : أعلم أن الله أوجبها على المسلمين ، والرسول صادق فى تبليغ القرآن ، ولكنه ممتنع عن التزام الفعل استكبارا أو حسدا للرسول ، أو عصبية لدينه ، أو بغضا لما جاء به الرسول ، فهذا أيضا كافر بالاتفاق ، فإن إبليس لما ترك السجود المأمور به لم يكن جاحدا للإيجاب فإن الله تعالى باشره بالخطاب ، وإنما أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وكذلك أبو طالب كان مصدقا للرسول فيما بلغه لكنه ترك اتباعه حمية لدينه ، وخوفا من عار الانقياد ، واستكبارا عن أن تعلو أمته رأسه فهذا ينبغى أن يتفطِّن له .

ومن أطلق من الفقهاء أنه لا يكفر إلا من يجحد وجوبها فيكون الجحد عنده متناولا للتكذيب بالإيجاب ، متناولا للامتناع عن الإقرار والالتزام كما قال تعالى : ﴿ فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[2]

وإلا فمتى لم يقر ويلتزم فعلها قتل وكفر بالاتفاق .

والثالث : أن يكون مقرّاً ملتزماً ، لكن تركها كسلا وتهاوناً ، أو اشتغالاً بأغراض له عنها ، فهذا مورد النزاع ، كمن عليه دين وهو مقر بوجوبه ملتزم لأدائه ، لكنه يمطل بخلا أو تهاوناً .

وهنا قسم رابع : وهو أن يتركها ولا يقر بوجوبها ، ولا يجحد بوجوبها لكنه مقر بالإسلام من حيث الجملة . فهل هذا من موارد النزاع ، أو من موارد الإجماع ؟ ولعل كلام كثير من السلف متناول لهذا ،

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٣٣ .

(٢) سورة النمل الآية : ١٤ .

وهو المعرض عنها لا مقرا ولا منكرا ، وإنما هو متكلم بالإسلام فهذا فيه نظر ، فإن قلنا يكفر بالاتفاق ، فيكون اعتقاد بوجوب هذه الواجبات على التعيين من الإيمان لا يكفى فيها الاعتقاد العام ، كما فى الخبريات من أحوال الجنة والنار ، والفرق بينهما : أن الأفعال المأمور بها المطلوب فيها الفعل لا يكفى فيها الاعتقاد العام ، بل لابد من اعتقاد خاص ، بخلاف الأمور الخبرية ، فإن الإيمان المجمل بما جاء به الرسول من صفات الرب ، وأمر المعاد يكفى فيه مالم ينقض الجملة بالتفصيل ، ولهذا اكتفوا فى هذه العقائد بالجمل وكرهوا فيها التفصيل المفضى إلى القتال والفتنة بخلاف الشرائع المأمور بها ، فإنه لا يكتفى فيها بالجمل ، بل لابد من تفصيلها علما وعملاً .

وأما القاتل والزانى والمحارب فهؤلاء إنما يقتلون لعدوانهم على الخلق لما فى ذلك من الفساد المعنوى ، ومن تاب قبل القدرة عليه سقط عنه حد الله ولا يكفر أحد منهم .

وأيضا فالمرتد يقتل لكفره بعد إيمانه ، وإن لم يكن محارباً .

فثبت أن الكفر والقتل لترك المأمور به أعظم منه لفعل المنهى عنه وهذا الوجه قوى على مذهب الثلاثة : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وجمهور السلف ، ودلائله من الكتاب والسنة متنوعة ، وأما على مذهب أبى حنيفة فقد يعارض بما قد يقال : إنه لا يوجب قتل أحد على ترك واجب أصلا حتى الإيمان ، فإنه لا يقتل إلا المحارب لوجود الحراب منه وهو فعل المنهى عنه ويسوى بين الكفر الأصلى والطارىء فلا يقتل المرتد لعدم الحراب منه ، ولا يقتل من ترك الصلاة أو الزكاة إلا إذا كان فى طائفة ممتنعة ، فيقاتلهم لوجود الحراب كما يقاتل البغاة ، وأما المنهى عنه فيقتل القاتل والزانى المحصن والمحارب إذا قتل ، فيكون الجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الاعتبار عند النزاع بالرد إلى الله وإلى الرسول ، والكتاب والسنة دال على ما ذكرناه ، من أن المرتد يقتل بالاتفاق وإن لم يكن من أهل القتال : إذا كان أعمى أو زمنا أو راهبا ، والأسير يجوز قتله بعد أسره وإن كان حرابه قد انقضى .

الثانى : إن ما وجب فيه القتل إنما وجب على سبيل القصاص الذى يعتبر فيه المماثلة ، فإن النفس بالنفس ، كما تجب المقاصّة فى الأموال ، فجزاء سيئة سيئة مثلها فى النفوس والأموال والأعراض والأبشار ، لكن إن لم يضر إلا المقتول كان قتله صائرا إلى أولياء المقتول ، لأن الحق لهم كحق المظلوم فى المال . وإن قتله لأخذ المال كان قتله واجبا ، لأن المصلحة العامة التى هى حد الله ، كما يجب قطع يد السارق لأجل حفظ الأموال ، ورد المال المسروق لحق صاحبه ، إن شاء أخذه وإن شاء تركه ، فخرجت هذه الصور عن النقض ، لم يبق ما يوجب القتل عنده بلا مماثلة إلا الزنا ، وهو نوع من العدوان أيضا ووقوع القتل به نادر لخفائه وصعوبة الحجة عليه .

الثالث : أن العقوبة فى الدنيا لا تدل على كبر الذنب وصغره ؛ فإن الدنيا ليست دار الجزاء ، وإنما دار الجزاء هى الآخرة ، ولكن شرع من العقوبات فى الدنيا ما يمنع الفساد والعدوان ، كما قال تعالى : ﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾[1] وقالت الملائكة :

---

(١) سورة المائدة من الآية : ٣٢ .

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾(١) فهذان السببان اللذان ذكرتهما الملائكة هما اللذان كتب الله على بنى إسرائيل القتل بهما ، ولهذا يقر كفار أهل الذمة بالجزية ، مع أن ذنبهم فى ترك الإيمان أعظم باتفاق المسلمين من ذنب من نقتله من زان وقاتل .

وقد وافقه على ذلك مالك وأحمد فى أحد قوليه ، ومع هذا يجوز القتل تعزيرا وسياسة فى مواضع .

وأما الشافعى فعنده نفس الكفر هو المبيح للدم ، إلا أن النساء والصبيان تركوا لكونهم مالاً للمسلمين ، فيقتل المرتد لوجود الكفر ، وامتناع سببها عنده من الكفر فلا منفعة .

وأما أحمد فالمبيح عنده أنواع ، أما الكافر الأصلى فالمبيح عنده هو وجود الضرر منه ، أو عدم النفع فيه ، أما الأول فالمحاربة بيد أو لسان ، فلا يقتل من لا محاربة فيه بحال من النساء والصبيان ، والرهبان والعميان ، والزمنى ونحوهم ، كما هو مذهب الجمهور . وأما المرتد فالمبيح عنده هو الكفر بعد الإيمان ، وهو نوع خاص من الكفر ، فإنه لو لم يقتل ذلك لكان الداخل فى الدين يخرج منه ، فقتله حفظ لأهل الدين وللدين ، فإن ذلك يمنع من النقص ويمنعهم الخروج عنه .

بخلاف من لم يدخل فيه ، فإنه إن كان كتابيا أو شبها له فقدوجب إحدى غايتى القتال فى حقه ، ومتى لم يكن استرقاقه ولا أخذ الجزية منه بقى كافرا لا منفعه فى حياته لنفسه لأنه يزداد إثما - ولا للمؤمنين ، فيكون قتله خيرا من إبقائه . وأما تارك الصلاة والزكاة ، فإذا قتل كان عنده من قسم المرتدين لأنه بالإسلام ملتزم لهذه الأفعال ، فإذا لم يفعلها فقد ترك ما التزمه ، أو لأنها عنده من الغاية التى يمتد القتال إليها كالشهادتين فإنه لو تكلم بإحداهما وترك الأخرى لقتل .

ويفرق فى المرتد بين الردة المجردة فيقتل إلا أن يتوب ، وبين الردة المغلظة فيقتل بلا استتابة .

فهذه مآخذ فقهية نبهنا بها على بعض أسباب القتل ، وقد تبين أنهم لا يتنازعون أن ترك المأمور به فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فقد ذكرنا ما تقدم . (مجموع الفتاوى جزء ٢٠)

هجر أهل البدع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن داعية أهل البدع يهجر فلا يستشهد ولا يروى عنه ، ولا يستفتى ولا يصلى خلفه ، قد يكون من هذا الباب ، فإن هجره تعزير له وعقوبة له جزاء لمنع الناس من ذلك الذنب الذى هو بدعة أو غيرها ، وإن كان فى نفس الأمر تائبا أو معذوراً ، إذ الهجرة مقصودها أحد شيئين :

إما ترك الذنوب المهجورة وأصحابها ، وإما عقوبة فاعلها ونكاله .

ومن هذا الباب هجر الإمام أحمد للذين أجابوا فى المحنة قبل القيد ولمن تاب بعد الإجابة ، ولمن فعل بدعة ما ، مع أن فيهم أئمة فى الحديث والفقه والتصوف والعبادة ، فإن هجره لهم

(١) سورة البقرة من الآية : ٣٠ .

والمسلمين معه لا يمنع معرفة قدر فضلهم ، كما أن الثلاثة الذين خلفوا لما أمر النبى ﷺ بهجرهم لم يمنع ذلك ما كان لهم من السوابق . حتى قيل إن اثنين منهما شهدا بدراً ، وقد قال الله لأهل بدر « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وأحدهم كعب بن مالك شاعر النبى ﷺ وأحد أهل العقبة ، فهذا« أصل عظيم » أن عقوبة الدنيا المشروعة من الهجران إلى القتل لا يمنع أن يكون المعاقب عدلاً أو رجلا صالحاً كما بينت من الفرق بين عقوبة الدنيا المشروعة والمقدورة ، وبين عقوبة الآخرة والله سبحانه أعلم .

(ص ٣٧٦ ج ١٠ مجموع الفتاوى)

التوبة من الذنوب

ذهب طائفة من أهل الكلام كأبى هاشم إلى أن التوبة لا تصح من قبيح مع الإصرار على الآخر ـ قالوا : لأن الباعث على التوبة إن لم يكن من خشية الله لم يكن توبة صحيحة ، والخشية مانعة من جميع الذنوب لا من بعضها ، وحكى القاضى أبو يعلى وابن عقيل هذا رواية عن أحمد ، لأن المروزى نقل عنه أنه سئل عمن تاب من الفاحشة وقال : لو مرضت لم أعد لكن لا يدع النظر ، فقال أحمد : أى توبة ذه ؟! قال جرير بن عبد الله : سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال : « اصرف بصرك »[1] (رواه مسلم) . .

والمعروف عن أحمد وسائر الأئمة هو القول بصحة التوبة ، وأحمد فى هذه المسألة إنما أراد أن هذه ليست توبة عامة يحصل بسببها من التائبين توبة مطلقا لم يرد أن ذنب هذا كذنب المصر على الكبائر ، فإن نصوصه المتواترة عنه وأقواله الثابتة تنافى ذلك . وحَمْلُ كلام الإمام على ما يصدق بعضه بعضا أولى من حمله على التناقض ، لا سيما إذا كان القول الآخر مبتدعا لم يعرف عن أحد من السلف ، وأحمد يقول : إياك أن تتكلم فى مسألة ليس لك فيها فهم ، وكان فى المحنة يقول : كيف أقول مالم يقل . واتباع أحمد للسنة والآثار وقوة رغبته فى ذلك وكراهته لخلافه من الأمور المتواترة عنه يعرفها من يعرف حاله من الخاصة والعامة .

وما ذكروه من أن الخشية توجب العموم .

فجوابه : أنه قد يعلم قبحها ولكن هواه يغلبه فى أحدهما دون الآخر فيتوب من هذا دون ذاك ، كمن أدى بعض الواجبات دون بعض ، فإن ذلك يقبل منه .

ولكن المعتزلة لهم أصل فاسد وافقوا فيه الخوارج فى الحكم وإن خالفوهم فى الاسم ، فقالوا : إن أصحاب الكبائر يخلدون فى النار ولا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها ، وعندهم يمتنع أن يكون الرجل الواحد ممن يعاقبه الله ثم يثيبه ، ولهذا يقولون بحبوط جميع الحسنات بالكبيرة .

---

(١) أنظر صحيح مسلم « كتاب الآداب » باب تحريم النظر فى بيت غيره جـ ٣ ص ١٦٩٩ « باب نظر الفجاءة » حديث ٤٥/٢١٥٩ فقد ورد الحديث عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن نظر الفجاءة فأمرنى أن أصرف بصرى »

وأما الصحابة وأهل السنة والجماعة فعلى أن أهل الكبائر يخرجون من النار ويشفع فيهم وأن الكبيرة الواحدة لا تحبط جميع الحسنات ولكن قد تحبط ما يقابلها عند أكثر أهل السنة . ولا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر . كما لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة ، فصاحب الكبيرة إذا أتى بحسنات يبتغى بها رضا الله أثابه الله على ذلك ، وإن كان مستحقا للعقوبة على كبيرته .

وكتاب الله عز وجل يفرق بين حكم السارق والزانى وقتال المؤمنين بعضهم بعضا وبين حكم الكفار فى « الأسماء والأحكام » والسنة المتواترة عن النبى ﷺ وإجماع الصحابة يدل على ذلك . كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع .

التوبة من بعض الذنوب

وعلى هذا تنازع الناس فى قوله : (**إنما يتقبل الله من المتقين**)[١] فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقا فلم يأت كبيرة ، وعند المرجئة إنما يتقبل ممن اتقى الشرك . فجعلوا أهل الكبائر داخلين فى اسم « المتقين » وعند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصا لله موافقا لأمر الله فمن اتقاه فى عمله تقبله منه ، وإن كان عاصيا فى غيره . ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعاً فى غيره .

والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطا فى صحة المفعول كالإيمان المشروط فى غيره من الأعمال ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا** ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾[٣] وقال : ﴿ **ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والاخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[٤] إن من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض فإن التوبة إنما تقتضى مغفرة ما تاب منه ، أما مالم يتب منه فهو باق فيه على حكم من لم يتب ، لا على حكم من تاب ، وما علمت فى هذا نزاعاً إلا فى الكافر إذا أسلم ، فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالإسلام الكفر الذى تاب منه ، وهل تغفر له الذنوب التى فعلها فى حال الكفر ولم يتب منها فى الإسلام ؟هذا فيه قولان معروفان :

أحدهما : يغفر له الجميع ؛ لإطلاق قوله ﷺ : « الإسلام يهدم ما كان قبله »[٥] رواه مسلم مع قوله تعالى : ﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف** ﴾[٦]

---

(١) سورة المائدة من الآية : ٢٧ .
(٢) سورة الإسراء الآية : ١٩
(٣) سورة النحل من الآية : ٩٧ .
(٤) سورة البقرة من الآية : ٢١٧ .
(٥) أنظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب كون الإسلام يهدم ما قبله . . الخ جـ ١ ص ١١٢ فقد ورد الحديث رقم ١٢١/١٩٢ وهو حديث طويل من رواية لابن شماسة المهرى وقد تضمن هذا الحديث .
(٦) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

القول الثانى :

أنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه ، فإذا أسلم وهو مصرٌ على كبائر دون الكفر فحكمه فى ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر ، وهذا القول هو الذى تدل عليه الأصول والنصوص ؛ فإن فى الصحيحين أن النبى ﷺ : « **قال له حكيم بن حزام : يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية ؟ فقال : من أحسن منكم فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر** »[1] فقد دل هذا النص على أنه إنما ترتفع المؤاخذة بالأعمال التى فعلت فى حال الجاهلية عمن أحسن لا عمن يحسن ، وإن لم يحسن أخذ بالأول والآخر ، ومن لم يتب منها فلم يحسن .

وقوله تعالى : ﴿ قل للذينَ كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ﴾[2] .

يدل على أن المنتهى عُن شىء يغفر له ما قد سلف منه ، لا يدل على أن المنتهى عن شىء يغفر له ما سلف من غيره ، وذلك لأن قول القائل لغيره : إن انتهيت عن هذا الأمر غفر لك ما تقدم منه ، وإذا انتهيت عن شىء غفر لك ما تقدم منه ، كما يفهم مثل ذلك فى قوله : « إن تبت » لا يفهم منه أنك بالانتهاء عن ذنب يغفر لك ما تقدم من غيره .

وأما قول النبى ﷺ : « الإسلام يهدم ما قبله » وفى رواية « يجب ما كان قبله » فهذا قاله لما أسلم عمرو بن العاص وطلب أن يغفر له ما تقدم من ذنبه فقال له : « يا عمرو أما علمت أن الإسلام يهدم قبله ، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها »[3] ومعلوم أن التوبة إنما توجب مغفرة ما تاب منه ، لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب .

إن الإنسان قد يستحضر ذنوبا فيتوب منها ، وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه ، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهى تتناول كل ما يراه ذنبا ، لأن التوبة العامة تتضمن عزما بفعل المأمور وترك المحظور وكذلك تتضمن ندماً عامّاً على كل محظور . (ص ٣٢٠ ج ١٠ مجموع الفتاوى) . ا هـ .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب إستتابة المرتدين » .. الخ جـ ٨ ص ١٧ ـ ١٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية ابن مسعود .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية » جـ ١ ص ١١١ حديث رقم ١٩٠ / ١٢٠ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن مسعود ..

(٢) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ٢٠٥ فقد ورد الحديث فى رواية عن ابن شماسة المهرى .. وانظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب كون الإسلام يهدم ما قبله جـ ١ ص ١١٢ حديث ١٩٢ / ١٢١ وهو حديث طويل من رواية ابن شماسة المهرى وقد تضمن الحديث الذى معنا .

من مشاهد القيامة فى القرآن الكريم

قال تعالى :

ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ

أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

معانى المفردات

(وكيل) : أى : قيم بالحفظ والرعاية فيتولى التصرف بحسب الحكمة والمصلحة .

(مقاليد) أى : مفاتيح (ليحبطن عملك) أى : ليذهبن هباء ولا يكون له أثر .

(وما قدروا الله حق قدره) أى : ما عظموه حق التعظيم على الوجه الذى يليق به .

(الصور) : القرن الذى ينفخ فيه ، (صعق) أى : غشى عليه ، (ينظرون) أى : ينتظرون ماذا يفعل بهم ؟ (أشرقت) أى : أشرقت الشمس : أضاءت وشرقت : طلعت (ووضع الكتاب) أى : ووضعت صحائف الأعمال بأيدى العاملين ، (بالحق) أى : بالعدل ، (ما عملت) أى : جزاء ما عملت (وسيق) السوق : الحث على السير بعنف وإزعاج علاوة على الإهانة والاحتقار . وهذا فى حق الكافرين . (زمرا) الزمر : الأفواج المتفرقة بعضها فى إثر بعض . (خزنتها) الخزنة : واحدهم خازن .

(ينذرونكم) أى : يخوفونكم . (حقت) : وجبت .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن بسط سبحانه الوعد والوعيد يوم القيامة لأهل التوحيد وأهل الشرك ـ عاد إلى ذكر دلائل الألوهية والوحدانية ، ثم انتقل إلى النعى على الكافرين فى أمرهم لرسوله بعبادة الأوثان والأصنام ، ثم بين أن الأنبياء جميعا أوحى إليهم ألا يعبدوا إلا الله وحده ، وألا يشركوا به شيئا ، وأنهم إن فعلوا ذلك حبطت أعمالهم ، ثم كرر النعى عليهم مرة أخرى بأنهم لم يعرفوا الله حق معرفته ، إذ لو عرفوه لما جعلوا هذه المخلوقات الخسيسة مشاركة له فى العبودية . ثم أردف ذلك ذكر دلائل أخرى تدل على كمال قدرته وعظيم سلطانه . فيذكر مقدمات يوم القيامة من نفخ الصور النفخة الأولى التى يموت بها أهل الأرض جميعا ثم النفخة الثانية التى يقوم بها الناس جميعا من قبورهم ، ثم الفصل بينهم للجزاء والحساب ، فتوفى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر وهو سبحانه العليم بأفعالهم جميعا ، ثم فصّل ذلك فذكر ما يحل بالأشقياء من الأهوال وما يلقونه من التأنيب والتوبيخ ، وذكر سبحانه بعد ذلك أحوال السعداء ، وما يلاقونه من النعيم ، وما يقال لهم وما يقولون (وقيل الحمد لله رب العالمين) .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل * له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون * قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾ يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته . كقوله عز وجل : ﴿ بديع السموات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل * لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **له مقاليد السموات والأرض** ﴾ قال مجاهد : المقاليد : المفاتيح وقال السدى : (له مقاليد السموات والأرض) أى : خزائن السموات والأرض ، والمعنى على كلا القولين أن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ فاطر السموات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير * له مقاليد السموات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شىء عليم ﴾[2] .

وقوله عز وجل : ﴿ **والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون** ﴾ أى : **والذين كفروا بحججه وبراهينه فأولئك هم الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآيات الله يظلمون** .

وقوله تعالى : ﴿ **قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟** ﴾

ذكروا فى سبب نزولها ما رواه ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدون معه إلهه فنزلت (**قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين**) وهذه كقوله تعالى : ﴿ **ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون** ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ **بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾ أى : أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك .

قوله تعالى : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ .

يقول ابن كثير :

يقول تبارك وتعالى : (**وما قدروا الله حق قدره**) أى : **ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذى لا أعظم منه القادر على كل شىء ، المالك لكل شىء ، وكل شىء تحت قهره وقدرته** .

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ١٠١ - ١٠٣ .

(٢) سورة الشورى الآيتان : ١١ - ١٢ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : (وما قدروا الله حق قدره) : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شىء قدير فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره ، وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف .

قال البخارى : قوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله ـ عز وجل ـ يجعل السموات والأرض على أصبع والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) الآية ورواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع من صحيحه والإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى فى التفسير عن ابن مسعود رضى الله عنه بنحوه .[١]

وقال البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يقبض الله تعالى الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض» تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر[٢]

وقال البخارى : عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على أصبع وتكون السموات بيمينه ثم يقول : أنا الملك » تفرد به أيضا من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر[٣]

وأخرج الشيخان والنسائى وابن ماجه فى جماعةآخرين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وهو يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر يمجد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرُجِف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرَّنَّ به »[٤] .

قوله جل فى علاه : (سبحانه وتعالى عما يشركون) به من المعبودات التى يجعلونها شركاء له مع القدرة العظيمة والحكمة الباهرة . (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا) .

﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ .

---

(١) انظر صحيح البخارى «كتاب التوحيد» ص ١٥١ فقد ورد الحديث من رواية عن عبد الله .

(٢) انظر صحيح البخارى «كتاب التوحيد» باب «قول الله تعالى مالك الناس» جـ ٩ ص ١٤٢ فقد ورد الحديث من رواية عن أبى هريرة . وانظر جـ٨ ص١٣٥ باب يقبض الله الأرض .

(٣) انظر صحيح البخارى «كتاب التوحيد» ص ١٥٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص٦٢ ، ٦٣ ط/دار الفكر فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمر .

قوله تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون (٦٨) وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجاىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون (٦٩) ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون (٧٠) ﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة فقوله تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ﴾ هذه النفخة هى الثانية ،وهى نفخة الصعق ، وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض ، إلا من شاء الله ـ كما جاء به مفسراً فى حديث الصور المشهور ـ ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولاً ، وهو الباقى آخراً وهو الأول والآخر ، الحى الذى لا يموت ، يقول سبحانه : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾[١] ثلاث مرات ثم يجيب نفسه فيقول : ﴿ لله الواحد القهار ﴾[٢] ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾[٣] ، ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل ، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى ، وهى النفخة الثالثة ، نفخة البعث قال الله عز وجل : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ أى : أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾[٤] وكقوله تعالى : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة ﴾[٥] . وكقوله عز وجل : ﴿ ويوم ينفخ فى الصبور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين * وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون * من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾[٦] . وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنا الجبهة ، وأصغى السمع ينتظر متى يؤمر فينفخ ، قالوا : كيف نصنع ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على

---

(١) غافر آية : ١٦
(٢) غافر آية : ١٦
(٣) الأنعام الآية : ٧٣
(٤) يس آية : ٥١
(٥) النازعات الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٦) النمل الآيات : ٨٧ ـ ٩٠

الله توكلنا »[1] . (صحيح الجامع الصغير) والمعنى : كيف أطيب عيشاً وقد قرب أمر الساعة ؟

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث فيهم أربعين لا أدرى أربعين يوما أو أربعين شهراً أو أربعين عاما أو أربعين ليلة فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفى فيظهر فيهلكه الله تعالى ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله تعالى ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى أن لو كان أحدهم كان فى كبد جبل لدخلت عليه . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ « ويبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا . قال : فيتمثل لهم الشيطان فيقول ، ألا تستجيبون ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها وهم فى ذلك دارَّة أرزاقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ، ورفع ليتا ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ثم لا يبقى أحد إلا صعق ثم يرسل الله تعالى أو ينزل الله عز وجل مطراً كأنه الظل ـ أو الطل شك الراوى ـ فينبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾[2] وقال البخارى بسنده عن أبى صالح قال : سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يحدث عن النبى ﷺ قال : « بين النفختين أربعون . قالوا : يا أبا هريرة أربعون يوما ؟ قال رضى الله عنه : أبيت ، قالوا أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، ويبلى كل شىء من الإنسان إلا عَجْب الذَّنَب فيه يركب الخلق »[3] .

قوله تعالى : ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾ أى : أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء . (ووضع الكتاب) قال قتادة : كتاب الأعمال (وجىء بالنبيين) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم (والشهداء) أى : الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿ **وقضى بينهم بالحق** ﴾ أى : بالعدل ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[4] . وقال جل وعلا : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما ﴾[5] ولهذا قال عز وجل : ﴿ **ووفيت كل نفس ما عملت** ﴾ أى : من خير أو شر ﴿ **وهو أعلم بما يفعلون** ﴾ فى الدنيا دون حاجة إلى كاتب ولا حاسب ، فلا يفوته من أعمالهم شىء ، ومن ثم يكون حكمه بينهم بالقسطاس المستقيم .

قوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ولكن**

---

(١) أخرجه الترمذى جـ ٤ ص ٤٢ أبواب صفة القيامة برقم ٢٥٤٨ وقال : هذا حديث حسن .
(٢) أخرجه الإمام أحمد جـ ٢ ص ١٦٦ / والحاكم جـ ٤ ص ٥٥٠ ، ص ٥٥١ وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .
(٣) أخرجه البخارى جـ ٦ ص ١٥٨
(٤) الأنبياء آية : ٤٧
(٥) النساء آية : ٤٠

حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار ، كيف يساقون إلى النار ، وإنما يساقون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد ، كما قال عز وجل : ﴿ يوم يُدَعُّونَ إلى نار جهنم دعا ﴾[1] أى : يدفعون إليها دفعاً ، وكما قال عز وجل : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾[2] وهم فى تلك الحال صم وبكم وعمى منهم من يمشى على وجهه قال تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصمّاً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها** ﴾ أى : بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا لتعجل لهم العقوبة .

﴿ وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ .

يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق ، شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل : ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم ؟** ﴾ أى : من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿ **يتلون عليكم آيات ربكم** ﴾ أى : يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿ **وينذرونكم لقاء يومكم هذا** ﴾ أى : ويحذرونكم من شر هذا اليوم ؟ فيقول الكفار لهم : (بلى) أى : قد جاءونا وأنذرونا ، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ **ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾ أى : ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التى كنا نستحقها ، حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل ، كما قال عز وجل مخبرا عنهم فى الآية الأخرى : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾[4] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها** ﴾ أى : كل من رآهم وعلم حالهم ، يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ، ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين ، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم ، بأنهم يستحقون ما هم فيه ، بما حكم العدل الخبير عليهم به ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ **قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها** ﴾ أى : ماكثين فيها لا خروج لكم منها ، ولا زوال لكم عنها ﴿ **فبئس مثوى المتكبرين** ﴾ أى : فبئس المصير ، وبئس المقيل لكم ، بسبب تكبركم فى الدنيا ، وإبائكم عن اتباع الحق ، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه ، فبئس الحال وبئس المآل .

قوله تعالى : **﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض**

---

(١) الطور آية : ١٣
(٢) غافر الآيتان : ٧١ ، ٧٢
(٣) الإسراء اية : ٩٧
(٤) الملك الآيات : ٨ - ١١

نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وهذا إخبار عن حال السعداء ، حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة (زمراً) جماعة بعد جماعة : المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع الصديقين ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة تناسب بعضها بعضا **﴿ حتى إذا جاءوها ﴾** أى : وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط ، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا ، أذن لهم فى دخول الجنة ، وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة ، تشاوروا فيمن يستأذن لهم فى الدخول ، فيقصدون آدم ، ثم نوحا ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم محمدا ﷺ وعليهم أجمعين ، كما فعلوا فى العرصات ، عند استشفاعهم إلى الله عز وجل أن يأتى لفصل القضاء ، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها ، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول شفيع فى الجنة » وفى لفظ مسلم : « وأنا أول من يقرع باب الجنة »[1] .

وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آتى باب الجنة يوم القيامة أستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ـ قال ـ فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك »[2] .

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتغوطون فيها ، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض . قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله تعالى بكرة وعشياً »[3] ورواه البخارى ولمسلم بنحوه . وقال الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درى فى السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً فى السماء »[4] وأخرجاه أيضاً من حديث جرير .

وقوله تعالى : **﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾** لم يذكر الجواب ههنا ، وتقديره : حتى إذا جاءوها ، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم

(١) أخرجه الإمام مسلم جـ ١ ص ١٨٨ برقم ٣٣٠ ، ١٩٦/٣٣١ كتاب الإيمان

(٢) أخرجه الإمام أحمد جـ ٣ ص ١٣٦ ومسلم جـ١ ص ١٨٨ برقم ١٩٧/٣٣٣ كتاب الإيمان

(٣) أخرجه البخارى جـ ٤ ص ١٤٣ كتاب بدء الخلق / أحمد جـ ٢ ص ٣١٦ ، ٣١٧ والترمذى جـ ٤ ص ٨٥ برقم ٢٦٦٠ أبواب صفة الجنة ومسلم جـ ٤ ص ٢١٨٠ برقم ٢٨٣٤/١٧ .

(٤) أخرجه البخارى جـ ٤ ص ١٤٣ كتاب بدء الخلق / أحمد جـ ٢ ص٢٥٣ مسلم جـ ٤ ص ٢١٧٩ برقم ١٥ ، ٢٨٣٤/١٦ كتاب الجنة وصفة نعيمها

إكراماً وتعظيماً ، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء ، فتقديره إذا كان هذا : سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر ما يكون لهم فيه نعيم ، وإذا حذف الجواب ههنا ، ذهب الذهن كل مذهب فى الرجاء والأمل .

ويقول الإمام ابن القيم : ما السر فى حذف الجواب فى آية أهل الجنة ، وذكره فى آية أهل النار ؟

فيقال : هذا أبلغ فى الموضعين ، فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها ، وأبوابها مغلقة ، حتى إذا وصلوا إليها ، فتحت فى وجوههم ، فيفجؤهم العذاب بغتة ، فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة ، فإن هذا شأن الجزاء المرتب على الشرط : أن يكون عقيبه ، والنار دار الإهانة والخزى ، فلم يستأذن لهم فى دخولها ، ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول ، وأما الجنة فإنها دار الله ، ودار كرامته ، ومحل خواصه وأوليائه ، فإذا انتهوا إليها ، صادفوا أبوابها مغلقة ، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها ، ويستشفعون إليه بأولى العزم من رسله ، وكلهم يتأخر عن ذلك ، حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم ، فيقول : ﴿ أنا ﴾ فيأتى إلى تحت العرش ، ويخر ساجدا لربه ، فيدعه ربه ساجداً ما شاء أن يدعه ، ثم يأذن له فى رفع رأسه ، وأن يسأل حاجته ، فيشفع إليه سبحانه فى فتح أبوابها ، فيشفعه ، ويفتحها تعظيماً لخاطره ، وإظهاراً لمنزلة رسوله وكرامته عليه ، وأن مثل هذه الدار ، التى هى دار ملك الملوك ورب العالمين ، إنما يدخل إليها بعد تلك الأهوال العظيمة ، التى أولها من حين عقل العبد فى هذه الدار إلى أن انتهى إليها ، وما ركبه من الأطباق طبقا بعد طبق ، وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة ، حتى أذن الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله ، وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه فى فتحها لهم . وهذا أبلغ وأعظم فى تمام النعمة ، وحصول الفرح والسرور مما يقدر بخلاف ذلك ، لئلا يتوهم الجاهل أنها بمنزلة الخان الذى يدخله من شاء ، فجنة الله غالية ، وبين الناس وبينها من العقبات والمفاوز والأخطار ما لا تنال إلا به . فما لمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ولهذه الدار؟ فليبعد عنها إلى ما هو أولى به . وقد خلق له وهيء له .

وتأمل ما فى سوق الفريقين إلى الدارين زمراً : من فرحة هؤلاء بإخوانهم ، وسيرهم معهم كل زمرة على حدة ، كمشتركين فى عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم ، مستبشرين أقوياء القلوب ، كما كانوا فى الدنيا وقت اجتماعهم على الخير ، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً ، ويفرح بعضهم ببعض ، وكذلك أصحاب الدار الأخرى ، النار يساقون إليها زمراً ، يلعن بعضهم بعضاً ، ويتأذى بعضهم ببعض ، وذلك أبلغ فى الخزى والفضيحة من أن يساقوا واحداً واحداً .

فلا تهمل ، وتدبر قوله : ﴿ زمراً ﴾ ، وقول خزنة الجنة لأهلها : ﴿ سلام عليكم ﴾ فبدأوهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه ، أى : سلمتم ، فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون ، ثم قالوا لهم : ﴿ طبتم فادخلوها خالدين ﴾ أى : سلامتكم ودخولكم الجنة يطيبكم ، فإن الله حرمها إلا على الطيبين ، فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود .

أما أهل النار فإنهم حين انتهوا إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن ، فتحت لهم أبوابها ، فوقفوا عليها ، وزيدوا على ما هم عليه توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم : ﴿ ألم يأتكم رسل

منكم يتلون عليكم ايات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ فاعترفوا وقالوا : ﴿ **بلى** ﴾ فبشروهم بدخول النار ، والخلود فيها ، وأنها بئس المثوى والمآب لهم .

وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها : ﴿ **ادخلوها** ﴾ وقول خزنة النار لأهلها : ﴿ **ادخلوا أبواب جهنم** ﴾ تجد تحته سرّاً لطيفاً ، ومعنى بديعاً ، لا يخفي على المتأمل ، وهو أنه لما كانت النار دار العقوبة وأبوابها أفظع شيء ، وأشده حرّاً ، وأعظمه غمّاً ، يستقبل الداخل فيها من العذاب ما هو أشد منها ، ويدّنو من الغم والخزى والحزن والكرب بدخول الأبواب . فقيل : ادخلوا أبواب جهنم صغاراً لهم وإذلالا وخزياً ، ثم قيل لهم : لا يقتصر بكم العذاب على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ، ولكن وراءها الخلود فى النار .

وأما الجنة : فهى دار الكرامة والمنزل الذى أعده الله لأوليائه ، فبشروا من أول وهلة بالدخول إلى الأرائك والمنازل والخلود فيها .

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** ﴾ .

أى : وقال المؤمنون إذ عاينوا ذلك النعيم المقيم ، والعطاء العظيم فى الجنة : الحمد لله الذى صدقنا ما وعدنا به على ألسنة رسله الكرام ، كما دعوا بذلك فى الدنيا وقالوا : ﴿ **ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة** ﴾[(١)] وقال الحق تبارك اسمه : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا** ﴾[(٢)] .

وهم كذلك يحمدون الله على نعمة الإيمان والهداية فيقولون : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾[(٣)] .

وقوله تعالى : ﴿ **وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء** ﴾ أى : وجعلنا نتصرف فى أرض الجنة تصرف الوارث فيما يرث ، فنتخذ منها مباءة وسكناً حيث شئنا ﴿ **فنعم أجر العاملين** ﴾ أى : فنعم الأجر أجرنا على عملنا ، وثوابنا الذى أعطيتنا . وقوله تعالى : ﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ .

لما ذكر تعالى الحكمة فى أهل الجنة والنار ، وأنه نزل كلا فى المحل الذى يليق به ، ويصلح له ، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد ، يسبحون بحمد ربهم ، ويمجدونه ، ويعظمونه ، ويقدسونه ، وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضى الأمر ، وحكم بالعدل ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ **وقضى بينهم** ﴾ أى : بين الخلائق (بالحق) ثم قال : ﴿ **وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ أى : نطق الكون أجمعه لله رب

---

(١) آل عمران آية : ١٩٤ (٢) النساء آية : ١٢٢ (٣) الأعراف آية : ٤٣

العالمين بالحمد فى حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد .

قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد فى قوله : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ﴾[١] .

واختتم بالحمد فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ لذا يقول سبحانه : ﴿ له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾[٢] وقال سبحانه في فاتحة الكتاب : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ . فالحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً ، طيباً ، مباركاً فيه ، ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد .

---

(١) الأنعام آية : ١
(٢) القصص آية : ٧٠

تفسير سورة غافر

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق . عدد آياتها خمس وثمانون فى عدّ الكوفة والشام . . . .
وكلماتها ، ألف ومائة وتسع وتسعون .
وحروفها : أربعة آلاف وتسعمائة وستون .
ولها ثلاثة أسماء : سورة المؤمن ، لاشتمالها على حديث مؤمن آل فرعون فى قوله تعالى : ﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . . الآية** ﴾ وسورة الطَّوْل لقوله تعالى : ﴿ **ذى الطول** ﴾ والثالث : حمّ الأولى ؛ لأنها أولى ذوات حمّ .

معظم مقصود السورة

المِنَّة على الخلق بالغفران ، وقبول التوبة ، وخطبة التوحيد على جلال الحق ، وتقلب الكفار بالكسب والتجارة ، وبيان وظيفة حملة العرش ، وتضرع الكفار فى قعر الجحيم ، وإظهار أنوار العدل فى القيامة ، وذكر إهلاك القرون الماضية ، وإنكار فرعون على موسى وهارون ، ومناظرة مؤمن آل فرعون لقوم فرعون نائباً عن موسى ، وعرض أرواح الكفار على العقوبة ، ووعد النصر للرسل ، وإقامة أنواع الحجة والبرهان على أهل الكفر والضلال ، والوعد بإجابة دعاء المؤمنين ، وإظهار أنواع العجائب من صنع الله ، وعجز المشركين فى العذاب ، وأن الإيمان عند اليأس غير نافع ، والحكم بخسران الكافرين والمبطلين فى قوله تعالى : ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾[1] .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **أولم يسيروا فى الأرض** ﴾ وبعده ﴿ **أفلم يسيروا** ﴾ ما يتعلق بذكرهما سبق .

قوله : ﴿ **ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم** ﴾ وفى التغابن : ﴿ **بأنه كانت** ﴾ لأن هاء الكناية إنما زيدت لامتناع (أن) عن الدخول على (كان) فخصت هذه السورة بكناية المتقدم ذكرهم ، موافقة لقوله : ﴿ **كانوا هم أشد منهم قوة** ﴾ وخصت سورة التغابن بضمير الأمر والشأن توصلا إلى (كان) .

قوله : ﴿ **فلما جاءهم الحق** ﴾ فى هذه السورة فحسب ، لأن الفعل لموسى وفى سائر القرآن الفعل للحق .

قوله : ﴿ **إن الساعة لآتية** ﴾ وفي طه ﴿ **آتية** ﴾ لأن اللام ، إنما تزاد لتأكيد الخبر ، وتأكيد الخبر ، إنما يحتاج إليه إذا كان المخبر به شاكا فى الخبر ، والمخاطبون فى هذه السورة هم الكفار ، فأكَّد ، وكذلك أكدَ ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس** ﴾ (وافق ما قبله) فى هذه السورة باللام .

---

(١) غافر آية : ٨٥

قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ وفى سورة يونس ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ - وقد سبق - لأنه وافق ما قبله فى هذه السورة : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وبعده ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ ثم قال : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

قوله فى الآية الأولى : ﴿ لا يعلمون ﴾ أى : لا يعلمون أن خلق الأصغر أسهل من خلق الأكبر ، ثم قال : ﴿ لا يؤمنون ﴾ أى : لا يؤمنون بالبعث . ثم قال : ﴿ لا يشكرون ﴾ أى : لا يشكرون الله على فضله ، فختم كل آية بما اقتضاه . قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ مدح نفسه سبحانه ، وختم ثلاث آيات على التوالى بقوله : ﴿ رب العالمين ﴾ وليس له فى القرآن نظير .

قوله : ﴿ وخسر هنالك المبطلون ﴾ وختم السورة بقوله : ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ لأن الأول متصل بقوله ﴿ قضى بالحق ﴾ ونقيض الحق الباطل ، والثانى متصل بإيمان غير مُجْد ، ونقيض الإيمان الكفر .

مناسبتها لما قبلها

١ - إنه ذكر فى سابقتها ما يئول إليه حال الكافر وحال المؤمن ، وذكر هنا أنه غافر الذنب ، ليكون ذلك استدعاء للكافر إلى الإيمان والإقلاع عن الكفر .

٢ - إنه ذكر فى كل منهما أحوال يوم القيامة وأحوال الكفار فيه وهم فى المحشر وهم فى النار .

قال تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

معانى المفردات

(الجدل) : شدة اللدَد فى الخصومة . (تقلبهم) أى : تصرفهم فيها للتجارة وطلب المعاش ، (الأحزاب) : الجماعات الذين تحزبوا واجتمعوا على معاداة الرسل ، (وهمت) أى : عزمت ، (ليأخذوه) أى : ليقتلوه ويعذبوه ، (ليدحضوا) أى : ليزيلوا ، (حقت) أى : وجبت ، (كلمة ربك) أى : حكمه بالإهلاك .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ حمٓ ﴾ قال عامر الشعبى وسفيان الثورى ، وجماعة من المحدثين فى الحروف التى فى أوائل السور : هى سر الله فى القرآن ، ولله في كل كتاب من كتبه سر ، فهى من المتشابه الذى انفرد الله تعالى بعلمه . ولا يجوز أن نتكلم فيها ، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت ، وقد ورد هذا القول عن أبى بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين ، حكاه القرطبى فى تفسيره ، وقال بعض السلف : مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهى ـ أ ، ل ، م ، ص ، ر ، ك ، هـ ، ى ، ع ، ط ، س ، ح ، ق ، ن ـ يجمعها هذا القول : نص حكيم قاطع له سر .

وقوله تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ أى : تنزيل هذا الكتاب ، وهو القرآن من الله ذى العزة والعلم ، فلا يرام جنابه ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه .

وقوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ أى : يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة فى المستقبل ، لمن تاب إليه ، وخضع لديه ، كقوله تعالى : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾[1] وكقوله سبحانه : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾[2] وكقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾[3] وكقوله تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك لهم مغفرة من ربهم وجنات

---

(١) طه آية : ٨٢
(٢) التوبه آية : ١٠٤
(٣) النساء آيه : ١١٠

تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾[١] ويقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[٢] رواه مسلم . وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[٣] . رواه الترمذى وقال : حديث حسن (والغرغرة : المراد سكرات الموت) .

وقوله جل وعلا : ﴿ **شديد العقاب** ﴾ أى : لمن تمرد ، وطغى وآثر الحياة الدنيا ، وعتا عن أوامر الله وبغى ، وقد ذكر سبحانه أنه : ﴿ **غافر الذنب وقابل التوب** ﴾ لترغيب عباده العاصين ، وذكر ﴿ **شديد العقاب** ﴾ لترهيبهم ، وفى مجموع هذا : الحث على فعل المراد من تنزيل الكتاب ، وهو التوحيد ، والإيمان ، والبعث ، والإخلاص لله فى العمل ، والإقبال عليه ، وقد جمع القرآن هذين الوصفين ، فى مواضع كثيرة منه كقوله تعالى : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾[٤] وكقوله تعالى : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾[٥] ، وكقوله تعالى : ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾[٦] وكقوله جل فى علاه : ﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ﴾[٧] فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه ، ففروا إلى الله ، الغفور الرحيم ، التواب الرحيم ، الكريم الحنان ، واحذروا غضبه وعقابه ، وكان الحبيب المصطفى ﷺ يدعو ربه : « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك ، سبحانك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[٨] .

وقوله تعالى : ﴿ **ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾ .

قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **ذى الطول** ﴾ يعنى السعة والغنى ، وهكذا قال مجاهد وقتادة ، وقال عكرمة : (ذى الطول) ذى المنّ ، والمعنى أنه المتفضل على عباده ، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التى لا يطيقون بشكر واحدة منها ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[٩] الآية .

وقوله جلت عظمته ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ أى : لا معبود بحق إلا الله .

﴿ **إليه المصير** ﴾ أى : المرجع والمآب ، فيجازى كل عامل بعمله (وهو سريع الحساب) وقال أبو بكر بن عياش : سمعت أبا إسحاق السبيعى يقول : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال يا أمير المؤمنين : إنى قتلت ، فهل لى من توبة ؟ فقرأ عمر رضى الله عنه : ﴿ **حمٓ . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب** ﴾ وقال : اعمل ولا تيأس . رواه ابن أبى حاتم .

---

(١) آل عمران الآيتان : ١٣٥ ، ١٣٦ (٢) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢١١٣ برقم ٢٧٥٩/٣١ كتاب التوبة
(٣) أخرجه الترمذى فى باب الدعوات جـ ٥ ص ٢٥٧ برقم ٣٦٠٣
(٤) الحجر الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ (٦) المائدة آية : ٩٨
(٥) الرعد آية : ٦ (٧) الذاريات آية : ٥٠
(٨) أخرجه الإمام أحمد جـ١ ص ٩٦/ابن ماجه جـ٢ ص ١٢٦٣ برقم ٣٨٤١
(٩) إبراهيم الآية : ٣٤ والنحل الآية : ١٨

قوله تعالى : ﴿ **ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد * كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمةٍ برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب * وكذلك حقت كلمةُ ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار** ﴾ .

يقول تعالى : ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان ، وظهور البرهان ﴿ **إلا الذين كفروا** ﴾ أى الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه .

﴿ **فلا يغررك تقلبهم فى البلاد** ﴾ أى : فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة النافعة فى البلاد ، وما يحصلون عليه من المكاسب ، فإنهم معاقبون عما قليل ، وهم إن أمهلوا فإنهم لا يهملون ، قال الزجاج : لا يغررك سلامتهم بعد كفرهم ، فإن عاقبتهم الهلاك ، كما قال عز وجل : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾(١) وكقوله تعالى : ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾(٢) وكقوله تعالى : ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾(٣) ثم قال تعالى مسليا نبيه محمدا ﷺ ، فى تكذيب من كذبه من قومه ، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم قد كذبهم أممهم وخالفوهم ، وما آمن بهم إلا قليل فقال سبحانه : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح** ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ، ينهى عن عبادة الأوثان (والأحزاب من بعدهم) أى : من كل أمة ﴿ **وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه** ﴾ أى : حرصوا على قتله بكل ممكن ، ومنهم من قتل رسوله ﴿ **وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق** ﴾ أى : ما حلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلى . كقولهم : (ما أنتم إلا بشر مثلنا) ليبطلوا به الحق الذى جاء به من عند الله ، وليطفئوا النور الذى أوتيه ، قال يحيى بن سلام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا الإيمان . ﴿ **ثم أخذتهم فكيف كان عقاب** ﴾ أى : أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿ **فكيف كان عقاب** ﴾ أى فكيف بلغك عذابى لهم ، ونكالى بهم ، قد كان شديداً موجعاً مؤلماً ، قال قتادة : كان شديداً والله . وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير * فكأين من قريةٍ أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾(٤) وكقوله تعالى : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار** ﴾ قال ابن كثير : أى كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة ، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء ، الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى ، لأن من كذبك ، فلا وثوق له بتصديق غيرك . والله أعلم .

---

(١) آل عمران الآيتان : ١٩٦ ، ١٩٧
(٢) الشعراء الآيات : ٢٠٥ - ٢٠٧
(٣) لقمان آية : ٢٤
(٤) الحج الآيات : ٤٢ - ٤٥
(٥) العنكبوت آية : ٤٠

منزلة المؤمنين عند الله تعالى

ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

معانى المفردات

(العرش) : مركز تدبير العالم ، وندع أمر وصفه إلى عالم الغيب ، فهو العليم بعرشه .
(سبيلك) : طريق الهدى (دين الإسلام) . (وقهم) أى : احفظهم ، من وقيته كذا ، أى : حفظته ،
(السيئات) : أى الجزاء المرتب عليها .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن أبان ـ سبحانه ـ ما أظهره المشركون للمؤمنين من العداوة ، ومجادلتهم للرسل بالباطل ، لإطفاء نور دعوتهم ، أردف ذلك بيان أن أشرف المخلوقات ، وهم الملائكة ، الذين يحملون العرش والحافون حول العرش ـ يحبون المؤمنين ، ويطلبون لهم ولآبائهم وأزواجهم وذرياتهم المغفرة من ربهم ، فلا تبال أيها الرسول بهؤلاء المشركين ولا تقم لهم وزناً ، وكفاك نصرة حملة العرش والحافين حوله .

(التفسـير)

هذا المشهد القرآنى العظيم ، فيه إخبار منه سبحانه وتعالى عن الذين يحملون العرش العظيم ، والذين حوله ، ما شأنهم ؛ إنهم ينزهون الله تبارك اسمه ، تنزيها مقترنا بالحمد ، فيقولون : سبحان الله وبحمده ، والملائكة أجسام نورانية ، تتشكل بالأشكال الحسنة ، لا يأكلون ولا يشربون ، ولا ينامون ، ولا يتزوجون ، ولا يتناسلون ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[1] ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴾[2] ، التسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، فإنهم لا يسأمون ، وهم عباد مكرمون ، لا يسبقون بالقول ، وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ، ما من موضع قدم فى السماء ، إلا وفيه ملك قائم ، أو راكع ، أو ساجد لله ، ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾[3] فاللهم لك الحمد ، فأنت فاطر السموات والأرض ، ولك الحمد ، أنت جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة ، مثنى وثلاث ورباع ، تزيد فى الخلق ما تشاء ، إنك على كل شىء قدير ، إنهم لا يقتصرون على التسبيح والتحميد ، بل يجمعون بين ذلك ، وبين الاستغفار

(١) الأنبياء آية : ٢٠ (٢) الأنبياء آية : ١٩ (٣) الشورى آية : ٥

للمؤمنين إنهم يقولون : كما روى شهر بن حوشب رضى الله عنه : (حملة العرش ثمانية : أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ، وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك)[1] ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا : ﴿ **ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما** ﴾ أى : رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿ **فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم** ﴾ أى : يا ربنا ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الحول والطول ، يا ذا الجاه والغنى ، يا صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق ، يا صاحب العزة القائمة ، والحكمة الدائمة ، اصفح عن عبادك المؤمنين ، واعف عنهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإنهم تابوا واتبعوا سبيل الهدى ، وقهم عذاب الجحيم يوم لقائك .

ما هذه الروعة ، وما هذا الإكرام للمؤمنين ، حملة العرش يدعون لهم بظهر الغيب ، جل جلالك ربنا إذ تقول : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم** ﴾ وبعد التخلية من العذاب ، تأتى التحلية بدخول الجنة ، إنهم يضيفون إلى تلك الدعوات المباركة ، دعوة طيبة أخرى ، يضيفون فيها إلى المؤمنين من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنهم يدعون بلسان اليقين ، ومنطق الحق المبين قائلين : ﴿ **ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ وسبحان من عمت رحمته ، وبلغت حكمته وجلت قدرته ، وتعالت عظمته ، إذ يقول : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونعيم * فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين * والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين * وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم * ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين * فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنَّا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم** ﴾[2] . وإذ يقول : ﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾[3] .

وإذ يقول : (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون * هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون * سلام قولا من رب رحيم)[4] . قال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم ؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك فى العمل ، فيقول : إنى إنما عملت لى ولهم ، فيلحقون به فى الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية : ﴿ ربنا

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٢١ ط . الشعب
(٢) الطور الآيات : ١٧ - ٢٨
(٣) الرعد الآيات : ١٩ - ٢٤
(٤) يس الآيات : ٥٥ - ٥٨

وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ الآية . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة ، ثم تلا هذه الآية : (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) الآية .

أما قوله تعالى : ﴿ **إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ فإنه تذييل حكيم ، فالذى يملك المغفرة والرحمة ، والعفو والصفح الجميل ، هو العزيز الذى لا يغلب ـ القاهر فوق عباده ، الذى بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه الحكيم هو المنزه عن العبث الذى يضع الأمور فى نصابها ، فيرحم من يستحق الرحمة ، ﴿ قال عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون * قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾(١) ثم تضيف الملائكة إلى دعواتها دعوة أخرى ، فتقول : ﴿ وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ . أى : اجعل بينهم وبين فعل السيئات حجاباً مستوراً ، وحصناً حصيناً ، وحجابا مكينا (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) أى : يوم القيامة ، لأنه أتاك بقلب سليم قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم * وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾(٤) وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾(٥) لا فوز أعظم من هذا ، فكل بلاء دون النار عافية ، وكل نعيم دون الجنة حقير ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾(٦) لذا عبر القرآن الكريم عن هذا الفوز بأسلوب الحصر والقصر ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ فتعريف الطرفين المسند والمسند إليه ﴿ **ذلك** ﴾ ﴿ **الفوز** ﴾ والإتيان بضمير الفصل بينهما (هو) طريقان من طرق القصر .

---

(١) الأعراف الآيات : ١٥٦ - ١٥٨
(٢) النحل آية : ٩٧
(٣) التوبة الآيتان : ٧١ ، ٧٢
(٤) الأعراف آيتان : ٤٢ - ٤٣
(٥) الفتح آيتان : ٤ ، ٥
(٦) آل عمران الآية : ١٨٥

لا تركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل ... يا رب إن العيش عيش الآخرة
أزف الرحيل إلى ديار الآخرة ... فاجعل إلهى خير عمرى آخره
فلئن رحمت لأنت أكرم راحم ... وبحار جودك يا إلهى زاخرة
آنس مبيتى فى القبور ووحشتى ... وارحم عظامى حين تمسى ناخرة

* * *

أحكام تخشع لها القلوب

قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ

يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٢٠) * أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٢)

معانى المفردات

(**المقت**) أشد البغض ، (الروح) : الوحى ، (**يوم التلاق**) يوم القيامة وسمى بذلك لالتقاء الخالق بالمخلوق ، (**بارزون**) أى ظاهرون لا يسترهم جبل ولا أكمة ولا نحوهما . (**يوم الآزفة**) يوم القيامة وسميت بذلك لقربها ، يقال أزف السفر : أى قرب . (**الحناجر**) واحدها حنجرة أو حنجور كحلقوم لفظا ومعنى وهى لحمة بين الرأس والعنق (**كاظمين**) أى ممسكين أنفسهم على قلوبهم لئلا تخرج (**الحميم**) : القريب (**خائنة الأعين**) يراد بها النظر إلى ما لايحل ، (**ما تخفى الصدور**) أى ما تكتمه الضمائر .

المناسبة والمعنى الاجمالى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أحوال المشركين المجادلين فى آيات الله ، أردف ذلك بيان أنهم يوم القيامة ، يعترفون بذنوبهم ، وباستحقاقهم ما سيحل بهم من النكال والوبال ، ويسألون الرجوع إلى الدنيا ليتلافوا ما فرط منهم .

وبعد أن هددهم ، أعقب ذلك بما يدل على كمال قدرته وحكمته ، بإظهاره للآيات ، وإنزاله للأرزاق ، وأنه أرفع الموجودات ، لأنه مستغن عن كل ما سواه ، وكل ما سواه محتاج إليه ، وأنه ينزل الوحى على من يشاء من عباده ، لينذر بالعذاب يوم الحساب والجزاء ، ثم ذكر جل فى علاه أوصاف هائلة تصطك منها المسامع ، وتشيب من هولها الولدان ، لهذا اليوم المهيب ، وبعد أن بالغ سبحانه فى تخويف الكفار بعذاب الآخرة ، أردفه تخويفهم بعذاب الدنيا ، فطلب إليهم أن ينظروا إلى من قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، إذ كذبوا رسلهم حين جاءوهم بالبينات .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ، قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ، ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ، هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب ، فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون** ﴾ .

قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم ينادون يوم القيامة ، وهم فى غمرات النيران يتلظون ، وذلك عندما باشروا مر عذاب الله تعالى ما لاقبل لأحد به ، فمقتوا عند ذلك أنفسهم ، وأبغضوها غاية البغض ، بسبب ما أسلفوه من الأعمال السيئة ، التى كانت سبب دخولهم إلى النار ، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارا عاليا ، نادوهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم فى الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون ، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم فى هذه الحالة .

قال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون** ﴾ يقول لمقت الله أهل الضلالة ، حين عرض عليهم الإيمان فى الدنيا ، فتركوه وأبوا أن يقبلوه ، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة ، وهكذا قال الحسن البصرى ومجاهد والسدى وغيرهم . وقوله تعالى : ﴿ **قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين** ﴾ قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾[1] وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك وهو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية .

والمقصود أن الكفار يسألون الرجعة ، وهم وقوف بين يدى الله ، عز وجل فى عرصات القيامة ، كما قال عز وجل : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾[2] فلا يجابون ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال ، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة ، فلا يجابون قال الله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[3] فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسيسها ومقامعها وأغلالها ، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[4] ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾[5]

---

(١) البقرة آية : ٢٨
(٢) السجدة آية : ١٢
(٣) الأنعام الآيتان : ٢٧ ، ٢٨
(٤) فاطر الآية : ٣٧
(٥) المؤمنون الآيتان : ١٠٧ ، ١٠٨

وفى هذه الآية الكريمة تلطفوا فى السؤال ، وقدموا بين يدى كلامهم مقدمة وهى قولهم : ﴿ **ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين** ﴾ أى قدرتك عظيمة فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً ، ثم أمتنا ، ثم أحييتنا ، فأنت قادر على ما تشاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا ، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا (**فهل إلى خروج من سبيل**) أى فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا ، فإنك قادر على ذلك ، لنعمل غير الذى كنا نعمل ، فإن عدنا إلى ما كنا فيه ، فإنا ظالمون ، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا ، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه ، بل تمجه وتنفيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ﴾ أى أنتم هكذا تكونون . وإن رددتم إلى الدار الدنيا كما قال عز وجل : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[1] .

وقوله جل وعلا : ﴿ **فالحكم لله العلى الكبير** ﴾ أى هو الحاكم فى خلقه ، العادل الذى لا يجوز ، فيهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء ، لا إله إلا هو ، وقوله جل جلاله : (هو الذى يريكم آياته) أى يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه ، فى خلقه العلوى والسفلى ، من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها (وينزل لكم من السماء رزقا) وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ، ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه ، وطعومه ، وروائحه ، وأشكاله ، وألوانه ، وهو ماء واحد ، فبالقدرة العظيمة ، فاوت بين هذه الأشياء .

(وما يتذكر إلا من ينيب) كقوله تعالى :
﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[2] وكقوله تعالى : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾[3] فلا يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء ، ويستدل بها على عظمة خالقها ، إلا من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ **فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون** ﴾ . أى فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء ، وخالفوا المشركين فى مسلكهم ومذهبهم روى مسلم عن عبد الله بن الزبير قال : « كان رسول الله ﷺ يقول دبر كل صلاة لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لاحول ولا قوة إلا بالله لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون »[4] .

وقال ابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء قلب غافل لاهٍ »[5] .

قوله تعالى : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾[6] .

(١) الأنعام آية : ٢٨ (٢) ق آية : ٣٧ (٣) آل عمران آية : ٧
(٤) أخرجه مسلم جـ ١ ص ٤١٥ ، ص ٤١٦ برقم ٥٩٤/١٣٩ كتاب المساجد
(٥) أخرجه الترمذى جـ ٥ ص ١٧٩ ، ١٨٠ برقم ٣٥٤٥ أبواب الدعوات
(٦) غافر : آية : ١٦ ، ١٧

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه ، وارتفاع عرشه العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها كما قال تعالى : ﴿ من الله ذى المعارج تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾[١] .

فمنزلة الله سبحانه وتعالى فوق كل منزلة ، ومكانته سبحانه وتعالى فوق كل مكانة ، فهو الواحد الأحد ، الذى ليس له شبيه من خلقه ، ولا نِدَّ له ، ولا مثيل له ، ولا كفء له ، سبحانه وتعالى ، فمنزلته وعظمته وجلاله ، لا يدانيها أحد من خلقه جل وعلا ، بل جميع الخلق عبيده ، وفى قبضته ، وقهره ، وتحت سلطانه ، لا خروج لأحد من قهره وسلطانه أبداً ، ولا علم لأحد من خلقه إلا بما شاء ، ولا رحمة إلا ما يرسلها ، ولا يمسك لرحمته عن من يشاء ، بل هو المتصرف وحده سبحانه وتعالى ، خضعت له الرقاب وتطأطأت له الرؤ وس ، وسجدت لهيبته الجباه ، واطمأنت بذكره القلوب ، وسبحت بحمده الأفواه : (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)[٢] .

وهو سبحانه وتعالى فوق خلقه ، مستوٍ على عرشه ، إليه يصعد الكلم الطيب ، وتعرج الملائكة والروح إليه ، ويتنزل الأمر من عنده ، ولقد مدح الله سبحانه وتعالى نفسه فى سبع آيات من كتابه ، باستوائه على العرش ، والعرش كما قال السلف الصالح : مخلوق حسى ، وأنه أعظم من السماوات والأرض ، كما قال ﷺ : « والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل »[٣] . وأن هذا العرش الذى وصفه الله بأنه عرش كريم ، كما قال تعالى : ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾[٥] وقال سبحانه : ﴿ وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ﴾[٥] فعلى جر « المجيد » يكون صفة للعرش وعلى الرفع يكون « المجيد » اسم الله تبارك وتعالى .

والله سبحانه فوق عرشه سبحانه وتعالى على الوجه الذى يليق به ، دون تشبيه له بخلقه ، بل هو الذى ليس كمثله شىء سبحانه وتعالى ، فعلوه وارتفاعه واستواؤه ، كل ذلك ثابت له على الوجه الذى يليق بجلاله ، وكماله سبحانه وتعالى ، واعلم أيها المؤمن أنه سبحانه مع علوه هذا سبحانه وتعالى ، فإنه معك دائماً بعلمه ، فلا يغيب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، بل ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، فهو سبحانه مع كل أحد بعلمه سبحانه ، وأما هو بذاته فوق عرشه وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾[٧] وإذ يقول سبحانه : ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾[٨] .

---

(١) المعارج الآيتان : ٣ ، ٤
(٢) الجاثية الآيتان : ٣٦ ، ٣٧
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٢١ ط . النهضة الحديثة
(٤) المؤمنون آية : ١١٦
(٥) التوبة آية : ١٢٩
(٦) البروج الآيتان : ١٤ ، ١٥
(٧) المؤمنون آية : ١٧
(٨) يونس آية : ٦١

وقوله تعالى : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ كقوله جلت عظمته : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾[١] وكقوله تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾[٢] .

ولهذا قال عز وجل (لينذر يوم التلاق) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يوم التلاق ، اسم من أسماء يوم القيامة ، حذر الله منه عباده ، وسمى بذلك ، لالتقاء الخالق بالمخلوق ، قال ﷺ فى الحديث الصحيح « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يجد إلا ماقدم وينظر أشأم منه فلا يجد إلا ماقدم ، وينظر قدامه فلا يجد إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة »[٣] .

وقوله جل جلاله : ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ﴾ أى ظاهرون بادون كلهم ، لا شىء يكنهم ، ولا يظلهم ، ولا يسترهم ، كما قال جل فى علاه : ﴿ فإذا برق البصر ، وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ، يُنبؤُ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾[٤] وكقوله سبحانه : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾[٥] وكقوله سبحانه : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾[٦] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴾ .

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول ، أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ »[٧] والمقصود إظهار إنفراده تعالى بالملك ، عند انقطاع دعوى المدعين ، وانتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملكه ، وكل جبار ومتكبر وملكه ، وانقطعت نسبتهم ودعاويهم ، وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما أنه تعالى يطوى السموات والأرض بيده ثم يقول : أنا الملك أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ »[٨] وفى حديث الصور أنه عز وجل إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول : لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه قائلا : (لله الواحد القهار)[٩] أى الذى هو وحده قد قهر كل شىء وغلبه .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾[١٠] .

---

(١) النحل آية : ٢ (٢) الشعراء الآيات : ١٩٢ - ١٩٥
(٣) أخرجه مسلم جـ ٢ ص ٧٠٣ ، ٧٠٤ برقم ١٠١٦/٦٧ كتاب الزكاة
(٤) القيامة الآيات : ٧ - ١٣ (٥) طه الآيات : ١٠٥ - ١٠٨
(٦) الحاقة آية : ١٨ (٧) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢١٤٨ برقم ٢٧٨٧/٢٣ البخارى جـ ٩ ص ١٤٢ كتاب التوحيد
(٨) أخرجه مسلم جـ٤ ص٢١٤٨ برقم ٢٧٨٨/٢٤
(٩) تفسير ابن كثير حديث الصور ص٢٧٦ الى ص ٢٨٢ ط . الشعب (١٠) الأنعام آية : ٧٣

وقوله سبحانه فى فاتحة الكتاب : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ فسبحان الملك الحق المبين ، صاحب العزة والملكوت .

وقوله جلت عظمته : ﴿ **اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب** ﴾ يخبر تعالى عن عدله فى حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا شر ، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها ، وبالسيئة واحدة ، كقوله عز وجل : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[1] وثبت فى صحيح مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « **ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال فى آخر الحديث القدسى - ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** »[2] .

وقوله عز وجل : ﴿ **إن الله سريع الحساب** ﴾ أى يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة ، كما قال سبحانه : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾[3] وقال جل جلاله : ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير ﴾ .

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال سبحانه : ﴿ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ﴾[5] وكقوله سبحانه : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾[6] . أى وأنذر أيها الرسول مشركى قومك يوم القيامة ، ليقلعوا عن قبيح أعمالهم ، وذميم معتقداتهم ، التى يستحقون عليها شديد العذاب ، ذلك اليوم الذى يعظم فيه الخوف ، حتى ليخيل أن القلوب قد شخصت من الصدور ، وتعلقت بالحلوق ، فيرومون ردها إلى مواضعها من صدورهم ، فلا هى ترجع ، ولا هى تخرج من أبدانهم فيموتوا . ﴿ **إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين** ﴾ قال قتادة : وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ، ولا تعود إلى أماكنها .

ومعنى كاظمين أى ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾[7] . ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾[8] .

وقوله سبحانه : ﴿ **ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع** ﴾ أى ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب، منهم ينفعهم ، ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . كقوله

---

(١) الأنبياء آية : ٤٧

(٢) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ برقم ٢٥٧٧/٥٥ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم

(٣) لقمان آية : ٢٨

(٤) القمر آية : ٥٠

(٥) النجم الآيتان : ٥٧ ، ٥٨

(٦) القمر آية : ١

(٧) النبأ آية : ٣٨

(٨) طه آية : ١٠٨

جل وعلا : ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده ، وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم . وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ، ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم ، فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ، ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ، وأنه عز وجل يعلم العين الخائنة ، وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غض بصره ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غض ، وقد اطلع الله على قلبه أنه ودَّ أن لو اطلع على فرجها ، وكذا قال مجاهد وقتادة : يعلم الله تعالى من العين فى نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ **وما تخفى الصدور** ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها ، هل تزنى بها أم لا ؟ وقال السدى ﴿ وما تخفى الصدور ﴾ أى من الوسوسة .

وقوله عز وجل : ﴿ **والله يقضى بالحق** ﴾ أى يحكم بالعدل ، وقال ابن عباس قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة ، والسيئة السيئة ، وهذا الذى فسره ابن عباس كقوله تبارك وتعالى : ﴿ **ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾[2] .

وقوله جل وعلا : ﴿ **والذين يدعون من دونه** ﴾ أى من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿ **لا يقضون بشىء** ﴾ أى لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشىء . ﴿ ان الله هو السميع البصير ﴾ أى سميع لأقوال خلقه ، بصير بهم فيهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك .

قوله تعالى : ﴿ **أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب** ﴾ .

حذر الله سبحانه هؤلاء المشركين ، مما حل بمن قبلهم من الأمم ، التى كانت أقوى منهم وأعظم آثارا ، كعاد وثمود ، فقال واعظاً ومذكراً : أولم يسر هؤلاء المشركون فى البلاد ، فيروا عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم ، ممن سلكوا سبيلهم فى الكفر وتكذيب الرسل ، وقد كانوا أشد منهم بطشاً ، وأبقى فى الأرض آثارا ، فلم تنفعهم شدة قواهم ، ولا عظيم آثارهم إذ جاء أمر الله ، فأخذوا بما أجرموا من المعاصى ، واكتسبوا من الآثام فأبيدوا جميعا ، وصارت مساكنهم خاوية بما ظلموا ، وما كان لهم من عذاب الله من حافظ يدفعه عنهم ؟ ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم**

---

(١) الشورى الآيات : ٤٤ ـ ٤٦ (٢) النجم آية : ٣١

بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا ، أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ، ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1] .

وكقوله سبحانه : ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾[2] .

قصص موسى عليه السلام مع فرعون

قال تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

(١) التوبة الآيتان ٦٩ ـ ٧٠
(٢) السجدة آية : ٢٦

وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾
يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ
يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ
بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ
سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ
جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ
إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ
وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ
إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ
فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ * وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي
لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا
تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ
أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾
فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا
وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ
فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ
﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ
لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ
رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

معانى المفردات

﴿ السلطان ﴾ : الحجة والبرهان ، ﴿ فرعون ﴾ : ملك القبط بالديار المصرية ، ﴿ وهامان ﴾ : وزيره ، ﴿ وقارون ﴾ : كان أكثر الناس فى زمانه تجارة ومالاً ، ﴿عذت ﴾ : التجأت وتحصنت ، ﴿ متكبر ﴾ أى مستكبر عن اتباع الحق . ﴿ البينات ﴾ : هى الشواهد الدالة على صدقه ، ﴿ المسرف ﴾ : المقيم على المعاصى المستكثر منها ، ﴿ الكذاب ﴾ : المفترى ، ﴿ ظاهرين ﴾ : أى غالبين عالين على بنى إسرائيل ، ما أريكم إلا ما أرى : أى ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب . ﴿ الأحزاب ﴾ أى الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذبوهم ، ﴿ والدأب) : العادة ، ﴿ يوم التناد ﴾ يوم القيامة ، سمى بذلك لأن الناس ينادى فيه بعضهم بعضا للاستغاثة . ﴿ عاصم ﴾ أى مانع ، ﴿ مرتاب ﴾ أى شاك فى دينه ، ﴿ يوسف ﴾ هو النبى يوسف بن يعقوب عليه السلام . ﴿ السلطان ﴾ الحجة ، ﴿ المقت ﴾ أشد الغضب ﴿ الصرح ﴾ القصر الشامخ المنيف ، ﴿ الأسباب ﴾ واحدها سبب ، وهو ما يتوصل به إلى شىء من حبل أو سلم وطريق ، والمراد هنا الأبواب . ﴿ التباب ﴾ الخسران والهلاك . ﴿ الرشاد ﴾ ضد الغى والضلال ، ﴿ متاع ﴾ أى يستمتع به أياما قليلة ثم ينقطع ويزول ، ﴿ دار القرار ﴾ أى دار البقاء والدوام ، ﴿ إلى النجاة ﴾ أى إلى الإيمان بالله الذى ثمرته وعاقبته النجاة ، ﴿ إلى النار ﴾ أى إلى اتخاذ الأنداد والأوثان الذى عاقبته النار ﴿ ما ليس به علم ﴾ أى مالا وجود له ولم يقم عليه دليل ولا برهان . ﴿ لا جرم ﴾ أى حقاً ، ﴿ دعوة ﴾ أى استجابة دعوة لمن يدعو إليه ، ﴿ مردنا ﴾ أى مرجعنا ﴿ وأن المسرفين ﴾ أى الذين يغلب شرهم على خيرهم ، ﴿ فستذكرون ﴾ أى فسيذكر بعضكم بعضا حين معاينة العذاب ﴿ وقاه ﴾ حفظه ، ﴿ يعرضون عليها ﴾ أى تعرض أرواحهم عليها .

﴿ المحاجة ﴾ المجادلة والخصام بين اثنين فأكثر ، ﴿ الضعفاء ﴾ الأتباع والمرءوسون والمستكبرون : السادة أولو الرأى فيهم ، ﴿ التبع ﴾ واحدهم تابع ، ﴿ مغنون ﴾ أى دافعون ، ﴿ نصيبا ﴾ أى قسطا وجزءا . ﴿ حكم ﴾ قضى ، ﴿ الخزنة ﴾ واحدهم خازن وهم القوّام بتعذيب أهل النار ، ﴿ ضلال ﴾ أى فى ضياع وخسار .

المناسبة والمعنى الإجمالى

لما سلى رسوله بذكر عاقبة الكفار ، الذين كذبوا بالأنبياء قبله بمشاهدة آثارهم ، سلاه أيضاً بذكر قصص موسى مع فرعون ، مع ما أوتى من الحجج الباهرة ، كذبه فرعون وقومه وأمروا بقتل أبناء بنى إسرائيل ، وأمر فرعون بقتل موسى ، خوفا أن يبدل دينهم ، أو يعيث فى الأرض فساداً ، فتعوذ موسى بربه ورب بنى إسرائيل ، من كل جبار متكبر لا يؤمن بالجزاء والحساب ، ثم أردف ذلك بيان أن الله قيّض له من يدافع عنه من آل فرعون أنفسهم ، ويذب عنه على أكمل الوجوه وأحسنها ، ويبالغ فى تسكين تلك الفتنة ، ويجتهد فى إزالة ذلك الشر، وبعد أن سمع ذلك المؤمن ، رأى فرعون فى موسى وتصميمه على قتله ، وإقامة البراهين على صحة رأيه ، وأنه لا سبيل إلى العدول عن ذلك ـ أعاد النصح مرة أخرى

لقومه ، فذكرهم بأس الله وسنته فى المكذبين للرسل ، ثم أعقب ذلك بتذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف من قبل من تكذيبهم برسالته ورسالة من بعده ، فأحل الله بهم من البأس ما صاروا به مثلا فى الآخرين ، وكأن لسان حاله يقول : هأنذا قد أسمعت ، ونصحت فما قصرت ، والأمر إليكم فيما تفعلون ثم بين سبحانه أن فرعون ، بلغ من عتوه وتمرده وافترائه فى تكذيب موسى ، أن أمر وزيره هامان ، أن يبنى له قصراً شامخاً من الآجر ، ليصعد به إلى السماء ، ليطلع إلى إله موسى ومقصده من ذلك الاستهزاء به ، ونفى رسالته ثم أرشد سبحانه إلى أن هذا وأمثاله صنيع المكذبين الضالين ، وأن عاقبة تكذيبهم الهلاك والخسران ، ثم أعاد الرجل المؤمن إليهم النصح مرة أخرى ، فدعاهم أولا إلى قبول هذا الدين ، الذى هو سبيل الخير والرشاد ، ثم بين لهم حقارة الدنيا وعظيم شأن الآخرة ، وأنها هى الدار التى لا زوال لها ، ثم ذكر أنه يدعوهم إلى الايمان بالله الذى يوجب النجاة والدخول فى الجنات ، وهم يدعونه إلى الكفر الذى يوجب الدخول فى النار ، ثم أردف هذا بيان أن الأصنام لا تستجاب لها دعوة ، فلا فائدة فى عبادتها ، ومرد الناس جميعا إلى الله العليم بكل الأشياء ، وهو الذى يجازى كل نفس بما كسبت ، وأن المسرفين فى المعاصى هم أصحاب النار ، ثم ختم نصحه بتحذيرهم من بأس الله ، وتفويض أمره إلى الله ، الذى يدفع عنه كل سوء يراد به ، ثم أخبر سبحانه بأنه استجاب دعاءه ، فوقاه السوء الذى دبروه له ، وحفظه مما أرادوه من اغتياله ، وأحاط آل فرعون سوء العذاب ، فغرقوا فى البحر ، ويوم القيامة يكون لهم أشد العذاب فى النار .

التفسير

قوله تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ، وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو يظهر فى الأرض الفساد ، وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ (غافر ٢٣ : ٢٧)

قال العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآيات .

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه ، ومبشرا له بأن العاقبة والنصرة له فى الدنيا والآخرة ، كما جرى لموسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات **﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴾** والسلطان هو الحجة والبرهان **﴿ إلى فرعون ﴾** وهو ملك القبط بالديار المصرية **﴿ وهامان ﴾** وهو وزيره فى مملكته ، **﴿ وقارون ﴾** وكان أكثر الناس فى زمانه مالاً وتجارة **﴿ فقالوا ساحر كذاب ﴾** أى كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً ، مموها كذاباً فى أن الله أرسله وهذه كقوله تعالى : **﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾**[1] . وقوله تعالى : **﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ﴾** أى بالبرهان القاطع الدال على أن الله عز وجل أرسله إليهم **﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾** وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل ، أما الأول فكان لأجل الاحتراز من

---

(١) الذاريات الآيتان : ٥٢ - ٥٣

وجود موسى ، أو لإذلال هذا الشعب ، وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ، وأما الأمر الثانى ، فللعلة الثانية ، ولإهانة هذا الشعب ، ولكى يتشاءموا بموسى عليه السلام ، ولهذا : ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾[1] قال قتادة : هذا أمر بعد أمر ، قال الله عز وجل ﴿ **وما كيد الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ أى وما مكرهم وقصدهم ، الذى هو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا ينصروا عليهم ، إلا ذاهب وهالك فى ضلال .

﴿ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ﴾ وهذا عزم من فرعون لعنه الله على قتل موسى عليه الصلاة والسلام ، أى قال لقومه : دعونى حتى أقتل لكم هذا ﴿ وليدع ربه ﴾ أى لا أبالى منه ، وهذا فى غاية الجحد والتجهرم والعناد وقوله قبحه الله : ﴿ إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ يعنى موسى ، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ، ويغير رسومهم وعاداتهم ، وهذا كما فى المثل : صار فرعون مذكرا ، يعنى واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام . وقوله تعالى ﴿ **وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ أى لما بلغه قول فرعون ﴿ ذرونى أقتل موسى ﴾ قال موسى عليه السلام : استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله ، ولهذا قال : ﴿ إنى عذت بربى وربكم ﴾ أيها المخاطبون ﴿ من كل متكبر ﴾ أى عن الحق مجرم ﴿ لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال : « اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندرأ بك فى نحورهم »[2] .

قوله تعالى :

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذى يعدكم أن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ . (غافر ٢٨ : ٢٩)

المشهور أن هذا الرجل ، كان قبطياً من آل فرعون ، قال السدى : كان ابن عم فرعون ، وقال ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل ، وامرأة فرعون ، والذى قال : (ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلونك)[1] رواه ابن أبى حاتم .

وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : (ذرونى أقتل موسى) فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل ، وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ، كما ثبت بذلك فى الصحيح . ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهى قوله ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ﴾ اللهم إلا ما رواه البخارى فى صحيحه عن عروة بن الزبير رضى الله تعالى عنهما قال : قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أخبرنى بأشد شىء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبوبكر الصديق فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبى ﷺ ثم قال : (أتقتلون رجلا أن

---

(١) الأعراف آية : ١٢٩ (٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط جـ ٩ ص ٨٤

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٨٤ ط النهضة الحديثة

يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)[١] وقوله تعالى ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أى كيف تقتلون رجلا لكونه يقول : ربى الله ، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق ؟ ثم تنزل معهم فى المخاطبة فقال : (وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذى يعدكم) يعنى إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به ، فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه ، فلا تؤذوه فإن يك كاذبا ، فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقا وقد آذيتموه ، يصيبكم بعض الذى يعدكم ، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا فينبغى على هذا أن لا تتعرضوا له ، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه . وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة فى قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون . وجاءهم رسول كريم . أن أدوا إلىّ عباد الله إنى لكم رسول أمين . وأن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين ، وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون ، وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون ﴾[٢] .

وقوله عز وجل : ﴿ ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾ أى لو كان هذا الذى يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذبا ، كما تزعمون لكان أمره بيناً ، يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله ، فكانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً ، ولو كان من المسرفين الكذابين ، لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله ، ثم قال المؤمن محذرا قومه زوال نعمة الله عنهم ، وحلول نقمة الله بهم : ﴿ ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ﴾ أى قد أنعم الله عليكم بهذا الملك ، والظهور فى الأرض ، بالكلمة النافذة ، والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة ، بشكر الله تعالى ، وتصديق رسوله ﷺ ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ أى لا تغنى عنكم هذه الجنود ، وهذه العساكر ، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله ، إن أردنا بسوء . (قال فرعون) لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح ، البار الراشد ، الذى كان أحق بالملك من فرعون ، (ما أريكم إلا ما أرى) أى ما أقول لكم وأشير عليكم ، إلا ما أراه لنفسى ، وقد كذب فرعون ـ لعنه الله ـ فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام ، فيما جاء به من الرسالة ، كما قال تعالى : ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾[٤] فقوله ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ كذب فيه وافترى وخان الله ورسوله ورعيته ، فغشهم وما نصحهم ، وكذا قوله ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ أى وما أدعوكم إلا الى طريق الحق والصدق والرشد ، وقد كذب أيضا فى ذلك ، وان كان قومه أطاعوه واتبعوه ، قال تبارك وتعالى ﴿ فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد)[٥] وقال جلت عظمته ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾[٦] وفى الحديث الصحيح : « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته ، إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام »[٧] والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

---

(١) أخرجه البخارى فى جـ ٦ ص ١٥٩ تفسير سورة المؤمنون
(٢) الدخان الآيات : ١٧ ـ ٢١
(٣) الأسراء آية : ١٠٢
(٤) النمل آية : ١٤
(٥) هود آية : ٩٧
(٦) طه آية : ٧٩
(٧) أخرجه الإمام مسلم جـ ٣ ص ١٤٦٠ جـ ١ ص ١٢٦ برقم ١٤٢/٢١ كتاب الإيمان

قوله تعالى :

﴿ وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ، وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ .

هذا إخبار من الله عز وجل عن الرجل الصالح مؤمن آل فرعون ، أنه حذر قومه بأس الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ أى الذين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر ، كقوم نوح وعاد وثمود ﴿ والذين من بعدهم ﴾ من الأمم المكذبة كيف حل بهم بأس الله ، وما رده عنهم راد ، ولا صده عنهم صاد ﴿ وما الله يريد ظلما للعباد ﴾ أى إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ، فأنفذ فيهم قدره ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد ، وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[1] .

ثم قال لهم : ﴿ وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ﴾ بعد أن خوفهم العذاب الدنيوى ، خوفهم العذاب الآخروى ، فقال : ﴿ وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ﴾ يعنى يوم القيامة ، وسمى بذلك ، قال بعضهم : لما جاء فى حديث الصور إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر وماجت وارتجت ، فنظر الناس إلى ذلك ، ذهبوا هاربين ، ينادى بعضهم بعضا ، وقال آخرون : ينادى كل قوم بأعمالهم ، ينادى أهل الجنة ، أهل الجنة ، وأهل النار ، أهل النار ، وقيل سمى بذلك : لمناداة أهل الجنة ، أهل النار : ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم ﴾[2] ومناداة أهل النار ، أهل الجنة : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾[3] ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار ، كما هو مذكور فى سورة الأعراف ، واختار البغوى وغيره : أنه سمى بذلك لمجموع ذلك وهو قول حسن جيد والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ أى ذاهبين هاربين ﴿ مالكم من الله من عاصم ﴾ أى مالكم من مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ ومن يضلل الله فماله من هاد ﴾ أى من أضله الله فلا هادى له غيره .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ يعنى أهل مصر ، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام ، كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولا يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة ، إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى ، ولهذا

---

(١) هود الآيات : ١٠٠ ـ ١٠٢ (٢) الأعراف آية : ٤٤ (٣) الأعراف آية : ٥٠

قال تعالى : ﴿ **فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا** ﴾ أى يئستم فقلتم طامعين ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ أى كحالكم هذا ، يكون حال من يضله الله لإسرافه فى أفعاله وارتياب قلبه ، ثم قال عز وجل : ﴿ **الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم** ﴾ أى الذين يدفعون الحق بالباطل ، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى ، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا** ﴾ أى والمؤمنون أيضا ، يبغضون من تكون هذه صفته ، فإن من كانت هذه صفته ، يطبع الله على قلبه ، فلا يعرف بعد ذلك معروفا ، ولا ينكر منكرا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر** ﴾ أى على اتباع الحق ﴿ جبار ﴾ روى ابن أبى حاتم عن عكرمة والشعبى أنهما قالا : لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين[١] ، وقال قتادة : آية الجبابرة القتل بغير حق والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾ .

يقول تعالى : مخبرا عن فرعون وعتوه وتمرده وافترائه فى تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام : أنه أمر وزيره هامان ، أن يبنى له صرحا ، وهو القصر العالى المنيف الشاهق ، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوى ، كما قال تعالى ﴿ فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا ﴾[٢] . . . ﴿ لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات ﴾ قال سعيد بن جبير : اى طرق السموات ﴿ فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ﴾ وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام فى أن الله عز وجل أرسله إليه ، وقد قال هذا تمويها وتلبيسا على قومه ، توصلا بذلك إلى بقائهم على الكفر ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[٣] .

ثم بين سبحانه السبب الذى دعاه إلى ما صنع ، فقال جل فى علاه :

﴿ **وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل** ﴾ وهكذا زين الشيطان لفرعون هذا العمل السىء الماكر ، فانهمك فى غيه ، واستمر فى طغيانه ، وصد عن سبيل الرشاد بأمثال هذه التمويهات والشبهات ، وما كان ذلك إلا لسوء استعداده وقدسيته نفسه ، والسير بها قدما فى شهواتها دون أن يكون لها وازع يصدها عن غيها ، ويثوب بها إلى رشدها .

ثم ذكر عاقبة مكره وتدليسه ، وأنه ذاهب سدى ، وأن الله ناصر أولياءه ومهلك أعداءه ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى : ﴿ **وما كيد فرعون إلا فى تباب** ﴾ أى وما احتياله الذى يحتال به ، ليطلع على إله موسى إلا فى خسار وذهاب مال ، لأنها نفقة تذهب باطلا سدى دون أن يصل إلى شىء مما أراد من القضاء على دعوة موسى ، فالنصر فى العاقبة له « والعاقبة للمتقين »[٤] .

---

(١) تفسير ابن كثير ص١٣٣ ط الشعب
(٢) القصص آية : ٣٨
(٣) الزخرف آية : ٥٤
(٤) القصص آية : ٨٣ والأعراف آية : ١٢٨

قوله تعالى :

﴿ وقال الذي آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ .

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا ، ونسى الجبار الأعلى فقال لهم : ﴿ ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ لا كما كذب فرعون فى قوله : ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ .

ثم زهدهم فى الدنيا التى قد آثروها على الآخرة ، فصدوا عن التصديق برسول الله فقال : ﴿ ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ﴾ أى ياقوم ما هذا النعيم الذى يُعجَل لكم فى هذه الحياة الدنيا إلا قليل المدى ، تستمتعون به إلى أجل أنتم بالغوه ثم تموتون ، وإن الآخرة هى دار الاستقرار التى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا ظعن عنها إلى غيرها ، وفيها إما نعيم مقيم ، وإما عذاب أليم .

ثم بين كيف تحصل المجازاة فى الآخرة ، وأشار إلى أن جانب الرحمة فيها غالب على جانب العقاب فقال : ﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أى من عمل فى دار الدنيا معصية من المعاصى كائنة ما كانت ، فلا يعذب إلا بقدرها من غير مضاعفة للعقاب ، ومن عمل بطاعة الله وائتمر بأمره ، وانتهى عما نهى عنه ، ذكراً كان أو أنثى ، وهو مؤمن بربه ، مصدق بأنبيائه ورسله ، فأولئك يدخلون الجنة ويمتعون فيها بنعيمها بلا تقدير ولا موازنة للعمل بل يجازون أضعافا مضاعفة بلا انقضاء ولا نفاد .

ثم كرر ذلك المؤمن دعاءهم إلى الله ، وصرح بإيمانه ، ولم يسلك المسالك المتقدمة ، من إيهامه لهم أنه منهم ، وأنه إنما تصدى لتذكيرهم ، كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى ، كما يقول الرجل المحب لقومه تحذيرا لهم من الوقوع فيما يخاف عليهم من مواضع الهلكة فقال تعالى حاكيا عنه :

﴿ وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ، لاجرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

يقول لهم المؤمن : ما بالى أدعوكم إلى النجاة ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وتصديق رسوله ﷺ الذى بعثه ﴿ وتدعوننى إلى النار ؟ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ﴾ أى على جهل بلا دليل ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ أى هو فى عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه كما قال سبحانه : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ لا جرم أنما تدعوننى إليه ﴾ قال السدى وابن جريج معنى قوله ، ﴿ لا جرم ﴾ :

---

(١) الأنفال آية : ٣٨

أى حقا ، وقال ابن عباس : يقول بلى إن الذى تدعوننى إليه من الأصنام والأنداد ﴿ **ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة** ﴾ قال قتادة : يعنى الوثن لا ينفع ولا يضر ، وقال السدى : لا يجيب داعيه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾(١) .

وقوله : ﴿ **وأن مردنا إلى الله** ﴾ أى فى الدار الآخرة فيجازى كل بعمله ، ولهذا قال : ﴿ **وأن المسرفين هم أصحاب النار** ﴾ أى خالدين فيها بإسرافهم ، وهو شركهم بالله عز وجل ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم** ﴾ أى سوف تعلمون صدق ما أمرتكم ونهيتكم عنه ونصحتكم ووضحت لكم ، وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿ **وأفوض أمرى إلى الله** ﴾ أى وأتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأباعدكم ﴿ **إن الله بصير بالعباد** ﴾ أى هو بصير بهم تعالى وتقدس ، فيهدى من يستحق الهداية ، ويضل من يستحق الإضلال ، وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا** ﴾ أى فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام ، وأما فى الآخرة فبالجنة ﴿ **وحاق بآل فرعون سوء العذاب** ﴾ وهو الغرق فى اليم ، ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساء إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار ولهذا قال عز وجل : ﴿ **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ أى أشده ألما وأعظمه نكالا ، وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور ، وهى قوله تعالى : ﴿ **النار يعرضون عليها غدوا وعشيا** ﴾ .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت نعوذ بالله من عذاب القبر فسألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال ﷺ : « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة رضى الله عنها . فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر(٢) وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **غدواً وعشيا** ﴾ صباحا ومساء ما بقيت الدنيا ، يقال لهم يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخاً ونقمة وصغارا لهم ، وقال ابن زيد : هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة . وفى حديث الإسراء من رواية أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال فيه « ثم انطلق بى إلى خلق كثير من خلق الله ، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم مصفدون على سابلة آل فرعون ، وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾(٣) .

قال الإمام أحمد عن ابن عمر رضى الله عنهما قال . قال رسول الله ﷺ « أن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة »(٤) فاللهم نعوذ بك من عذاب جهنم

---

(١) الأحقاف الآيتان : ٥ ، ٦
(٢) أخرجه البخارى جـ ٢ ص ١٢٣ ط الشعب كتاب عذاب القبر وأحمد جـ ٦ ص ١٧٤
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤١ وما بعدها ط النهضة الحديثة
(٤) أخرجه أحمد جـ ٢ ص ٥١ ومسلم جـ ٤ ص ٢١٩٩ برقم ٢٨٦٦/٦٥

ونعوذ بك من عذاب القبر ، ونعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاءُ للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ، وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ، قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ .

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار فى النار وتخاصمهم ، وفرعون وقومه من جملتهم فيقول الضعفاء ، وهم الأتباع للذين استكبروا ، وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ **إنا كنا لكم تبعاً** ﴾ أى أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال ﴿ **فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار** ﴾ أى قسطا تتحملونه عنا ﴿ **قال الذين استكبروا إنا كل فيها** ﴾ أى لا نتحمل عنكم شيئا كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ **إن الله قد حكم بين العباد** ﴾ أى قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا ، كما قال تعالى : ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب** ﴾ لما علموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم ، بل قد قال سبحانه : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾[2] . سألوا الخزنة ، وهم كالسجانين لأهل النار ، أن يدعوا لهم الله تعالى فى أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحدا من العذاب ، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم « أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ » أى أو ماقامت عليكم الحجج فى الدنيا على ألسنة الرسل (قالوا بلى قالوا فادعوا) أى أنتم لأنفسكم ، فنحن لا ندعو لكم ، ولا نسمع منكم ، ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم براء ، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا ، لا يستجاب لكم ، ولا يخفف عنكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ أى إلا فى ذهاب لا يقبل ولا يستجاب .

أضواء كاشفة
على قصة النبى موسى

قال العلامة ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » : قصة موسى الكليم وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام .

قال تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا : ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا** ﴾[3] **وقد ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة ، متفرقة من القرآن ، وذكر قصته فى مواضع متعددة ، مبسوطة ، ومطولة وغير مطولة ، وقد تكلمنا على ذلك كله فى مواضعه من التفسير وسنورد مسيرته ههنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة ، وما ورد فى الآثار المنقولة من الإسرائيليات ، التى ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان . قال الله تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم طسّمّ تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ**

(١) الأعراف آية : ٣٨ (٢) المؤمنون آية : ١٠٨ (٣) مريم الآيات : ٥١ - ٥٣

موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[١] .

يذكر تعالى ملخص القصة ثم يبسطها بعد هذا فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق أى بالصدق . الذى كان سامعه شاهد للأمر معاين له ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ﴾ أى تجبر وعثا وطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى وجعل أهلها شيعا أى قسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع ، يستضعف طائفة منهم وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله ، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض ، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر ، يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ومع هذا ﴿ يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين[٢] وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام ، يكون هلاك ملك مصر على يديه وذلك والله أعلم حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها ، وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون ، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل ، حذرا من وجود هذا الغلام ، ولن يغنى حذر من قدر .

وذكر السدى عن ابن عباس وغيره من الصحابة : أن فرعون رأى فى منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس ، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بنى إسرائيل . فلما استيقظ هاله ذلك ، فجمع الكهنة والسحرة وسألهم عن ذلك ، فقالوا هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[٣] أى سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قادرا والذليل عزيزا ، وقد جرى هذا كله لبنى إسرائيل ، كما قال تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا . . ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى اسرائيل ﴾[٥] وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه إن شاء الله ، والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز ، أن لا يوجد موسى ، حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالى ، ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكراً ، إلا ذبحه ، أولئك الذباحون من ساعته .

---

(١) القصص الآيات : ١ - ٦
(٢) القصص آية : ٤
(٣) القصص الآيات : ٥ - ٦
(٤) الأعراف آية : ١٣٧
(٥) الشعراء الآيات : ٥٧ - ٥٩

هذا والقدر يقول : يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده ، وسلطة بأسه ، واتساع سلطانه ، قد حكم العظيم ، الذى لا يغالب ، ولا يمانع ، ولا يخالف أقداره ، أن هذا المولود الذى تحترز منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لايعد ولا يحصى ، لا يكون مرباه إلا فى دارك ، وعلى فراشك ، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك ، وأنت الذى تتبناه وتربيه وتتعداه ، ولا تطلع على سر معناه ، ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخراك على يديه ، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين ، وتكذيبك ما أوحى إليه ، لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السموات والأرض ، هو الفعال لما يريد ، وأنه هو القوى الشديد ذو البأس العظيم ، والحول والقوة ، والمشيئة التى لا مرد لها .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين ، أن القبط شكو إلى فرعون قلة بنى إسرائيل ، بسبب قتل ولدانهم الذكور ، وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار ، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو اسرائيل يعالجون ، فأمر فرعون بقتل الابناء عاما ، وأن يتركوا عاما ، فذكروا أن هارون عليه السلام ، ولد فى عام المسامحة عن قتل الأبناء ، وأن موسى عليه السلام ، ولد فى عام قتلهم ، فضاقت أمه به ذرعاً ، واحترزت من أول ما حبلت ، ولم يكن يظهر عليها مخاتيل الحبل ، فلما وضعت ، ألهمت أن اتخذت له تابوتا ، فربطته فى حبل البحر ، وأمسكت طرف الحبل عندها ، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به . قال الله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهمْ عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ﴾[1] هذا الوحى إلهام وإرشاد ، كما قال تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ـ الآية ﴾[2] وليس هو بوحى نبوة ، كما زعمه ابن حزم ، بل والصحيح الأول ، كما حكاه الحسن الأشعرى من أهل السنة والجماعة .

والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذى ذكرناه ، وألقى فى خلدها وروعها ألا تخافى ولا تحزنى ، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك ، وإن الله سيجعله نبيا مرسلا ، يعلى كلمته فى الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ما أمرت به ، فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها ، فذهب مع النيل فمر على دار فرعون (فالتقطه آل فرعون)[3] قال الله تعالى : ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾[4] قال بعضهم : هذه لام العاقبة ، وهو ظاهر إن كان متعلقا بقوله فالتقطه ، وأما إن جعل متعلقا بمضمون الكلام ، وهو أن آل فرعون قبضوا لا لتقاطه ، ليكون لهم عدوا وحزنا ، صارت اللام معللة كغيرها ، والله أعلم ويقوى هذا التقدير الثانى قوله : ﴿ إن فرعون وهامان ﴾[5] وهو الوزير السوء ، ﴿ وجنودهما ﴾[6] المتابعين لهما ، ﴿ كانوا خاطئين ﴾[7] أى كانوا على خلاف الصواب ، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة .

---

(١) القصص الآيات : ٧ ـ ١١
(٢) النحل الآيتان : ٦٨ ـ ٦٩
(٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) القصص آية : ٨

وذكر المفسرون أن الجوارى التقطنه من البحر فى تابوت مغلق عليه ، فلم يتجاسرن على فتحه ، حتى وضعته بين يدى امرأة فرعون ـ آسيه بنت مزاحم ـ وسيأتى مدحها والثناء عليها فى قصة مريم بنت عمران ، وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله ﷺ فى الجنة .

فلما فتحت الباب ، وكشفت الحجاب ، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية ، والجلالة الموسوية ، فلما رأته ووقع نظرها عليه ، أحبته حبا شديدا .

فلما جاء فرعون قال ما هذا وأمر بذبحه ، فاستوهبته منه ودفعت عنه ﴿ وقالت قرة عين لى ولك ﴾[١] فقال لها فرعون أمالك فنعم ، وأما لى فلا ، أى لا حاجة لى به . « والبلاء موكل بالمنطق » وقولها ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾[٢] وقد أنا لها الله ما رجت من النفع ، أما فى الدنيا فهداها الله به ، وأما فى الآخرة ، فأسكنها جنته بسببه ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾[٣] وذلك أنهما تبنياه ، لأنه لم يكن يولد لهما ولد . قال الله تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾[٤] أى لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن قيضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ، وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[٥] قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ﴾ أى من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿ إن كادت لتبدى به ﴾ أى لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ أى صبرناها وثبتناها ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ . ﴿ وقالت لأخته ﴾ وهى ابنتها الكبيرة ﴿ قصيه ﴾ أى اتبعى أثره ، واطلبى له خبره ، ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ قال مجاهد عن بعد ، وقال قتادة جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون ، أرادوا أن يغذوه برضاعة ، فلم يقبل ثديا ولا أخذ طعاما ، فحاروا فى أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن ، فلم يفعل كما قال تعالى : ﴿ **وحرمنا عليه المراضع من قبل** ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق ، لعل يجدون من يوافق رضاعته ، فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه ، إذ بصرت به أخته ، فلم تظهر أنها تعرفه ، بل قالت : ﴿ **هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له نصحون** ﴾ قال ابن عباس : لما قالت ذلك ، قالوا لها ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ، فقالت رغبة فى صهر الملك ورجاء منفعته ، فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم ، فأخذته أمه ، فلما أرضعته التقم ثديها ، وأخذ يمتصه ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، وذهب البشير إلى آسية ، يعلمها بذلك ، فاسدعتها إلى منزلها ، وعرضت عليها أن تكون عندها ، وأن تحسن إليها فأبت عليها ، وقالت إن لى بعلا وأولادا ، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معى ، فأرسلته معها ، ورتبت لها رواتب ، وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات ، فرجعت تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها ، قال الله تعالى : ﴿ **فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق** ﴾ أى كما وعدناها برده ، ورسالته ، فهذا رده ، وهو دليل على صدق البشارة

(١ ، ٢) القصص آية : ٩
(٣ ، ٤) القصص آية : ٩
(٥) القصص الآيات : ١٠ - ١٣

برسالته ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلمه ، فقال له فيما قال له : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقيه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ﴾[١] قال قتادة وغير واحد من السلف أى تطعم وترفه وتغذى بأطيب المآكل ، وتلبس أحسن الملابس ، بمرأى منى ، وذلك كله بحفظى وكلائتى لك فيما صنعت بك لك ، وقدرته من الأمور التى لا يقدر عليها غيرى ﴿ إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن . وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ﴾[٢] .

﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾[٣] لما ذكر سبحانه وتعالى أنه أنعم على أمه برده لها ، وإحسانه بذلك ، وامتنانه عليها ، شرع فى ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، وهو احتكام الخلق والخلق ، وهو سن الأربعين فى قول الأكثرين ، آتاه الله حكما وعلما ، وهو النبوة والرسالة ، التى كان بشر بها أمه حين قال : ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾[٤] ثم شرع فى ذكر سبب خروجه من بلاد مصر ، وذهابه إلى أرض مدين ، وإقامته هنالك ، حتى كمل الأجل ، وانقضى الأمد ، وكان ما كان من كلام الله وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتى .

قال تعالى : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾[٥] قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمه وقتادة والسدى : وذلك نصف النهار ، وعن ابن عباس بين العشائيه ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾[٦] أى يتضاربان ويتهاوشان ﴿ هذا من شيعته ﴾[٧] أى إسرائيل ﴿ وهذا من عدوه ﴾[٨] أى قبطى ، قاله ابن عباس وقتادة والسدى ﴿ فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام ، كانت له بديار مصر صولة ، بسبب نسبته إلى تبنى فرعون له وتربيته فى بيته ، وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه . وهم أخواله أى من الرضاعة ، فلما استغاث ذلك الإسرائيلى بموسى عليه السلام على ذلك القبطى ، أقبل إليه موسى (فوكزه) قال مجاهد : أى طعنه بجُمع كفه ، وقال قتادة : بعصا كانت معه (فقضى عليه) أى فمات منها ، وقد كان ذلك القبطى كافرا مشركا بالله العظيم ، ولم يرد موسى قتله بالكلية ، وانما أراد زجره وردعه ، ومع هذا (قال) موسى (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) قال رب إنى ظلمت نفس فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت على) أى من العز والجاه ، (فلن أكون ظهيرا للمجرمين . فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين . فلما أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ

---

(١) طه الآيتان : ٣٧ - ٣٩
(٢) طه آية : ٤٠
(٣) القصص الآيات : ١٤ - ١٧
(٤) القصص آية : ٧
(٥ - ٨) القصص آية : ١٥

يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين)[١] . يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفا ، أى من فرعون وملائه أن يعلموا أن هذا القتيل الذى رفع إليه أمره ، إنما قتله موسى فى نصرة رجل من بنى إسرائيل ، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ، ويترتب على ذلك أمر عظيم ، فصار يسير فى المدينة فى صبيحة ذلك اليوم ﴿ خائفا يترقب ﴾ أى يلتفت ، فبينما هو كذلك ، إذ بذلك الرجل الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، أى يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله ، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ، ومخاصمته ، قال له إنك لغوى مبين ، ثم أراد أن يبطش بذلك القبطى الذى هو عدو لموسى وللإسرائيلى ، فيردعه عنه ، ويخلصه منه ، فلما عزم على ذلك ، وأقبل على القبطى ﴿ **قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين** ﴾ قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام الإسرائيلى الذى اطلع على ما كان منع موسى بالأمس ، وكأنه لما رأى موسى مقبلا إلى القبطى ، اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله إنك لغوى مبين ، فقال ما قال لموسى ، وأظهر الأمر الذى وقع بالأمس ، فذهب القبطى فاستعدى موسى إلى فرعون ، وهذا الذى لم يذكر كثير من الناس سواه ، ويحتمل أن قاتل هذا هو القبطى ، وأنه لما رآه مقبلا إليه خافه ، ورأى من سجيته انتصارا جيدا للإسرائيلى ، فقال ما قال ، من باب الظن والفراسة ، إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس ، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلى حين استصرخه عليه ما دله على هذا والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس ، فأرسل فى طلبه ، وسبقهم رجل ناصح عن طريق أقرب ﴿ **وجاء من أقصى المدينة** ﴾ ساعيا إليه مشفقاً عليه فقال ﴿ **ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج** ﴾ أى من هذه البلدة ، ﴿ **إنى لك من الناصحين** ﴾ أى فيما أقوله لك . قال الله تعالى ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ أى فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه ، لا يهتدى إلى طريق ولا يعرفه قائلا : ﴿ رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تزودان ، قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ﴾[٢] . يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفا يترقب أى يتلفت ، خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون ، وهو لا يدرى أين يتوجه ، ولا إلى أين يذهب ، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها (ولما توجه تلقاء مدين) أى اتجه له طريق يذهب فيه (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) أى عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود . وكذا وقع . أوصلته إلى مقصود وأى مقصود (ولما ورد ماء مدين) وكانت بئراً يستقون منها . ومدين هى المدينة ، التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب ، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام فى أحد قولى العلماء ﴿ لما ورد ماء مدين﴾ **المذكور** ﴿ وجد عليها أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين **تزودان** ﴾ أى تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس . (قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) أى لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء ، لضعفنا وسبب مباشرتنا هذه الرعية ، ضعف أبينا وكبره قال تعالى : ﴿ **فسقى لهما** ﴾ .

---

(١) القصص الآيات : ١٧ - ٢١ (٢) القصص الآيات : ٢١ - ٢٤

ذكر المفسرون وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتجىء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما فى فضل أغنام الناس ، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى ، فرفع تلك الصخرة وحده ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ، ثم رد الحجر كما كان ، قال أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب : وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما ، ثم تولى إلى الظل قالوا ، وكان ظل شجرة من السمر . ﴿ فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ﴾ ﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾[1] .

لما جلس موسى عليه السلام فى الظل ﴿ فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ﴾ سمعته المرأتان فيما قيل ، فذهبتا إلى أبيهما ، فيقال إنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتاه ما كان ، من أمر موسى عليه السلام ، فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه ، فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، أى مشى الحراير ، قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة ، وهذا من تمام حيائها وصيانتها ، فلما جاءه وقص عليه القصص وأخبره خبره ، وما كان من أمره فى خروجه من بلاد مصر فرارا من فرعونها (قال له) ذلك الشيخ : ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ أى خرجت من سلطانهم فلست فى دولتهم .

وقد اختلفوا فى هذا الشيخ من هو ؟ فقيل هو شعيب عليه السلام . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وممن نص عليه الحسن البصرى ومالك بن أنس ، وجاء مصرحا به فى حديث ولكن فى إسناده نظر ، وصرح طائفة بأن شعيبا عليه السلام ، عاش عمرا طويلا بعد هلاك قومه ، حتى أدركه موسى عليه السلام ، وتزوج بابنته ، وروى ابن أبى حاتم وغيره عن الحسن البصرى أن صاحب موسى عليه السلام هذا اسمه شعيب ، وكان سيد الماء ولكن ليس بالنبى صاحب مدين ، وقيل إنه ابن أخى شعيب ، وقيل ابن عمه . وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب ، وقيل رجل اسمه يثرون هكذا ، هو فى كتب أهل الكتاب يثرون كاهن مدين أى كبيرها وعالمها ، قال ابن عباس وأبوعبيدة بن عبدالله : اسمه يثرون ، زاد أبوعبيدة وهو ابن أخى شعيب زاد ابن عباس صاحب مدين .

والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه ، وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا ، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها : ياأبت استأجره ، أى لرعى غنمك ، ثم مدحته بأنه قوى أمين ، قال عمر وابن عباس وشريح القاضى وغير واحد : لما قالت ذلك ، قال لها أبوها : وما علمك بهذا ، فقالت : إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة ، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال كونى من ورائى ، فإذا اختلف الطريق ، فاحذفى لى بحصاه ، أعلم بها كيف الطريق .

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة ، صاحب يوسف حين قال لامرأته : أكرمى مثواه ، وصاحبة موسى حين قالت : ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ، وأبو بكر حين استخلف عمر ابن الخطاب ﴿ قالت إحداها ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ، قال إنى أريد أن

---

(١) القصص الآيتان : ٢٤ - ٢٥ .

أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على ما نقول وكيل ﴾[١] . يقول تعالى إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت ، فأيهما قضيت فلا عدوان علىّ ، والله على مقالتنا سامع وشاهد ووكيل على وعليك . ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة .

قال البخارى عن سعيد بن جبير قال : سألنى يهودى من أهل الحيرة أى الأجلين قضى موسى ، فقلت لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب . فأسأله ، فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل ، وقد رواه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ، قال : سألت جبريل أى الأجلين قضى موسى قال : أتمهما وأكملهما ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء **واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾[٢] .

تقدم أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأكملهما ، وقد يؤخذ هذا من قوله : ﴿ **فلما قضى موسى الأجل** ﴾ وقوله : ﴿ **وسار بأهله** ﴾ أى من عند صهره ذاهبا فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم ، أنه اشتاق إلى أهله ، فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة مختف فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه ، قالوا : واتفق ذلك فى ليلة مظلمة باردة ، وتاهوا فى طريقهم ، فلم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف ، وجعل يورى زناده ، فلا يورى شيئا ، واشتد الظلام والبرد ، فبينما هو كذلك ، إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج فى جانب الطور ، وهو الجبل الغربى منه عن يمينه ، فقال لأهله : امكثوا إنى آنست نارا ، وكأنه والله أعلم رآها دونهم لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة ، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد ﴿ لعلى آتيكم منها بخبر ﴾ أى لعلى أستعلم من عندها عن الطريق . ﴿ أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق فى ليلة باردة ومظلمة ، وقوله فى الآية الأخرى : ﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾[٣] فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق ، وجمع الكل فى سورة النمل فى قوله : ﴿ **إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون** ﴾[٤] وقد أتاهم منها بخبر ، وأى خبر ، ووجد عندها هدى ، وأى هدى ، واقتبس منها نورا ، وأى نور ، قال الله تعالى : ﴿ **فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين** ﴾ فقال فى سورة النمل : ﴿ فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ﴾[٥] أى سبحان الله الذى يفعل ما يشاء ويحكم مايريد . ﴿ ياموسى إنه أنا الله العزيز

---

(١) القصص الآيات ٢٦ ـ ٢٨ .
(٢) القصص الآيات : ٢٩ ـ ٣٢ .
(٣) طه الآيتان : ٩ ، ١٠ .
(٤) النمل آية : ٧ .
(٥) النمل آية : ٨ .

الحكيم ﴾(١) وقال فى سورة طه : ﴿ فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾(٢) قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف : لما قصد موسى إلى تلك النار ، التى رآها ، فانتهى إليها ، وجدها تأجج فى شجرة خضراء من العوسج ، وكل ما لتلك النار فى اضطرام ، وكل ما لخضرة تلك الشجرة فى ازدياد ، فوقف متعجبا ، وكانت تلك الشجرة فى كحف جبل غربى منه عن يمينه ، كما قال تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾(٣) وكان موسى فى واد اسمه طوى ، فكان موسى مستقبل القبلة ، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب ، فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمر أولا بخلع نعليه ، تعظيما وتكريما وتوقيرا ، لتلك البقعة المباركة ، ولاسيما فى تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتاب ، أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور ، مهابة له ، وخوفا على بصره ، ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلا له : ﴿ إنى أنا الله رب العالمين ﴾ ﴿ **إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ أى أنا رب العالمين الذى لا إله إلا هو ، الذى لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له ، ثم أخبره أن هذه الدنيا ، ليست بدار قرار ، وإنما الدار الباقية يوم القيامة ، التى لابد من كونها ووجودها . (لتجزى كل نفس بما تسعى) أى من خير وشر ، وحضه وحثه على العمل لها ، ومجانبة من لا يؤمن بها ، ممن عصى مولاه ، واتبع هواه ، ثم قال له مخاطبا ومؤانسا ومبينا له إنه القادر على كل شىء الذى يقول للشىء كن فيكون : ﴿ وما تلك بيمينك ياموسى)(٤) أى أما هذه عصاك التى تعرفها منذ صحبتها ﴿ قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى ﴾(٥) أى بل هذه عصاى التى أعرفها وأتحققها ﴿ قال ألقها ياموسى فألقاها فإذا هى حية تسعى ﴾(٦) . وهذا خارق عظيم ، وبرهان قاطع على أن الذى يكلمه ، يقول للشىء كن فيكون ، وأنه الفعال بالاختيار .

وعند أهل الكتاب ، أنه سأل برهانا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر ، فقال له الرب عز وجل : ما هذه التى فى يدك ، قال : عصاى ، قال : ألقها إلى الأرض ﴿ فألقاها فإذا هى حية تسعى ﴾ فهرب موسى من قدامها ، فأمره الرب عز وجل ، أن يبسط يده ويأخذها بذنبها ، فلما استمكن منها ، ارتدت عصا فى يده ، وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب** ﴾ أى قد صارت حية عظيمة ، لها ضخامة هائلة ، وأنياب تصك ، وهى مع ذلك فى سرعة حركة الجان ، وهو ضرب من الحيات ، فلما عاينها موسى عليه السلام ﴿ ولى مدبرا ﴾ أى هاربا منها ، لأن طبيعة البشر ، تقتضى ذلك (ولم يعقب) أى ولم يلتفت فناداه ربه قائلا له ﴿ ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ فلما رجع ، أمره الله تعالى أن يمسكها ﴿ قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها

---

(١) النمل آية : ٩ .
(٢) طه الآيات : ١١ - ١٦
(٣) القصص آية : ٤٤
(٤) طه آية : ١٧
(٥) طه آية : ١٨
(٦) طه الآيتان : ١٩ ، ٢٠

الأولى ﴾[١] . فيقال إنه هابها شديداً ، فوضع يده فى كم مدرعته ، ثم وضع يده فى وسط فمها ، وعند أهل الكتاب بذنبها ، فلما استمكن منها ، إذا هى قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين ، فسبحان القدير العظيم ، رب المشرقين والمغربين ، ثم أمره تعالى بإدخال يده فى جيبه ، ثم أمره بنزعها ، فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء ، أى من غير برص ولا بهق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ وقال فى سورة النمل : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[٢] أى هاتان الآيتان وهما العصا واليد وهما البرهانان المشار إليهما فى قوله تعالى : ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ مضافا إليها سبع آيات بينات كما جاء فى آخر سورة الإسراء ، حيث يقول تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا ، قال لقد علمت ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾[٣] وهى المبسوطة فى سورة الأعراف فى قوله : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾[٤] كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، وهذه التسع غير العشر الكلمات ، فإن التسع من كلمات الله القدرية ، والعشر من كلماته الشرعية ، وإنما نبهنا على هذا ، لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة ، فظن أن هذه هى هذه ، كما قررنا ذلك فى تفسير آخر سورة سبحان ، والمقصود أن الله سبحانه ، لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون ﴿ قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون . قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾[٥] .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام ، فى جوابه لربه عز وجل ، حين أمره بالذهاب إلى عدوه ، الذى خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه ، حين كان من أمره ما كان فى قتل ذلك القبطى ، ولهذا (قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون) . أى اجعله معى معيناً وردءاً ووزيرا ، يساعدنى ويعيننى على أداء رسالتك إليهم ، فإنه أفصح منى لساناً ، وأبلغ بياناً ، قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا ﴾ أى برهانا (فلا يصلون إليكما) أى فلا ينالون مكروها بسبب قيامكما بآياتنا ، وقيل ببركة آياتنا (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) وقال فى سورة طه : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى . قال رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى

(١) طه آية : ٢١ .
(٢) النمل آية : ١٢ .
(٣) الأسراء الآيتان : ١٠١ - ١٠٢ .
(٤) الأعراف الآيات : : ١٣٠ - ١٣٣
(٥) القصص الآيات : ٣٣ - ٣٥

واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيراً . قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ﴾[1] .

أى قد أجبناك إلى جميع ما سألت ، وأعطيناك الذى طلبت ، وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل ، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه ، فأوحى إليه ، وهذا جاه عظيم قال تعالى : ﴿ وكان عند الله وجيها)[2] وقال تعالى : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾[3] وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلا يقول : (أى أخ أمنٌ على أخيه) فسكت القوم فقالت عائشة لمن حول هودجها : هو موسى بن عمران حين شفع فيه أخيه هارون .

وقال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون ، قال رب إنى أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بنى إسرائيل ، قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾[4] تقدير الكلام : فأتياه فقالا له ذلك ، وبلّغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن يفك أسارى بنى إسرائيل ، من قبضته ، وقهره وسطوته ، وتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا ، لتوحيده ودعائه ، والتضرع لديه ، فتكبر فرعون فى نفسه وعتى وطغى ، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص ، قائلاً له : (ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين) أى أما أنت الذى ربيناه فى منزلنا ، وأحسنا إليه ، وأنعمنا عليه مدة من الدهر ، وهذا يدل على أن فرعون ، الذى بعث إليه ، هو الذى فر منه ، خلافاً لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذى فرّ منه ، مات فى مدة مقامه بمدين ، وأن الذى بعث إليه فرعون آخر ، وقوله : ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾ أى وقتلت الرجل القبطى ، وفررت منا وجحدت نعمتنا ﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾[5] أى قبل أن يوحى إلى وينزل على ﴿ ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين ﴾[6] ثم قال مجيبا لفرعون عما امتن به من التربية ، والإحسان إليه : ﴿ وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى إسرائيل ﴾[7] أى وهذه النعمة التى ذكرت من أنك أحسنت إلى وأنا رجل واحد من بنى إسرائيل ، تقابل ما استخدمت هذا الشعب بكماله ، واستعبدتهم فى أعمالك وخدمك وأشغالك . ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ، قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾[8] .

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى ، من المقاولة والمحاجة والمناظرة ، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم ، من الحجة العقلية المعنوية ، ثم الحسية ، وذلك أن فرعون قبحه الله ، أظهر جحد

---

(١) طه الآيات : ٢٤ ـ ٣٦ .
(٢) الأحزاب آية : ٦٩ .
(٣) مريم آية : ٥٣ .
(٤) الشعراء الآيات : ١٠ ـ ١٩ .
(٥) الشعراء آية : ٢٠ .
(٦) الشعراء آية : ٢١ .
(٧) الشعراء آية : ٢٢ .
(٨) الشعراء الآيات : ٢٣ ـ ٢٨ .

الصانع ، تبارك وتعالى ، وزعم أنه الإله : ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾[١] ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾[٢] وهو فى هذه المقالة معاند ، يعلم أنه عبد مربوب ، وأن الله هو الخالق البارىء المصور ، الإله الحق ، كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[٣] ولهذا قال لموسى عليه السلام ، على سبيل الإنكار لرسالته ، والإظهار أنه ما ثم رب أرسله : ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ لأنهما قالا له : ﴿ **إنا رسول رب العالمين** ﴾ فكأنه يقول لهما : ومن رب العالمين ، الذى تزعمان أنه أرسلكما وأبعثكما ، فأجابه موسى قائلا : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ يعنى رب العالمين ، خالق هذه السموات والأرض المشاهدة ، وما بينهما من المخلوقات المتجددة من السحاب ، والرياح ، والمطر ، والنبات ، والحيوانات ، التى يعلم كل مؤمن ، أنها لم تحدث بأنفسها ولابد لها من موجد ومحدث وخالق ، وهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين .

(قال) أى فرعون : (لمن حوله) من امرأته ومرازتيه ووزرائه ، على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام ﴿ **ألا تستمعون** ﴾ يعنى كلامه هذا ، قال موسى مخاطبا له ولهم : ﴿ **ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ أى هو الذى خلقكم والذين من قبلكم من الآباء ، والأجداد ، والقرون السالفة فى الآباء ، فإن كل واحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ، ولا أبواه ولا أمه ، ولم يحدث غير محدث ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين . وهذان المقامان هما المذكوران فى قوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[٤] ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ، ولا نزع عن ضلالته ، بل استمر فى طغيانه وعناده وكفرانه ﴿ قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ أى هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة ، المسير للأفلاك الدائرة ، خالق الظلام والضياء ، ورب الأرض والسماء ، رب الأولين والآخرين ، خالق الشمس والقمر ، والكواكب السائرة ، والثوابت الحائرة ، خالق الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون ، وفلك يسبحون ، يتعاقبون فى سائر الأوقات ويدورون ، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف فى خلقه بما يشاء ، فلما قامت الحجج على فرعون ، وإنقطعت شبهه ولم يبق له قول سوى العناد ، عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته (قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال أو لو جئتك بشىء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين)[٥] وهذان هما البرهانان ، اللذان أيده الله بهما ، وهما العصا واليد ، وذلك مقام أظهر الله فيه الخارق العظيم الذى بهر به العقول والأبصار ، حين ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، أى عظيم الشكل بديع فى الفخامة والهول ، والمنظر العظيم الفظيع ، الباهر ، حتى قيل إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه ، أخذه رهب شديد ، وخوف عظيم ، بحيث أنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة فى يوم ، وكان قبل ذلك لا يتبرز فى كل أربعين يوما إلا مرة واحدة فانعكس الحال عليه ، وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده فى جيبه ، واستخرجها ، أخرجها وهى كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار ، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صنعتها الأولى ، ومع هذا كله لم ينتفع فرعون لعنه الله بشىء من ذلك ، بل استمر على

(١) النازعات آية : ٢٤
(٢) القصص آية : ٣٨
(٣) النمل آية : ١٤
(٤) فصلت آية : ٥٣
(٥) الشعراء الآيات : : ٢٩ - ٣٣

ما هو عليه ، وأظهر أن هذا كله سحر وأراد معارضته بالسحرة ، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن فى رعيته وتمت قهره ودولته ، كما سيأتى بسطه وبيانه فى موضعه ، من إظهار الله الحق المبين ، والحجة الباهرة القاطعة ، على فرعون وملائه ، وأهل دولته وملته ، ولله الحمد والمنة ، وقال تعالى فى سورة طه : ﴿ فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسى ، إذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾[1] .

يقول تعالى مخاطبا لموسى فيما كلمه به ، ليلة أوحى إليه ، وأنعم عليه وكلمه منه إليه ، قد كنت مشاهدا لك وأنت فى دار فرعون ، وأنت تحت كنفى وحفظى ولطفى ، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين ، بمشيئتى وقدرى وتدبيرى ، فلبث فيها سنين . ﴿ **ثم جئت على قدر يا موسى** ﴾ أى منى لذلك فوافق ذلك تقديرى وتسييرى . ﴿ **واصطنعتك لنفسى** ﴾ أى اصطنعتك لنفسى برسالتى وبكلامى ﴿ **إذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيافى ذكرى** ﴾ يعنى ولا تفترا فى ذكرى إذ قدمتما عليه ، ووفدتما إليه ، فان ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته ، وإهداء النصيحة إليه ، وإقامة الحجة عليه : وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا . . الآية ﴾[2] ثم قال تعالى : ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾[3] وهذا من حلمه تعالى وكرمه ، ورأفته ورحمته بخلقه ، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره ، وهو إذ ذاك أردى خلقه ، وقد بعث إليه صفوته من خلقه فى ذلك الزمان ، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما ، أن يدعواه إليه بالتى هى أحسن برفق ولين ، ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى ، كما قال لرسوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم - الآية ﴾[5] قال الحسن البصرى (فقولا له قولا لينا) أعذر إليه قولا إن لك رباً ولك معادا ، وأن بين يديك جنة وناراً .

وقال وهب بن منبه : قولا له : إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة ، قال يزيد الرقاشى عند هذه الآية : يا من يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه . ﴿ **قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى** ﴾ وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً ، وشيطاناً مريداً ، له سلطان فى بلاد مصر طويل عريض ، وجاه وجنود وعساكر وسطوة ، فهاباه من حيث البشرية ، وخافا أن يسطو عليهما فى بادىء الأمر ، فثبتهما تعالى ، وهو العلى الأعلى فقال : ﴿ **لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى** ﴾ قال فى الآية الأخرى : ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾[6] وكما قال : ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾[7] .

---

(١) طه الآيات : ٤٠ - ٤٦
(٢) الأنفال آية : ٤٥
(٣) طه الآيتان : ٤٣ ، ٤٤
(٤) النحل آية : ١٢٥
(٥) العنكبوت آية : ٤٦
(٦) الشعراء آية : ١٥
(٧) طه الآيتان : ٤٧ ، ٤٨

يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون ، فيدعواه إلى الله تعالى أن يعبده وحده ، لا شريك له ، وأن يرسل معهم بنى إسرائيل ، ويطلقهم من أسره وقهره ، ولا يعذبهم ﴿ **قد جئناك بآية من ربك** ﴾ وهو البرهان العظيم فى العصا واليد ﴿ **والسلام على من اتبع الهدى** ﴾ تقيد مفيد بليغ عظيم . ثم تهدداه وتواعداه على التكذيب فقالا : ﴿ **إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾ أى كذب بالحق بقلبه ، وتولى من العمل بقالبه .

وقال تعالى مخبرا عن فرعون : ﴿ قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبُلاًوأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نباتٍ شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾(١) .

يقول تعالى مخبرا عن فرعون ، إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلا : ﴿ **فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** ﴾ أى هو الذى خلق الخلق ، وقدر لهم أعمالا وأرزاقا وآجالا ، وكتب ذلك عنده فى كتابه ، اللوح المحفوظ ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له ، فطابق عمله فيهم على الوجه الذى قدره ، وعلمه لكمال علمه وقدرته ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ﴾(٢) أى قدر قدرا وهدى الخلائق إليه ﴿ **قال فما بال القرون الأولى** ﴾ يقول فرعون لموسى ، فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادى الخلائق لما قدره ، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه ، فلم عبد الأولون غيره ، وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت ، فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى ﴿ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ أى هم وإن عبدوا غيره ، فليس ذلك بحجة لك ، ولا يدل على خلاف ما أقول ، لأنهم جهلة مثلك ، كل شىء فعلوه مستطر عليهم فى الزبر ، من صغير وكبير ، وسيجزيهم على ذلك ربى عز وجل ، ولا يظلم أحدا مثقال ذرة ، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده ، فى كتاب لا يضل عنه شىء ، ولا ينس ربى شيئا ، ثم ذكر له عظمة الرب ، وقدرته على خلق الأشياء ، وجعله الأرض مهادا ، والسماء سقفا محفوظا ، وتسخيره السحاب والأمطار ، لرزق العباد ، ودوابهم وأنعامهم ، كما قال : ﴿ **كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** ﴾ أى لذوى العقول الصحيحة المستقيمة ، والفطر القويمة غير السقيمة ، فهو تعالى الخالق الرازق ، وكما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾(٣) ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال : (منها) أى من الأرض (خلقناكم) (وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) كما قال تعالى : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٥) ثم قال تعالى : ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سُوى . قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحىً ﴾(٦) .

---

(١) طه الآيات : ٤٩ ـ ٥٥
(٢) الأعلى الآيات : ١ ـ ٣
(٣) البقرة الآيتان : ٢١ ، ٢٢
(٤) الأعراف آية : ٢٩
(٥) الروم آية : ٢٧
(٦) طه الآيات : ٥٦ ـ ٥٩

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله فى تكذيبه بآيات الله ، واستكباره عن اتباعها . وقوله لموسى إن هذا الذى جئت به سحر ، ونحن نعارضك بمثله ، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ، ومكان معلوم ، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام ، أن يظهر أيات الله وحججه وبراهينه ، جهرة بحضرة الناس ، ولهذا قال : ﴿ **موعدكم يوم الزينة** ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم ، ومجتمع لهم ﴿ **وأن يحشر الناس ضحى** ﴾ أى من أول النهار فى وقت اشتداد ضياء الشمس ، فيكون الحق أظهر وأجلى ، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً فى ظلام ، كما يروج عليهم محالا وباطلا ، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة لأنه على بصيرة من ربه ، ويقين أن الله سيظهر كلمته ودينه ، وإن رغمت أنوف القبط . قال الله تعالى : ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾[1] .

يخبر تعالى عن فرعون ، أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة ، وكانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءة سحرة ، فضلاء فى فنهم غاية ، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان ، فاجتمع منهم خلق كثير ، وجم غفير ، وحضر فرعون وأمراؤه ، وأهل دولته ، وأهل بلده عن بكرة أبيهم ، وذلك أن فرعون نادى فيهم ، أن يحضروا هذا الموقف العظيم ، فخرجوا وهم يقولون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، وتقدم موسى عليه السلام فوعظهم وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل ، الذى فيه معارضة لآيات الله وحججه ، فقال : ﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم** ﴾ قيل معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم ، فقائل يقول : هذا كلام نبى وليس بساحر ، وقائل منهم يقول : بل هو ساحر ، فالله أعلم . وأسروا التناجى بهذا وغيره « قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما » يقولون : أن هذا وأخاه هارون ، ساحران عظيمان مطبقان متقنان لهذه الصنعة ، ومرادهم أن يجتمع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان ، وهيهات كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء ، أنى يعارض البهتان والسحر والهذيان ، خوارق العادات ، التى أجراها الديان ، على يدى عبده الكليم ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان ، الذى يبهر الأبصار ، وتحار فيه العقول والأذهان . وقولهم ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ أى جميع ما عندكم ﴿ ثم ائتوا صفا ﴾ أى جملة واحدة ، ثم حضوا بعضهم بعضا على التقدم فى هذا المقام ، لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾[2] .

لما اصطف السحرة ، ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم ، قالوا له : إما أن تلقى وإما أن نلقى قبلك (قال بل ألقوا) أنتم وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى ، فأودعوها الزئبق وغيره من

---

(١) طه الآيات : ٦٠ - ٦٤

(٢) طه الآيات ٦٥ - ٦٩

الآلات التى تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطرابا ، يخيل للرائى أنها تسعى باختيارها ، وإنما تتحرك بسبب ذلك ، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وألقوا حبالهم وعصيهم ، وهم يقولون بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . قال الله تعالى : ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ **قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾ أى خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحا لهم ، قبل أن يلقى ما فى يده ، فإنه لا يضع شيئا قبل أن يؤمر ، فأوحى الله إليه فى الساعة الراهنة ﴿ **لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه ، وقال ما جئتم به من السحر ، إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون .

وقال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون** ﴾[٢] .

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم ، (فيما ذكره غير واحد من علماء السلف) وعنق عظيم ، وشكل هائل مزعج ، بحيث أن الناس انحازوا منها ، وهربوا سراعاً ، وتأخروا عن مكانها ، وأقبلت هى على ما ألقوه من الحبال والعصى ، فجعلت تلقفه واحداً واحداً فى أسرع ما يكون من الحركة ، والناس ينظرون إليها ، ويتعجبون منها ، وأما السحرة فإنهم رأوا ماهالهم ، وحيرهم فى أمرهم ، واطلعوا على أمر لم يكن فى خلدهم ولا بالهم ، ولا يدخل تحت صناعتهم واحتفالهم ، فعند ذلك تحققوا بما عندهم من العلم ، إن هذا ليس بسحر ولا بشعوذة ولا خيال ، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال ، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذى ابتعث هذا المؤيد به بالحق ، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة ، وأنارها بما خلق فيها من الهدى ، وأزاح عنها القسوة ، وأنابوا إلى ربهم ، وخروا له ساجدين ، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى ﴿ **آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون** ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ **فألقى السحرة سجداً ، قالوا آمنا برب هارون وموسى ، قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى . قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى** ﴾[٣] .

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبى بردة والأوزاعى وغيرهم :

لما سجد السحرة ، رأوا منازلهم ، وقصورهم فى الجنة ، تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده ، وذلك لأن فرعون لما رأى السحرة ، قد أسلموا وأشهروا ذكروا موسى وهارون فى الناس على هذه الصفة الجميلة ، أفزعه ذلك ، ورأى أمراً بهره ، وأعمى

---

(١) الأعراف آية : ١١٦ (٢) الأعراف الآيات : ١١٧ - ١٣٢ (٣) طه الآيات : ٧٠ - ٧٦

بصيرته وبصره ، وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة فى الصد عن سبيل الله ، فقال مخاطبا بحضرة الناس : ﴿ **آمنتم له قبل أن آذن لكم** ﴾ أى هلا شاورتمونى فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتى ، ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد وكذب فأبعد قائلا : ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ وقال فى الآية الأخرى : ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾(١) .

وهذا الذى قاله من البهتان ، يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان ، بل لا يروج مثله على الصبيان ، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم ، يعلمون أن موسى لم ير هؤلاء يوما من الدهر ، فكيف يكون كبيرهم الذى علمهم السحر ، ثم هو لم يجمعهم ولا علم اجتماعهم ، حتى كان فرعون هو الذى استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق ، وواد سحيق ، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف ، قال الله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ، قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ، قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ، وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ، قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾(٢) .

وقال تعالى فى سورة يونس : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ، قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين . وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم ، فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾(٣) .

وقال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشىء مبين ، قال فأت به إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ، قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحَّار عليم ، فجمع السحرة

---

(١) الأعراف آية : ١٢٣ (٢) الأعراف الآيات : ١٠٣ - ١٢٦ (٣) يونس الآيات : ٧٥ - ٨٢

لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ، قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين ، قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنّا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾[1] .

والمقصود أن فرعون كذب وافترى ، وكفر غاية الكفر فى قوله : إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، وأتى ببهتان يعلمه العالمون ، بل العالمون فى قوله : ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون** ﴾ وقوله : ﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف** ﴾ يعنى قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو عكسه ﴿ **ولأصلبنكم أجمعين** ﴾ أى ليجعلهم مثله ونكالا ، لئلا ليقتدى بهم أحد من رعيته ، وأهل ملته ، ولهذا قال : ﴿ **ولأصلبنكم فى جذوع النخل** ﴾ أى على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر ﴿ **ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى** ﴾ يعنى فى الدنيا ، ﴿ **قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات** ﴾ أى لن نطيعك ونترك ما وقر فى قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات ﴿ **والذى فطرنا** ﴾ قيل معطوف وقيل قسم ، ﴿ **فاقض ما أنت قاض** ﴾ أى افعل ما قدرت عليه ﴿ **إنما تقضى هذه الحياة الدنيا** ﴾ أى إنما حكمك علينا فى هذه الحياة الدنيا ، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة ، صرنا إلى حكم الذى أسلمنا له واتبعنا رسله ﴿ **إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى** ﴾ أى وثوابه خير بما وعدتنا به من التقريب والترغيب ﴿ **وأبقى** ﴾ أى وأدوم من هذه الدار الفانية ، وفى الآية الأخرى ﴿ **قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا** ﴾ أى ما اجترمناه من المآثم والمحارم إن كنا أول المؤمنين . أى من القبط بموسى وهارون عليهما السلام .

وقالوا أيضا : ﴿ **وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا** ﴾ أى ليس لنا عندك ذنب ، إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ﴿ **ربنا افرغ علينا صبراً** ﴾ أى ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد ، والسلطان الشديد ، بل الشيطان المريد ﴿ **وتوفنا مسلمين** ﴾ وقالوا أيضا يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم : ﴿ **إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحى** ﴾ يقولون له : فإياك أن تكون منهم فكان منهم ﴿ **ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى** ﴾ أى المنازل العالية ﴿ **جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى** ﴾ فاحرص أن تكون منهم فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التى لا تغالب ولا تمانع ، وحكم العلى العظيم بأن فرعون لعنه الله من أهل الجحيم ، ليباشر العذاب الأليم ، يصب من فوق رأسه الحميم ، ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ ، وهو المقبوح المنبوح ، والذميم اللئيم ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾[2] . والظاهر من هذه السياقات ، أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم ، رضى الله

---

(١) الشعراء الآيات : ٢٩ ـ ٥١ (٢) الدخان آية : ٤٩

عنهم ، قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير : كانوا من أول النهار سحرة ، فصاروا من آخره شهداء بررة ، ويؤيد هذا قولهم ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين** ﴾ .

ولما وقع من الأمر العظيم ، وهو الغلب الذى غلبته القبط فى ذلك الموقف الهائل ، وأسلم السحرة الذين استنصروا ربهم ، لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً ، وبعداً عن الحق . قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم فى سورة الأعراف : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ، قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾(١) .

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء ، أنهم حرضوا ملكهم فرعون ، على أذية نبى الله موسى عليه السلام ، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والرد والأذى قالوا : ﴿ **أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك** ﴾ يعنون قبحهم الله أن دعوته إلى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، والنهى عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط . ﴿ **قال سنقتل أبناءهم ونستحى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ أى غالبون ﴿ **وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ أى إذا هموا هم بأذيتكم ، والفتك بكم ، فاستعينوا أنتم بربكم ، واصبروا على بليتكم ﴿ **إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ أى فكونوا أنتم المتقين ، لتكون لكم العاقبة ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين** ﴾(٢) .

وقولهم : ﴿ **قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا** ﴾ أى قد كانت الأبناء ، تقتل قبل مجيئك ، وبعد مجيئك إلينا ﴿ **قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾ وقال الله تعالى فى سورة حم المؤمن : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴾(٣) وكان فرعون الملك وهامان الوزير من فراعنة مصر ، وكان قارون إسرائيلياً من قوم موسى ، إلا أنه كان على دين فرعون وملائه ، وكان ذا مال جزيل جداً ، كما ستأتى قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى : ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ﴾(٤) وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى ، إنما كان على وجه الإهانة والإذلال والتقليل لملأ بنى إسرائيل ، لئلا يكون لهم شوكة ، يمتنعون بها ، ويصولون على القبط فهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ، ولم يرد عنهم قدر الذى يقول للشىء كن فيكون . ﴿ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾(٥) ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم « صار فرعون مذكرا » وهذا منه ، فإن فرعون فى زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام . ﴿ وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾(٦) إنى عذت بالله ، ولجأت إليه بجنابه من أن يسطو فرعون وغيره علىّ

---

(١) الأعراف الآيات : ١٢٧ - ١٢٩
(٢) يونس الآيات : ٨٤ - ٨٦
(٣) غافر الآيتان : ٢٣ ، ٢٤
(٤) غافر آية : ٢٥
(٥) غافر آية : ٢٦
(٦) غافر آية : ٢٧

بسوء . وقوله : ﴿ من كل متكبر ﴾ أى جبار عنيد لا يرعوى ، ولا ينتهى ، ولا يخاف عذاب الله وعقابه ، لأنه لا يعتقد معادا ولا جزاء ، ولهذا قال : ﴿ من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب . وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾[1] وهذا الرجل هو ابن عم فرعون ، وكان يكتم إيمانه من قومه ، خوفا منهم على نفسه ، فلما همَّ فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام ، وعزم على ذلك ، وشاور ملأه فيه ، خاف هذا المؤمن على موسى ، فتلطف فى رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب ، فقال على وجه المشورة والرأى ، وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ :

« إن أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر »[2] ، وهذا من أعلى مراتب هذا المقام ، فإن فرعون لأشد جورا منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه ، لأن فيه عصمة نبى ، قال : (أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله) أى من أجل أنه قال ربى الله ، فمثل هذا لا يقابل بهذا ، بل بالإكرام والاحترام ، والموادعة وترك الانتقام ، يعنى لأنه ﴿ قد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أى بالخوارق ، التى دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله ، فهذا إن وادعتموه كنتم فى سلامة ، لأنه (إن يك كاذباً فعليه كذبه) ولا يضركم ذلك (وإن يك صادقاً) وقد تعرضتم له (يصيبكم بعض الذى يعدكم) أى وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به ، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم .

وهذا الكلام فى هذا المقام أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام .

وقوله : (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض) يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فإنه ما تعرض الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم وكذا وقع لآل فرعون ، ما زالوا فى شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به ، حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور والنعمة والحبور ، ثم حولوا إلى البحر مهانين ، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين ، ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق ، الناصح لقوم الكامل العقل (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) أى لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة والقوة والشدة ، لما نفعنا ذلك ولا رد عنا بأس مالك الملك (قال فرعون) أى فى جواب هذا كله : (ما أريكم إلا ما أرى) أى ما أقول لكم إلا ما عندى ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ .

وكذب فى كل من هذين القولين ، وهاتين الحقدتين ، فإنه كان يتحقق فى باطنه وفي نفسه أن هذا الذى جاء به موسى من عند الله لا محالة ، وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً ، وعتواً وكفراناً ، قال الله تعالى إخباراً عن موسى : ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر

---

(١) غافر الآيات : ٢٧ - ٢٩

(٢) أخرجه ابن ماجه جـ٢ ص ١٣٢٩ برقم ٤٠١١

وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[٢] .

وأما قوله : ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ . فقد كذب أيضا ، فإنه لم يكن على رشاد من الأمر ، بل كان على سفه وضلال ، وخبل وخيال ، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال ، ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه ، فيما زعم من الكفر المحال فى دعواه أنه رب ، تعالى الله ذو الجلال . قال الله تعالى : ﴿ ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملائه . فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ، يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود . واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾[٥] .

والمقصود بيان كذبه فى قوله : ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ وفى قوله : ﴿ **وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾ ، ﴿ **وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ، ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ .

يحذرهم ولى الله إن كذبوا برسول الله موسى ، أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم من النقمات والمثلات ، مما تواتر عندهم وعند غيرهم ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك ، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة فى صدق ما جاءت به الأنبياء ، لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء ، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة ، وهو يوم التناد أى حين ينادى الناس بعضهم بعضا ، حين يولون إن قدروا على ذلك ولا إلى ذلك سبيل ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾[٧] .

---

(١) الاسراء الآيتان : ١٠٢ ـ ١٠٣
(٢) النمل الآيتان : ١٣ ـ ١٤
(٣) الزخرف الآيتان : ٥١ ـ ٥٦
(٤) النازعات الآيات : ٢٠ ـ ٢٦
(٥) هود الآيات : ٩٦ ـ ٩٩
(٦) القيامة الآيات : ١٠ ـ ١٢
(٧) الرحمن الآيات : ٣٣ ـ ٣٦

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف فى بلاد مصر ، وما كان منه من الإحسان إلى الخلق فى دنياهم وأخراهم ، وهذا من سلالته وذريته ، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته ، وأن لا يشركوا به أحداً من بريته ، وأخبر عن أهل الديار المصرية فى ذلك الزمان ، أى من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل ، ولهذا قال : ﴿ **فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعد رسولاً** ﴾ أى وكذبتم فى هذا ، ولهذا قال : ﴿ **كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم** ﴾ أى يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجة ولا دليل عندهم من الله ، فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت ، أى يبغض من تلبس به من الناس ، ومن اتصف به من الخلق ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ أى هكذا إذا خالفت القلوب الحق ، ولا تخالفه بلا برهان ، فإن الله يطبع عليها أى يختم عليها .

﴿ **وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب** ﴾ كذب فرعون موسى عليه السلام فى دعواه ، أن الله أرسله ، وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه فى قوله لهم : ﴿ **ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين** ﴾[1] وقال ههنا ﴿ **لعلى أبلغ الأسباب. أسباب السموات** ﴾ أى طرقها ومسالكها ﴿ **فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا** ﴾ ويحتمل هذا معنيين ، أحدهما وإنى لأظنه كاذبا فى قوله : إن للعالم رباً غيرى ، والثانى فى دعواه ان الله أرسله .

وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام ، وأن يحثهم على تكذيبه ، قال الله تعالى : ﴿ **وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد يقول : إلا فى خسار ، أى باطل ، لا يحصل له شىء من مقصوده ، الذى رامه ، فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً ، أعنى السماء الدنيا ، فكيف بما بعدها من السموت العلى وما فوق ذلك من الارتفاع الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل

قال الله تعالى : ﴿ **وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب** ﴾ يدعوهم - رضى الله عنه - إلى طريق الرشاد والحق ، وهى متابعة نبى الله موسى ، وتصديقه فيما جاء به من ربه ، ثم زهدهم فى الدنيا الدنيه الفانية ، المنقضية لا محالة ، ورغبتهم فى طلب الثواب عند الله الذى لا يضيع عمل عامل لديه ، القدير الذى ملكوت كل شىء بيديه ، الذى يعطى على القليل كثيرا ، ومن عدله لا يجازى على السيئة إلا مثلها ، وأخبرهم أن الآخرة هى دار القرار ، التى من وافاها مؤمنا قد عمل الصالحات ، فلهم الجنات العاليات ، والغرف الآمنات ، والخيرات الكثيرة الفائقات ، والأرزاق الدائمة التى لا تبيد ، والخير الذى كل مالهم منه فى مزيد .

---

(١) القصص آية : ٣٨

ثم شرع فى إبطال ماهم عليه ، وتخويفهم مما يصيرون إليه ، فقال : ﴿ **ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وإن مردنا إلى الله وإن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ، فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ . وقد تكلمنا على دلالة هذه الآيات فى التفسير ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم ، وإرسال الرسول إليهم ، وإزاحة الشبه عنهم ، وأخذ الحجة عليهم منهم ، فبالترهيب تارة والترغيب أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾[1] .

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون ، وهم قومه من القبط **بالسنين** ، وهى أعوام الجدب ، التى لا يستغل فيها زرع ، ولا ينتفع بضرع ، وقوله : ﴿ **ونقص من الثمرات** ﴾ وهى قلة الثمار من الأشجار ﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ أى فلم ينتفعوا ولم يرعوا بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم . ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة** ﴾ والخصب ونحوه ﴿ **قالوا لنا هذه** ﴾أى هذا الذى نستحقه ، وهذا الذى يليق بنا ﴿ **وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه** ﴾ أى يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ولا يقولون فى الأول أنه بركتهم ، وحسن مجاورتهم ، ولكن قلوبهم مستنكرة نافرة عن الحق ، إذا جاء الشر أسندوه إليه ، وإن رأوا خيرا ادعوه لأنفسهم ، قال الله تعالى : ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ أى الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين** ﴾ أى مهما جئتنا من الآيات ، وهى الخوارق للعادات ، فلسنا نؤمن بك ، ولا نتبعك ، ولا نطيعك ، ولو جئتنا بكل آية ، وهكذا أخبر الله عنهم فى قوله : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم** ﴾[2] قال الله تعالى : ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين** ﴾ أما الطوفان فعن ابن عباس هو كثرة الأمطار المتلفة للزرع والثمار ، وأما الجراد فمعروف ، وقد روى أبو داود عن سلمان الفارسى قال سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال : ﴿ أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه ﴾[3] . والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعا ولاثمارا ، ولا سبدا ولا لبدا ، وأما القمل ، فعن ابن عباس هو السوس الذى يخرج من الحنطة ، وعنه أن الجراد الصغار ، الذى لا أجنحة له ، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال سعيد ابن جبير : هو دواب سود صغار ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هى البراغيث . . فدخل معهم البيوت والفرش ، فلم يقر لهم قرار ، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش ، وأما الضفادع ، فمعروفه ،

---

(١) الأعراف الآيات : ١٣٠ ـ ١٣٣
(٢) يونس الآيتان : ٩٦ ـ ٩٧
(٣) أخرجه أبو داود جـ ٤ ص ١٦٥ برقم ٣٨١٣

لبستهم حتى كانت تسقط فى طعامهم وأوانيهم ، وأما الدم ، فكان قد خرج ماؤهم كله به ، فلا يستقون من النيل إلا وجدوه دما عبيطا ولا من نهر ، ولا بئر ولا شىء إلا كان دماً فى الساعة الراهنة ، هذا كله لم ينل بنى إسرائيل من ذلك شىء بالكلية ، وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة ، أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام ، فينالهم عن أخرهم ، ولا يحصل هذا لاحد من بنى إسرائيل ، وفى هذا دليل . قال محمد بن إسحق : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولا ، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر ، فتابع الله عليه بالآيات ، فأخذه بالسنين ، فأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان ، وهو الماء ففاض على وجه الأرض ثم ركد ، لا يقدرون على أن يخرجوا ، ولا أن يعملوا شيئا ، حتى جهدوا ، فلما بلغهم ذلك ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ﴾[1] فدعا موسى ربه فكشف عنهم ، فلما لم يفوا بشىء ، فأرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر فيما بلغنى حتى أن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد ، حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشىء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فذكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى إلى كثيب ، حتى يضربه بعصاه ، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم ، فضربه بها فانثال عليهم قملا ، حتى غلب على البيوت والأطعمة ، ومنعهم النوم والقرار ، فلما جهدهم ، قالوا له مثل ما قالوا له ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلما لم يفوا له بشىء مما قالوا ، أرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والآنية ، فلم يكشف أحد ثوبا ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع قد غلب عليه ، فلما جهدهم ذلك ، قالوا له مثل ما قالوا ، فدعا ربه ، فكشف عنهم فلم يفوا بشىء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما ، لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطا ، قال الله تعالى : ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون * فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[2] .

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم ، واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار ، عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله ، مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة والحجج البليغة القاهرة ، التى أراهم الله إياها عيانا ، وجعلها عليهم دليلا وبرهانا ، وكلما شاهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به ، وليرسلن معه مَن هو من حزبه ، فكلما رفعت عنهم تلك الآية ، تمادوا إلى شر مما كانوا عليه ، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ، ولم يلتفتوا إليه ، فيرسل الله عليهم آية أخرى هى أشد مما كانت قبلها ، وأقوى ، فيقولون فيكذبون ، ويعدون ولا يفون ﴿ **لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل** ﴾ فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل ، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل ، هذا والعظيم الحليم القدير ينظرهم ولا يعجل عليهم ، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم ، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم ، والإنذار إليهم أخذ عزيز مقتدر ، فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفا لمن أشبههم من الكافرين ، ومثلا لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين ، كما قال تبارك وتعالى وهو

(١) الأعراف آية : ١٣٤
(٢) الأعراف الآيتان : ١٣٤ - ١٣٥

أصدق القائلين فى سورة حمٓ والكتاب المبين (الزخرف) : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إنى رسول رب العالمين * فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون * وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون * وقالوا يا أيها الساحر أدع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون * فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون * ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين * فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾[1] .

يذكر تعالى : رسالة عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم ، وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات ، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق ، وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ، ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم ، فإذا هم يضحكون ، وبها يستهزئون ، وعن سبيل الله يعرضون ، وعن الحق يصدون ، فأرسل الله عليهم الآيات تترى ، يتبع بعضها بعضا ، وكل آية أكبر من أختها ﴿ **وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون * وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون** ﴾ لم يكن لفظ الساحر فى زمنهم نقصا ولا عيبا ، لأن علماءهم فى ذلك الوقت هم السحرة ، ولهذا خاطبوه به فى حال احتياجهم إليه ، وضراعتهم لديه ، قال الله تعالى : ﴿ **فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون** ﴾ ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه ، وعظمة بلده وحسنها وتخرق الأنهار فيها ، وهى الخلجانات التى يكسرونها أمام زيادة النيل ، ثم تبجح بنفسه وحليته ، وأخذ ينتقص رسول الله موسى عليه السلام ويزدريه بكونه (لا يكاد يبيّن) يعنى كلامه بسبب ما كان فى لسانه من بقية تلك اللثغة التى هى شرف له وكمال وجمال ، ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه وأنزل بعد ذلك التوراة عليه ، وتنقصه فرعون لعنه الله بكونه لا أساور فى بدنه ، ولا زينة عليه ، وإنما ذلك من حلية النساء ، لا يليق بشهامة الرجال ، فكيف بالرسل ، الذين هم أكمل عقلا ، وأتم معرفة ، وأعلى همة ، وأزهد فى الدنيا ، وأعلم بما أعد الله لأوليائه فى الأخرى . وقوله : ﴿ **أو جاء معه الملائكة مقترنين** ﴾ لا يحتاج الأمر إلى ذلك إن كان المراد أن تعظمه الملائكة ، فالملائكة يعظمونه ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير ، كما جاء فى الحديث « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع »[2] فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والسلام والتسليم والتكريم ، وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة ، فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعا لذوى الألباب ، ولمن قصد إلى الحق والصواب ، ويعمى عما جاء به من البينات ، والحجج الواضحات من نظر إلى القشور وترك لب اللباب ، وطبع على قلبه رب الأرباب ، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب ، كما هو حال فرعون القبطى العمى الكذاب قال الله تعالى : ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه** ﴾ أى : استخف عقولهم ، ودرجهم من حال إلى حال ، إلى أن صدقوه فى دعواه الربوبية لعنه الله وقبحهم ﴿ **إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ . ﴿ **فلما آسفونا** ﴾ أى : أغضبونا (**انتقمنا منهم**) أى : بالغرق والإهانه ، وسلب العز والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة ، والهوان بعد الرفاهية ، والنار بعد طيب

---

(١) الزخرف الآيات : ٤٦ - ٥٦

(٢) اخرجه الإمام أحمد جـ ٤ ص ٢٣٩

العيش ، عياذا بالله العظيم ، وسلطانه القديم عن ذلك ـ (فَجَعَلْنَاهُمْ سلفا) أى : لمن اتبعهم فى الصفات (ومثلا) أى لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ، ممن بلغه حلية خيرهم ، وما كان من أمرهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين * وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون * وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا انهم إلينا لا يرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾[١] يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق ، وادعى ملكهم الباطل ، ووافقوه عليه وأطاعوه فيه ، اشتد غضب الرب القدير العزيز ، الذى لا يغالب ولا يمانع عليهم ، فانتقم منهم أشد الانتقام ، وأغرقه هو وجنوده فى صبيحة واحدة ، فلم يفلت منهم أحد ، ولم يبق منهم ديار ، بل كل قد غرق فدخل النار ، وأتبعوا فى هذه الدار لعنة بين العالمين ، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ، يوم القيامة هم من المقبوحين .

هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم ، متابعة لملكهم فرعون ، ومخالفة لنبى الله ورسوله موسى بن عمران عليه السلام ، وأقام الله على أهل مصر الحجج الباهرة العظيمة القاهرة ، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار ، وحير العقول ، وهم مع ذلك لا يرعون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون ، ولم يؤمن منهم إلا القليل ، قيل : ثلاثة ، وهم امرأة فرعون ـ ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ، ومؤمن آل فرعون ، الذى تقدم حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم ، والرجل الناصح الذى جاء يسعى من أقصى المدينة ، فقال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين قال ابن عباس ، فيما رواه ابن ابى حاتم عنه[٢] ، ومراده غير السحرة فإنهم كانوا من القبط . وقيل بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون ، والسحرة كلهم ، وجميع شعب بنى إسرائيل . ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾[٣] فالضمير فى قوله (إلا ذرية من قومه) عائد على فرعون ، لأن السياق يدل عليه . وقيل على موسى ، لقربه ، والأول أظهر ، كما هو مقرر فى التفسير ، وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته ، وجبروته وسلطته ، ومن ملائهم أن ينموا عليهم إليه ، فيفتنهم عن دينهم ، قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيدا : (وإن فرعون لعال فى الأرض) أى جبار عنيد مستعل بغير الحق (وإنه لمن المسرفين) أى فى جميع أموره وشئونه وأحواله ، ولكنه جرثومة قد حان انجعامها ، وثمرة خبيثة قد آن قطافها ، ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها ، وعند ذلك قال موسى : ﴿ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾[٤]

(١) القصص الآيات : ٣٦ ـ ٤٢
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٤٥٨ ط النهضة الحديثة .
(٣) يونس آية : ٨٣
(٤) يونس الآيات : ٨٤ ـ ٨٦

يأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه ، فأتمروا بذلك ، فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجا ومخرجاً ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا وإجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ﴾[١] أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام ، أن يتخذوا لقومهما بمصر بيوتا ، متميزه فيما بينهم عن بيوت القبط ، ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض ، وقوله : (وأجعلوا بيوتكم قبله) قيل مساجد ، وقيل : معناه كثرة الصلاة ، ومعناه على هذا الاستعانه على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة)[٢] وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى[٣] .

وقيل : معناه أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم فى مجتمعاتهم ومعابدهم فامروا أن يصلُّوا فى بيوتهم عوضاً عما فاتهم من إظهار شعار الدين الحق فى ذلك الزمان الذى اقتضى حالهم إخفاءه خوفاً من فرعون وملائه . والمعنى الأول أقوى لقوله : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ وإن كان لا ينافى الثانى والله أعلم .

﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروُا العذاب الأليم ● قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾[٤] قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب : استأذن بنو اسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم فأذن لهم وهو كاره ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له وإنما كان فى نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم ، وأمرهم الله تعالى فيما ذكره أهل الكتاب أن يستعيروا حلياً منهم فأعاروهم شيئاً كثيراً فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام ، فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم وشرع فى استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم . قال الله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون * فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين * إن هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءَ الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معى ربى سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الأخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الأخرين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[٥] .

قال علماء التفسير : لما ركب فرعون فى جنوده طالباً بنى اسرائيل أن يقفوا أثرهم كان فى جيش كثيف عرمرم حتى قيل : كان فى خيوله مائة ألف فحل أدهم وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف والله أعلم . وقيل : إن بنى اسرائيل كانوا نحوا من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى ـ عليه السلام ـ ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستاً وعشرين سنة شمسية .

---

(١) يونس آية : ٨٧

(٢) البقرة آية : ٤٥ والآية رقم : ١٥٣

(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص٨٩ ط النهضة الحديثة .

(٤) سورة يونس الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .

(٥) سورة الشعراء الآيات : ٥٢ : ٦٨ .

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس وتراءى الجمعان ولم يبق ثم ريب ولا لبس وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون : إنا لمدركون ، وذلك لأنهم اضطروا فى طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه . وهذا مالا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهى شاهقة منيفة وفرعون قد غالقهم وواجههم وعاينوه فى جنوده وجيوشه وعَدده وعُدده وهم منه فى غاية الخوف والذعر لما قاسوا فى سلطانه من الإهانة والمنكر فشكوا إلى نبى الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه فقال لهم الرسول الصادق المصدوق : (كلا إن معى ربى سيهدين) وكان فى الساقة فتقدم إلى المقدمة ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ، ويتزايد زبد أجاجه وهو يقول : ههنا أمرت ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون وهو يومئذ من سادات بنى إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون - عليهما السلام - كما سنذكره فيما بعد - إن شاء الله - ومعهم أيضا **رجل** آل فرعون وهم وقوف وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف . ويقال : إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مرارا فى البحر هل يمكن سلوكه فلا يمكن ويقول لموسى - عليه السلام - يانبى الله أههنا أمرت . فيقول : نعم . فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر واقترب فرعون وجنوده فى جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم : (أن اضرب بعصاك) فلما ضربه يقال : إنه قال له : انفلق بإذن الله ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾[1] ويقال : إنه انفلق اثنتى عشرة طريقاً لكل سبط طريق يسيرون فيه ، وهكذا كان ماء البحر قائما مثل الجبال مكنوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذى يقول للشىء كن فيكون ، وأمر الله الريح فلفحت حال البحر فأذهبته حتى صار يابساً لا يعلق فى سنابك الخيول والدواب قال الله تعالى : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى * فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾[2] .

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المحال أمر موسى - عليه السلام - أن يجوزه ببنى إسرائيل فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ويهدى قلوب المؤمنين ، فلما جاوزه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه فأراد موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه . ولا سبيل عليه فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال وهو الصادق فى المقال : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم * أن أدوا إلىَّ عباد الله إنى لكم رسول أمين ، وأن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين . وإنى عُذت بربى وربكم أن ترجمون * وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون . فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون * واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون * كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا

---

(١) سورة الشعراء الآية : ٦٣ .

(٢) سورة طه الآيات : ٧٧ - ٧٩

منظرين * ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين * ولقد اخترناهم على علم على العالمين * وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴾[١] . فقوله تعالى : ﴿ **واترك البحر رهواً** ﴾ أى ساكناً على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة . فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعاين ما عاين هاله هذا المنظر العظيم وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم فأحجم ولم يتقدم وندم فى نفسه على خروجه فى طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العدا وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه أنظروا كيف انحسر البحر لى لأدرك عبيدى الآبقين من يدى الخارجين عن طاعتى وبلدى وجعل يورّى فى نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيهات ويقدم تارة ويحجم تارات ، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموه وراءه مسرعين فحصلوا فى البحر أجمعين أكتعين أبصعين حتى هم أولهم بالخروج منه فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانطم عليهم البحر فلم ينج منهم إنسان . قال الله تعالى : ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[٢] أى فى إنجائه أولياءه ، فلم يغرق منهم أحد ، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة وقال تعالى : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين * الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾[٣] يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ليكون أقر لأعين بنى إسرائيل وأشفى لنفوسهم ، فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به وباشر سكرات الموت أناب حيئنذ وتاب وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانها كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾[٥] .

وهكذا دعا موسى على فرعون وملائه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، أى حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم وقد قال تعالى أى لموسى وهارون حين دعوا بهذا : (قد أجيبت دعوتكما) فهذا من إجابة الله دعوة كليمه وأخيه هارون ـ عليهما السلام ـ .

وقوله تعالى : ﴿ ءالآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾[٦] استفهام إنكار ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك لأنه والله أعلم لو رُدَّ إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون : ﴿ ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾[٧]

---

(١) سورة الدخان الآيات : ١٧ ـ ٣٣ .
(٢) سورة الشعراء الآيات : ٦٥ ـ ٦٨ .
(٣) سورة يونس الآيات : ٩٠ ـ ٩٢ .
(٤) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ .
(٥) سورة غافر الآيتان : ٨٤ ـ ٨٥ .
(٦) سورة يونس الآية : ٩١ .
(٧) سورة الأنعام الآية : ٢٧ .

قال الله : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾[٢] قال ابن عباس وغير واحد : شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون حتى قال بعضهم : إنه لا يموت فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع . قيل : على وجه الماء وقيل : على فجوة من الأرض وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه . ولهذا قال : (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) أى : مصاحباً درعك المعروفة بك (لتكون) أى أنت آية (لمن خلفك) أى من بنى إسرائيل دليلا على قدرة الله الذى أهلكه . وقد كان هلاكه وجنوده يوم عاشوراء كما قال الإمام البخارى فى صحيحه عن ابن عباس قال : قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون قال النبى ﷺ : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموا »[٣] . وأصل هذا الحديث فى الصحيحين وغيرهما والله أعلم .

أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون * وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين * وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾[٤] .

يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده فى غرقهم وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم وأورث بنى إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) أى أهلك ذلك جميعه وسلبهم عزهم العزيز العريض فى الدنيا وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا . .

﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ قالوا هذا الجهل والضلال وقد عاينوا من آيات الله وقدرته مادلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذى الجلال والإكرام وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناما . قيل : كانت على صور البقر فكأنهم سألوهم لم يعبدونها فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم فى ذلك فسألوا

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٢٨ .
(٢) سورة يونس الآية : ٩٢ .
(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الصيام ـ باب صوم عاشوراء ص ٢٥١ رقم ٦٩٢ .
(٤) سورة الأعراف الآيات : ١٣٦ ـ ١٤١ .

نبيهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة فقال لهم مبيناً لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون إن هؤلاء متبر ما هم فيه باطل ما كانوا يعملون . ثم ذكرهم نعمة الله عليهم فى تفضيله إياهم على عالمى زمانهم بالعلم والشرع والرسول الذى بين أظهرهم وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد وإهلاكه إياه وهم ينظرون وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملاه يجمعونه من الأموال والسعادة وما كانوا يعرشون * وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له لأنه الخالق الرازق القهار وليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال بل هذا الضمير عائد على الجنس فى قوله : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ أى : قال بعضهم والذين زعموا هذا ، بعض الناس لا كلهم وقد قال الامام أحمد عن أبى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلنا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها فقال النبى ﷺ الله أكبر قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم »[1] والمقصود أن موسى ـ عليه السلام ـ لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم فأمرهم موسى ـ عليه السلام ـ بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم من بيت المقدس فإن الله كتبه لهم ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف وألقاهم فى التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون فى مدة من السنين طويلة هى من العدد أربعون كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين * ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون * قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾[2] . يذكرهم نبى الله ، نعمة الله عليهم وإحسانه عليهم بالنعم الدينية والدنيوية ويأمرهم بالجهاد فى سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال : (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم) أى لا تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا على قتال أعدائكم (فتنقلبوا خاسرين) أى : فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال (قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين) أى : عتاة كفرة متمردين و (إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا فإنا داخلون) خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأسا وأكثر جمعا وأعظم جندا وهذا يدل على أنهم ملومون فى هذه المقالة ومذمومون على هذه الحالة من الذلة عن مصاولة الأعداء ومقاومة المردة الأشقياء .

---

(١) مسند أحمد ٥/٢١٨ .

(٢) سورة المائدة الآيات : ٢٠ ـ ٢٦ .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاما جداً . .

(قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما) أى : يخافون الله ، أنعم الله عليهما بالإسلام والإيمان ، والطاعة والشجاعة . (ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) أى : إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم (قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد ووقع أمر عظيم ووهن كبير . ويقال : إن موسى وهارون سجدا إعظاما لهذا الكلام وغضبا لله - عز وجل - وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة.(قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) قال ابن عباس : أى « اقض بينى وبينهم » . (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) عوقبوا على نكولهم بالتيهان فى الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلا ونهاراً وصباحاً ومساء ويقال : إنه لم يخرج واحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم فى مدة أربعين سنة ولم يبق إلا ذراريهم سوى يوشع بن نون وكالب - عليهما السلام - لكن أصحاب محمد ﷺ لم يقولوا كما قال قوم موسى لموسى بل لما استشارهم ﷺ فى الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن ، وغيره من المهاجرين ، ثم جعل يقول : أشيروا علىَّ حتى قال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يارسول الله فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله فسُر رسول الله ﷺ - بقول سعد وبسطه ذلك »[1] وقال الإمام أحمد عن طارق هو ابن شهاب إن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر : يارسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون . (وهذا إسناد جيد من هذا الوجه وله طرق أخرى)[2] وفى رواية أخرى له « لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت وجه رسول الله ﷺ - يشرق لذلك وسُر بذلك »[3] .

دخول بنى إسرائيل التيه وما فيه من الأمور العجيبة

قال الله تعالى : ﴿ يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات مارزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى * وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾[4] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير - فى غزوة بدر ٣/٢٦٢ وقال : هكذا رواه ابن إسحاق وله شواهد من وجوه كثيرة .

(٢) البخارى - كتاب المغازى - باب قصة غزوة بدر ٥/٩٣ (ومسند أحمد ١/٣٩٠) .

(٣) مسند أحمد ١/٤٢٨ .

(٤) سورة طه الآيات : ٨٠ - ٨٢ .

يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بنى إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وإنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن أى منهم لينزل عليه أحكاما عظيمة فيها مصلحة لهم فى دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم فى حال شدتهم وضرورتهم فى سفرهم فى الأرض التى ليس فيها زرع ولا ضرع مناً من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم فيأخذون منه قدر حاجتهم فى ذلك اليوم إلى مثله من الغد ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد ، ومن أخذ منه قليلاً كفاه أو كثيراً لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبز وهو فى غاية البياض والحلاوة فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشاهم وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام وهو السحاب الذى يستر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر كما قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون ﴾[1] إلى أن قال سبحانه : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم * وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون * وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون * وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون * وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم * وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون * وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[2] إلى أن قال سبحانه : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم * كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾[3] .

فذكر سبحانه وتعالى إنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المن والسلوى طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعى لهم فيه بل ينزل الله المن باكراً ويرسل عليهم طير السلوى عشياً وأنبع الماء لهم بضرب موسى - عليه السلام - حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط عين منه تنبجس . ثم تتفجر ماءاً زلالا فيستقون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم وظلل عليهم الغمام من الحر . وهذه نعم من الله عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها ثم ضجر كثير منها وتبرموا بها وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلا : ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾[4] أى : هذا الذى تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التى

(١) سورة البقرة الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .
(٢) سورة البقرة الآيات : ٤٩ - ٥٧ .
(٣) سورة البقرة الآيتان : ٦٠ ، ٦١ .
(٤) سورة البقرة من الآية : ٦١ .

أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها وإذا هبطتم إليها أى ونزلتم عن هذه المرتبة التى لا تصلحون لمنصبها تجدوا بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية ولكنى لست أجيبكم إلى سؤال ذلك هاهنا ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه كما قال تعالى : ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾[1] أى : فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار وقد حل عليه غضب الملك الجبار ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد فقال سبحانه : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾[2] .

سؤال الرؤية

قال تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين * ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين * قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين * وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظةً وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين * سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآيتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾[3] .

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد : الثلاثون ليلة هى شهر ذى القعدة بكماله وأتمت أربعين ليلة بعشر ذى الحجة فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر وفى مثله أكمل الله ـ عز وجل ـ لمحمد ـ ﷺ ـ دينه وأقام حجته وبراهينه . والمقصود أن موسى ـ عليه السلام ـ لما استكمل الميقات وكان فيه صائما يقال : إنه لم يستطعم الطعام فلما كمل الشهر أخذ لحا شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه فأمر الله أن يمسك عشراً أخرى فصارت أربعين ليلة ولهذا ثبت فى الحديث « أن خُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »[4] فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بن إسرائيل أخاه هارون المحبب المبجل وهو ابن أمه وأبيه ووزيره فى الدعوة إلى مصطفيه فوصاه وأمره وليس فى هذا لعلو منزلته فى نبوته منافاة . قال الله تعالى : ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا** ﴾ أى : فى الوقت الذى أمر بالمجىء فيه (**وكلمه ربه**) أى كلمه الله من وراء حجاب إلا أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه وقربه وأدناه وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ومنصب شريف ومنزل منيف فصلوات الله عليه تترى وسلامه عليه فى الدنيا والآخرة . ولما أعطى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية وسمع الخطاب سأل رفع الحجاب فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار القوى البرهان : ﴿ **ربى أرنى أنظر إليك قال لن ترانى** ﴾ ثم يبين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى لأن

---

(١) سورة طه من الآية : ٨١ .
(٢) سورة طه الآية : ٨٢ .
(٣) سورة الأعراف الآيات : ١٤٢ - ١٤٧ .
(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الصيام ـ باب فضل الصيام ص ٢٥٥ رقم ٧٠٧ .

الجبل الذى هو أقوى وأكبر ذاتا وأشد ثباتاً من الإنسان لا يثبت عند التجلى من الرحمان ولهذا قال : ﴿ **ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى** ﴾ وفى الصحيح عن أبى موسى عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : حجابه النور وفى رواية النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[١] وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ ذاك نوره الذى هو نوره إذا تجلى لشىء لا يقوم له شىء ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين** ﴾ قال مجاهد : ﴿ **ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى** ﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقا فلما تجلى ربه للجبل فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا . ﴿ **فلما أفاق** ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشى ﴿ **قال سبحانك** ﴾ تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد ﴿ **تبت إليك** ﴾ أى : فلست أسأل بعد هذه الرؤ ية ﴿ **وأنا أول المؤمنين** ﴾ أنه لا يراك حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده . وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « لا تخيرونى من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلى أو جوزى بصعقة الطور » وهذا من باب الهضم والتواضع أو نهى عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات وليس ينال هذا بمجرد الرأى بل بالتوقيف .

ولا شك أن صلوات الله وسلامه عليه أفضل البشر بل الخليقة قال الله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ وما كملوا إلا بشرف نبيهم وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه إنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر »[٢] ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون والذى تحيد عنه الأنبياء والمرسلون حتى أولو العزم الأكملون نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم . وقوله ـ ﷺ ـ « فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش » أى آخذاً بها ، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور »[٣] دليل على أن هذا الصعق الذى يحصل للخلائق فى عرصات القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء فيجد موسى باطشا بقائمة العرش قال الصادق المصدوق : « لا أدرى أصعق قبلى فأفاق قبلى » أى : كانت صعقته خفيفة لأنه قد ناله بهذا السبب فى الدنيا صعق أو جوزى بصعقة الطور يعنى فلم يصعق بالكلية ولهذا نبه رسول الله ـ ﷺ ـ على شرفه وفضليته بهذه الصفة بقوله تعالى : ﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾[٤] أى : فى ذلك الزمان لا ما قبله لأن إبراهيم الخليل أفضل منه كما تقدم بيان ذلك فى قصة إبراهيم ولا ما بعده لأن محمداً ـ ﷺ ـ أفضل منها كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء . وقوله

---

(١) مسند أحمد ٤٠١/٤

ومسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب قوله عليه السلام إن الله لا ينام ١٦٢/١ رقم ١٧٩ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الفضائل ـ باب فضائل موسى ص ٦٢٦ رقم ١٥٣٥ .

(٣) سنن الترمذى ـ كتاب المناقب ـ باب ما جاء فى فضل النبى ﷺ ٢٤٧/٥ رقم ٣٦٩٣ وسنن ابن ماجه ـ كتاب الزهد ـ باب ذكر الشفاعة ١٤٤٠/٢ رقم ٤٣٠٨ .

(٤) سورة الأعراف من الآية : ١٤٤ .

تعالى : ﴿ فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾[١] أى : فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ولا تسأل زيادة عليه ، وكن من الشاكرين على ذلك . قال تعالى : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ﴾[٢] وكانت الألواح من جوهر نفيس ففى الصحيح « أن الله كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ عن الآثام وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام » ﴿ فخذها بقوة ﴾ أى : بعزم ونية صادقة قوية : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ أى يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل مجاملها . ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ أى : سترون عاقبة الخارجين عن طاعتى المخالفين لأمرى المكذبين لرسلى . ﴿ سأصرف عن آياتى ﴾ عن فهمها وتدبرها وتعقل معناها الذى أريد منها ودل عليه مقتضاها : ﴿ الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾[٣] أى : ولو شاهدوا ، مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات لا ينقادوا لاتباعها ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ﴾[٤] أى لا يسلكوه ولا يتبعوه . ﴿ وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾[٥] أى : صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا وتغافلهم عنها ، وإعراضهم عن التصديق بها والتفكير فى معناها وترك العمل بمقتضاها ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾[٦] .

قصة عبادتهم العجل فى غيبة موسى

قال الله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين * ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إلية قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين * قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين * والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾[٧] وقال تعالى : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى * قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى * قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى * فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى * أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً * ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا *

(١ ، ٢) سورة الأعراف الآيتان : ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٣ - ٦) سورة الأعراف الآيتان : ١٤٦ - ١٤٧ .

(٧) سورة الأعراف الآيات : ١٤٨ - ١٥٤ .

ألا تتبعنِ أفعصيت أمرى * قال يَبْنَؤُمَّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى * قال فما خطبك يا سامرى * قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى * قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً * إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما ﴾[1] .

يذكر تعالى ما كان من أمر بنى إسرائيل حين ذهب موسى - عليه السلام - إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى - عليه السلام - عن أشياء كثيرة وهو تعالى يجيبه عنها فعمد رجل منهم يقال له هارون السامرى فأخذ ما كان استعاره من الحلى فصاغ منه عجلا وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقى . ويقال إنه استحال عجلا جسداً أى لحما ودماً حياً يخور . قاله قتادة وغيره وقيل : بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة فيرقصون حوله ويفرحون ﴿ **فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى** ﴾ أى : فنسى موسى ربه عندما ذهب يتطلبه وهو ههنا تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وتقدست أسماؤه وصفاته وتضاعفت آلاؤه وعداته . قال الله تعالى مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه وما عولوا عليه من آلهية هذا الذى قصاراه أن يكون حيواناً بهيما وشيطاناً رجيما : ﴿ **أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضَرًّا ولا نفعا** ﴾ وقال : ﴿ **ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين** ﴾ . **فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جوابا ولا يملك ضراً ولا نفعا ولا يهدى إلى رشد اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم عالمون فى أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال** ﴿ **ولما سقط فى أيديهم** ﴾ أى ندموا على ما صنعوا ﴿ **ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ ولما رجع موسى - عليه السلام - إليهم ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ومعه الألواح المتضمنة التوراة ألقاها حين عاين ما عاين ، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل فأمره بمعاينة ذلك . ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - . « ليس الخبر كالمعاينة »[2] ؛ ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم فى صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح قالوا ﴿ **حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى** ﴾ تحرجوا من تملك حلى آل فرعون وهو أهل حرب وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذى له خوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار . ثم أقبل على أخيه هارون - عليهما السلام - قائلا له : ﴿ **يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألَّا تتبعنِ** ﴾ أى : هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتنى فأعلمتنى بما فعلوا فقال : ﴿ **إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل** ﴾ أى تركتهم وجئتنى وأنت قد استخلفتنى فيهم وقد كان هارون - عليه السلام - نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهى وزجرهم عنه أتم الزجر قال الله تعالى : ﴿ **ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى** ﴾ أى إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختباراً لكم ،

---

(١) سورة طه الآيات : ٨٣ - ٩٨ .

(٢) مسند أحمد ٢١٥/١ .

﴿ وإن ربكم الرحمن ﴾ أى لا هذا ﴿ فاتبعونى ﴾ أى فيما أقول لكم ﴿ وأطيعوا أمرى ﴾ ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ يشهد الله لهارون ـ عليه السلام ـ وكفى بالله شهيدا . أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوا ولم يتبعوه ثم أقبل موسى على السامرى : ﴿ قال فما خطبك يا سامرى ﴾ أى : ما حملك على ما صنعت ﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ أى رأيت جبريل وهو راكب فرساً ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ أى : من أثر فرس جبريل . وقد ذكر بعضهم أنه رآه وكلما وطئت بحوافرها على موضع اخضر وأعشب فأخذ من أثر حافرها فلما ألقاها فى هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ولهذا قال : ﴿ فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى * قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ﴾ وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحداً معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه . هذا معاقبة له فى الدنيا ثم توعده فى الآخرة فقال : ﴿ وإن لك موعداً لن تخلفه ﴾ ﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً ﴾ قال فعمد موسى ـ عليه السلام ـ إلى هذا العجل فحرقه بالنار ثم ذراه فى البحر وأمر بنى إسرائيل فشربوا فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه وقيل : بل اصفرت ألوانهم ثم قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لهم : ﴿ إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين ﴾ مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة . ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده فى قبوله توبة من تاب إليه بتوبته فقال : ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ . لكن لم يقبل الله توبة عابدى العجل إلا بالقتل كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذالكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾(١) . فيقال : إنهم أصبحوا يوما وقد أخذ من لم يعبد العجل فى ايديهم السيوف وألقى الله عليهم ضباباً حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه ، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال : إنهم قتلوا فى صبيحة واحدة سبعين ألفا ثم قال تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾(٢) .

ثم ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾(٣) .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٥٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٥٤ .

(٣) سورة الأعراف الآيات : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

قال محمد بن اسحق : اختار موسى من بنى اسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقالوا : انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله فقال أفعل فلما دنا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل . فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ أى : لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا برءاء مما عملوا . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج : إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل . وقوله : ﴿ **إن هى إلا فتنتك** ﴾ أى اختبارك وابتلاؤك وامتحانك . ﴿ **تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء** ﴾ أى من شئت أضللته باختبارك اياه ومن شئت هديته . لك الحكم والمشيئة ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت ﴿ **أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك** ﴾ أى تبنا إليك ورجعنا وأنبنا .

﴿ **قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ أى : أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التى أخلقها وأقدرها ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ كما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتابا فهو موضوع عنده فوق العرش أن رحمتى تغلب غضبى »[1] ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ أى فسأوجبها حتما لمن يتصف بهذه الصفات ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى** ﴾ الآية : وهذا تنويه بذكر محمد ـ ﷺ ـ وأمته من الله لموسى ـ عليه السلام ـ فى جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه . وقد تكلمنا عن هذه الآية وما بعدها فى التفسير ولله الحمد والمنة .

قصة بقرة بنى إسرائيل

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون * وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربو ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾[2] .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب التوبة ـ باب سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه ص٧٤٧ رقم ١٧٤٩ .
(٢) سورة البقرة الآيات : ٦٧ ـ ٧٣ .

قال ابن عباس وعبيدة السلمانى وأبو العالية ومجاهد والسدى وغير واحد من السلف : كان رجل فى بنى إسرائيل كثير المال وكان شيخاً كبيراً وله بنو أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله من الليل وطرحه فى مجمع الطرق . ويقال على باب رجل منهم فلما أصبح الناس اختصموا فيه وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا : ما لكم تختصمون ولا تأتون نبى الله فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمه إلى رسول الله موسى - ﷺ - فقال موسى - عليه السلام : أنشد الله رجلا عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به فلم يكن عند أحد منهم علم منه وسألوه أن يسأل فى هذه القضية ربه - عز وجل - فسأل ربه - عز وجل - فى ذلك فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال : ﴿ **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً** ﴾ يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول هذا قال : ﴿ **أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين** ﴾ أى : أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى لى . وهذا هو الذى أجابنى حين سألته عما سألتمونى عنه أن أسأله فيه . قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدى وغير واحد : فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها ولكنهم شددوا فشدد عليهم . فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سنها فأجيبوا بما عز وجوده عليهم وقد ذكرنا فى تفسير ذلك كله فى التفسير . والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان وهى الوسط بين النصف الفارض وهى الكبيرة والبكر وهى الصغيرة . ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها فأمروا بصفراء فاقع لونها أى مشرب بحمرة تسر الناظرّين . وهذا اللون عزيز ثم شددوا أيضا : ﴿ **قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾ وهذه الصفات أضيق مما تقدم حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول وهى المذللة بالحراثة وسقى الأرض بالسانية مسلمة وهى الصحيحة التى لا عيب فيها قاله أبو العالية وقتادة وقوله : ﴿ **لاشية فيها** ﴾ أى : ليس فيها لون يخالف لونها بل هى مسلمة من العيوب ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها فلما حددها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والأوصاف . ﴿ **قالوا الآن جئت بالحق** ﴾ ويقال إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه فطلبوها منه فأبى عليهم ، فرغبوه فى ثمنها حتى أعطوه فيما ذكر السدى بوزنها ذهباً فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مرات فباعها لهم فأمرهم نبى الله موسى بذبحها : ﴿ **فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾ أى : وهم يترددون فى أمرها . ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها ، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام وهو يشخب أدراجه فسأله نبى الله من قتلك قال قتلنى ابن أخى . ثم عاد ميتاً كما كان ، قال الله تعالى : ﴿ كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ أى : كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له كذلك أمره فى سائر الموتى إذا شاء أحياهم فى ساعة واحدة كما قال عز وجل : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾[1] .

---

(١) سورة لقمان الآية : ٢٨ .

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً * فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سرباً * فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا * قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً * قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً * فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً * قال إنك لن تستطيع معى صبراً * وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً * قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً * قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً * فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً * قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً * فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً * قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً * قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً * أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً * وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً * فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً * وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾[1]..

قال البخارى : عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى اسرائيل ، قال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه بأن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى يا رب وكيف لى به . قال تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم . فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر واتخذ سبيله فى البحر سربا . وأمسك الله عن الحوت جريه الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد ﴿ **قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا** ﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به (قال) له فتاه ﴿ **أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً** ﴾ قال فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا (قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا) قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام قال : أنا موسى

---

(١) سورة الكهف الآيات : ٦٠ - ٨٢ .

قال : موسى بنى إسرائيل قال : نعم أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً ﴿ **قال إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، فقال : ﴿ **ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً** ﴾ قال له الخضر : (فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) (فانطلقا) يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول . فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ **لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا** ﴾ (قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً * قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) قال . وقال رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت الأولى من موسى نسيانا قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر : ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضرُ رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى : ﴿ **أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى ، قال : (إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض) قال : مائل فقال الخضر بيده : (فأقامه) فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا (لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال : (هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) قال رسول الله ـ ﷺ ـ وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا ، وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين »[(١)] .

وقوله : ﴿ **وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة** ﴾ قال السهيلى : وهما أصرم وصريم ابنا كاشح ﴿ **وكان تحته كنز لهما** ﴾ قيل : كان ذهبا ، قاله عكرمة وقوله : ﴿ **وكان أبوهما صالحا** ﴾ وقد قيل : إنه كان الأب السابع وقيل : العاشر وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته والله المستعان . وقوله : ﴿ **رحمة من ربك** ﴾ دليل على أنه كان نبيا وأنه ما فعل شيئا من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبى وقيل : رسول وقيل : ولى . والذى عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان فى زمن أفريدون ، ويقال : إنه كان على مقدمة ذى القرنين الذى قيل إنه كان أفريدون وذو الفرس هو الذى كان فى زمن الخليل ، وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن . وقد قال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم ﴾ الآية[(٢)] فأخذ الله ميثاق كل نبى على أن يؤمن بمن يجىء بعده من الأنبياء وينصره فلو كان الخضر حيا فى زمانه لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة ، وقصارى الخضر ـ عليه السلام ـ أن يكون نبيا وهو الحق أو رسولا كما قيل أو ملكا فيما ذكر وأيا ما كان فجبريل رئيس الملائكة وموسى أشرف من الخضر ولو كان حيا لوجب عليه

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب بدء الخلق ـ باب حديث الخضر مع موسى ١٨٨/٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٨١ .

الإيمان بمحمد - ﷺ - ونصرته فكيف إن كان الخضر وليا كما يقوله طوائف كثيرون فأولى أن يدخل فى عموم البعثة وأحرى ، ولم ينقل فى حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوما واحدا إلى رسول الله - ﷺ - ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التعزية فيه وإن كان الحاكم قد رواه فإسناده ضعيف والله أعلم .

قصة قارون مع موسى - عليه السلام -

قال تعالى : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون * فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون * فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين * وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون * تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾[1] قال الأعمش بسنده عن ابن عباس قال كان **قارون ابن عم موسى** ، قال ابن جريج وهذا قول أكثر أهل العلم أنه كان ابن عم موسى .

وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه حتى أن مفاتيحه كان يثقل حملها على القيام من الرجال الشداد وقد قيل : إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلا ، والله أعلم ، وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين لا تفرح . أى لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك ﴿ **إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة** ﴾ يقولون : لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله فى الدار الآخرة فإنه خير وأبقى ومع هذا ﴿ **لا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ أى : وتناول منها بمالك ما أحل الله لك فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال ﴿ **وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾ أى : وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك ﴿ **ولا تبغ الفساد فى الأرض** ﴾ فما كان جواب قومه . لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن : ﴿ **قال إنما أوتيته على علم عندى** ﴾ يعنى أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ولا إلى ما إليه أشرتم فإن الله إنما أعطانى هذا لعلمه أنى أستحقه وأنى أهل له ، ولولا أنى حبيب إليه وحظى عنده لما أعطانى ما أعطانى ، قال الله تعالى رداً على ما ذهب إليه : ﴿ **أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ أى : قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالا وأولاداً فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالاً منه ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به كما قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾[2] وقال تعالى :

---

(١) سورة القصص الآيات : ٧٦ - ٨٣ .

(٢) سورة سبأ الآية : ٣٧ .

﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾[1] وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله : ﴿ **إنما أوتيته على علم عندى** ﴾ وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله فى جمع الأموال فليس بصحيح .

قال الله تعالى : ﴿ **فخرج على قومه فى زينته** ﴾ ذكر كثير من المفسرين أنه خرج فى تجمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله فلما سمع مقالتهم العلماء ذووا الفهم الصحيح ، الزهاد الألباء قالوا لهم : ﴿ **ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون** ﴾ أى : ثواب الله فى الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى ﴿ **ولا يلقاها إلا الصابرون** ﴾ أى : وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده وأيد لبه وحقق مراده وما أحسن ما قال بعض السلف إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات . قال الله تعالى : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** ﴾ لما ذكر تعالى خروجه فى زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها قال جل فى علاه : ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ كما روى البخارى عن سالم عن أبيه عن النبى ﷺ قال : (بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة)[2] .

وقد ذكر ابن عباس والسدى أن قارون أعطى امرأة بغياً مالاً على أن تقول لموسى ـ عليه السلام ـ وهو فى ملأ من الناس إنك فعلت بى كذا وكذا فيقال إنها قالت له : ذلك فأرعد من الفرق وصلى ركعتين . ثم أقبل عليها فاستحلفها من دلك على ذلك وما حملك عليه فذكرت أن قارون هو الذى حملها على ذلك واستغفرت الله وتابت إليه فعند ذلك خر موسى لله ساجداً ودعا الله على قارون فأوحى الله إليه إنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين** ﴾[3] لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال : ﴿ **فما له من قوة ولا ناصر** ﴾[4] ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار وإهلاك النفس والأهل والعقار ندم من كان تمنى مثل ما أوتى وشكروا الله تعالى الذى يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ولهذا قال : ﴿ **لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾ ثم أخبر سبحانه : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً** ﴾ الدار الآخرة وهى دار القرار وهى الدار التى يغبط من أعطيها ويعزى من حرمها إنما هى مسعدة للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً . فالعلو هو التكبر ، والفخر والأشر

---

(١) سورة المؤمنون الآية : ٥٥ .
(٢) البخارى - كتاب الباس - باب من جر ثوبه من الخيلاء ١٨٣/٧ .
(٣) سورة القصص الآية : ٨١ .
(٤) سورة الطارق الآية : ١٠ .

والبطر ، والفساد هو عمل المعاصى اللازمة والمتعدية من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم وعدم النصح لهم ثم قال تعالى : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ . وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر لقوله : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ ، فإن الدار ظاهرة فى البنيان ، وقد تكون بعد ذلك فى التيه وتكون الدار عبارة عن المحلة التى تضرب فيها الخيام . والله أعلم .

وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون فى غير ما آية من القرآن . قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴾[١] وقال تعالى فى سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود : ﴿ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين * فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٢] فالذى خسف به الأرض قارون كما تقدم والذى أغرق فرعون وهامان وجنودهما إنهم كانوا خاطئين .

باب فضائل موسى - عليه السلام - وشمائله ووفاته

قال الله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾[٤] .

وتقدم فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تفضلونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدرى أصعق فأفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور »[٥] . وقد قدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع وإلا فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض .

وقال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ إلى أن قال : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ﴾[٦] . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾[٧] قال الإمام أبو عبد الله البخارى[٨] : عن أبى هريرة

(١) سورة غافر الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) سورة العنكبوت الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .
(٣) سورة مريم الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .
(٤) سورة الأعراف الآية : ١٤٤ .
(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الفضائل - باب فضائل موسى ص ٦٢٦ رقم ١٥٣٥ .
(٦) سورة النساء الآيتان : ١٦٣ ، ١٦٤ .
(٧) سورة الأحزاب الآية : ٦٩ .
(٨) البخارى - كتاب بدء الخلق ٤/١٩٠ واللؤلؤ والمرجان - كتاب الفضائل - باب فضائل موسى ص ٦٢٥ رقم ١٥٣٢ ومسلم - كتاب الفضائل - باب فضائل موسى ٤/١٨٤٢ رقم ١٥٦ وأحمد ٢/٥١٥ .

قال : قال رسول الله ﷺ « إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى جلده شيء استحياء منه فأذاه من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص أو أُدْرَةٍ وإما آفة وأن الله عز وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر . ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ، ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً قال فذلك قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ وقد رواه الإمام أحمد ، ورواه مسلم .

قال بعض السلف : كان من وجاهته أنه شفع فى أخيه عند الله وطلب منه أن يكون معه وزيراً فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً كما قال : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ ثم قال البخارى بسنده عن الأعمش قال : سألت أبا وائل قال : سمعت عبد الله قال : « قسم رسول الله ﷺ قسماً فقال رجل إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأتيت النبى ﷺ فغضب حتى رأيت الغضب فى وجهه ثم قال يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر »[١] .

وقد ثبت فى الصحيح فى أحاديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلى فى قبره[٢] . وفى الصحيحين من رواية قتادة عن أنس بن مالك بن صعصعة عن النبى ﷺ أنه مر ليلة أسرى به بموسى فى السماء السادسة فقال له جبريل هذا موسى فسلم عليه قال : فسلمت عليه فقال : مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح فلما تجاوزت بكى قيل ما يبكيك ؟ قال أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى . وذكر ابراهيم فى السماء السابعة[٣] . . الحديث » .

واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ خمسين صلاة فى اليوم والليلة فمر بموسى قال ارجع إلي ربك فسله التخفيف لأمتك فإنى قد عالجت بنى إسرائيل قبلك أشد المعالجة وأن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ويخفف عنه فى كل مرة حتى صارت خمس صلوات في اليوم والليلة وقال الله تعالى : هى خمس وهى خمسون أى بالمضاعفة فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً .

وقال البخارى عن ابن عباس قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « عرضت عليّ الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق فقيل هذا موسى فى قومه »[٤] ، رواه البخارى مختصراً ، ورواه الإمام أحمد مطولاً عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « عرضت عليَّ الأمم فرأيت النبى ومعه الرهط والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد إذ رُفع لى سواد عظيم فقلت هذه أمتى فقيل هذا موسى

---

(١) البخارى ـ كتاب الأدب ـ باب الصبر على الأذى ٨/٣١ و٤/١٩١ .

(٢) مسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب فضائل موسى ٤ ـ ١٨٤٥ رقم ٢٣٧٥ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيا اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الإيمان ـ باب حديث الإسراء ص٣٦ رقم ١٠٣ .

(٤) البخارى فتح البارى ـ كتاب الأنبياء باب وفاة موسى وذكره بعد ٦/٤٤١ .

وقومه ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم ، ثم قيل انظر إلى هذا الجانب فإذا سواد عظيم فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب[1] ـ الحديث » .

وقد ذكر الله تعالى موسى ـ عليه السلام ـ في القرآن كثيراً وأثنى عليه وأورد قصته فى كتابه العزيز مراراً وكررها كثيراً مطولة ومبسوطة ومختصر وأثنى عليه بليغاً . وكثيراً ما يقرنه الله ويذكره ويذكر كتابه مع محمد ﷺ كما قال فى سورة البقرة : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ آلم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾[3] ، وقال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾[4] . فأثنى تعالى على التوراة ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيماً . وقال تعالى فى آخرها : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾[5] . وقال فى سورة المائدة : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ إلى أن قال : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون * وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ . . الآية[6] ، فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره وجعله مصدقاً لها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء مفهومهم وقصورهم فى علومهم ورداءة تصورهم وخيانتهم لمعبودهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ولهذا يوجد فى كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله مالا يحد ولا يوصف ومالا مثله ولا يعرف . وقال تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين * الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون * وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾[7] .

وقال تعالى فى سورة القصص : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون ، قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾[8] ، فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام . وقال الجن لقومهم : ﴿ إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴾[9] .

---

(١) مسند أحمد ٢٧١/١ .
(٢) سورة البقرة الآية : ١٠١ .
(٣) سورة آل عمران الآيات : ١ ـ ٤ .
(٤) سورة الأنعام الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .
(٥) سورة الأنعام الآيتان : ١٥٤ ، ١٥٥ .
(٦) سورة المائدة الآيات : ٤٤ ـ ٤٨ .
(٧) سورة الأنبياء الآيات : ٤٨ ـ ٥٠ .
(٨) سورة القصص الآيتان : ٤٨ ، ٤٩ .
(٩) سورة الأحقاف الآية : ٣٠ .

وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من الوحى وتلا عليه : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ قال : سبوح سبوح هذا الناموس الذى أنزل على موسى بن عمران[1] .

وبالجملة فشريعة موسى ـ عليه السلام ـ كانت عظيمة وأمته كانت أمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء وعباد وزهاد وأولياء وملوك وأمراء وسادات وكبراء . لكنهم كانوا فبادوا وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ، ومسخوا قردة وخنازير ، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان .

حجته عليه السلام إلى البيت العتيق

قال الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادى الأزرق فقال : أى واد هذا ؟ قالوا وادى الأزرق . قال : كأنى أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية حتى أتى على ثنية هرشاء فقال : أى ثنية هذه ؟ قالوا : هذه ثنية هرشاء قال : كأنى أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبة . قال هشيم يعنى ليفاً وهو يلبى . أخرجه مسلم من حديث داود بن أبى هند به .

ذكر وفاته عليه السلام

قال البخارى فى صحيحه (وفاة موسى عليه السلام) عن أبى هريرة قال : أرسل ملك الموت إلى موسى ـ عليه السلام ـ فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل فقال أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت قال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة . قال : أى رب ثم ماذا قال ثم الموت قال فالآن . قال فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة . رمية بحجر . قال أبو هريرة : فقال رسول الله ﷺ « فلو كنت ثَم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر »[2] .

وكأنه لم يعرفه فى تلك الصورة ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق إذ لم يتحقق فى الساعة الراهنة أنه ملك كريم لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحب وقوعها فى حياته من خروجه من التيه ودخولهم الأرض المقدسة وكان قد سبق فى قدرة الله أنه عليه السلام يموت فى التيه بعد هارون أخيه كما سنبينه إن شاء الله تعالى وقد زعم بعضهم أن موسى هو الذى خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة . وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين . ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت : رب أدننى إلى الأرض المقدسة رمية حجر . ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التى هاجر إليها وحث قومه عليها ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية بحجر ولهذا قال سيد البشر ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر ، فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر . وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما أسرى بى مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر »[3] رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الإيمان ـ باب بدء الوحى ص ٣٣ رقم ٩٩ .
مسند أحمد ١/٢١٥ ومسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله ١/١٥٢ رقم ١٦٦ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الفضائل ـ باب فضائل موسى ص ٦٢٥ رقم ١٥٣٣ .

(٣) مسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب فضائل موسى ١/١٨٤٥ رقم ٢٣٧٥ ومسند أحمد ٣/١٢٠

وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة .

وقد قال الإمام أحمد عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال يونس : رفع هذا الحديث إلى النبى ﷺ قال : كان ملك الموت يأتى الناس عيانا قال فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه فأتى ربه فقال يا رب عبدك موسى فقأ عينى ولولا كرامته عليك لعتبت عليه قال يونس لشفقت عليه . قال له اذهب إلى عبدى . فقل له فليضع يده على جلد أو مسك ثور فله بكل شعرة دارت يده سنة فأتاه فقال له : فقال : ما بعد هذا قال : الموت قال : فالآن قال : فشمه شمة فقبض روحه ، قال يونس : فرد الله عليه عينه وكان يأتى الناس خفية[1] . أ. هـ .

الوعد الحق

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا الْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

معانى المفردات

(يوم يقوم الأشهاد) : هو يوم القيامة ، (والأشهاد) : واحدهم شهيد بمعنى شاهد ، (والهدى) : ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع ، (والإبكار) : أول النهار إلى نصفه ، (العشى) : النصف إلى آخر النهار . (السلطان) : الحجة ، (داخرين) أى : صاغرين أذلاء .

---

(١) مسند أحمد ٥٣٣/٢ ومسلم كتاب الفضائل - باب فضائل موسى ١٨٤٣/٤ رقم ٢٣٧٢ .

المناسبة والمعنى الاجمالى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ فى أول السورة أنه لا يجادل فى آيات الله إلا القوم الكافرون ، ثم رد على أولئك المبطلين المجادلين تسلية لرسوله وتصبيراً له على تحمل أذى قومه ـ أردف ذلك وعده له بالنصرة على أعدائه فى الدنيا والآخرة وتلك سنة الله ، فهو ينصر الأنبياء والرسل ، ويقيض لهم من ينصرهم على أعدائهم ؛ ويملأ قلوبهم بنور اليقين ويلهمهم أن النصرة لهم آخراً مهما تقلبت بهم الأمور . وبعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنهم يجادلون فى آيات بغير سلطا ن، وكان من جدلهم أنهم ينكرون البعث ، ذكر برهاناً يؤ يد إمكان حدوثه ويبعد عن أذهانهم استحالته ، وهو خلقه للسموات والأرض ابتداء على عظم أجرامهما ومن قدر على ذلك فهو قادر على إعادتكم كما جاء فى الآية الأخرى : ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾[1] وبعد أن أثبت أن يوم القيامة حق ، وكان المرء لا ينتفع فيه إلا بطاعة الله والتضرع له ، وأشرف أنواع الطاعات الدعاء أى العبادة ، لا جرم أمر الله تعالى بها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾ .

يقول العلامة ابن كثير فى شرح هاتين الآيتين :

قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عند قوله : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا** ﴾ سؤالا ، فقال : قد علم أن بعض الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيبا ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصرة فى الدنيا ؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين (أحدهما) أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض قال وهذا سائغ فى اللغة (الثانى) أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم وسواء كان ذلك بحضرتهم أو فى غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيبا سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح ـ عليه السلام ـ من اليهود فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إماما عادلا وحكما مقسطا فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى فى خلقه فى قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم .

ولقد قال جل فى علاه لنبيه محمد ﷺ مبيناً له أنه سبحانه لابد أن ينتقم من المشركين إما حال حياته أو بعد موته ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون * أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون * فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ﴾[2] .

---

(١) سورة ياسين الآية : ٨١ .

(٢) سورة الزخرف الآيات : ٤١ ـ ٤٣ .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله - تبارك وتعالى - من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالحرب »[١] وفى الحديث الآخر « إنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب » ولهذا أهلك الله - عز وجل - قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط ، وأهل مدين وأشباههم وأحزابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق وأنجى الله تعالى - من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحداً وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً .

وقال السدى لم يبعث الله - عز وجل - رسولا قط إلى قوم فيقتلونه أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله - تبارك وتعالى - لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك به فى الدنيا قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون فى الدنيا وهم منصورون فيها وهكذا نصر الله نبيه محمدا - ﷺ - وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه فجعل كلمته هى العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهرانى قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصار وأعواناً ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم ، وخذلهم وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم فاستاقهم ، مقرنيين فى الأصفاد ، ثم منَّ عليهم بأخذه الفداء منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده وهو البلد الحرام المشرف المعظم فأنقذه الله - تعالى - به مما كان فيه من الكفر والشرك وفتح له اليمن ، ودانت له الجزيرة العربية ، بكمالها ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، ثم قبضه الله تعالى إليه لماله عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله - تبارك وتعالى - أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين الله - عز وجل - ودعوا عباد الله - تعالى - إلى الله - جل وعلا - وفتحوا البلاد والأقاليم ، والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية فى مشارق الأرض ومغاربها ، ثم لايزال هذا الدين قائما منصورا ظاهراً إلى يوم القيامة ولهذا قال تعالى : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ أى : يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل قال مجاهد : الأشهاد : الملائكة .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم** ﴾ وهم المشركون لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ **ولهم اللعنة** ﴾ أى : الإبعاد والطرد من الرحمة ، (ولهم سوء الدار) وهى النار قاله السدى : بئس المنزل والمقيل .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب * هدى وذكرى لأولى الألباب** ﴾ .

أى : ولقد أعطينا موسى من المعجزات والشرائع ما يهتدى به الناس فى الدنيا والآخرة ، وأنزلنا عليه التوراة هدى لقومه ، فتوارثوها خلفا عن سلف وصارت هداية لهم وتذكرة لأولى العقول السليمة التى بعدت من شوائب التقليد والوهم .

وقوله تعالى : ﴿ **فاصبروا إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار *** إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو

---

(١) صحيح البخارى - كتاب الرقاق - باب التواضع ٨/١٣١ .

السميع البصير ﴾ بعد أن بين سبحانه أنه ينصر رسله والمؤمنين وضرب لذلك مثلاً بحال موسى خاطب نبيه محمدا - ﷺ - بقوله : (فاصبر ان وعد الله حق) أى : فاصبر أيها الرسول لأمر ربك ، وبلغ قومك ومن أمرت بإبلاغه ما أنزل إليك وأيقن بأن الله منجزه وعده ، وناصرك وناصر من صدقك وآمن بك ، على من كذبك وأنكر ما جئت به من عند ربك . (واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار) وسل ربك غفران ذنبك وعفوه عنك وصلِّ شكرا له طرفى النهار . وهذا كقوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾[1] وكقوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾[2] .

ولما ابتدأ - عز اسمه - بالرد على الذين يجادلون فى آيات الله واتصل الكلام بعضه ببعض على النسق المتقدم ، نبه هنا إلى السبب الذى يحملهم على تلك المجادلة فقال : ﴿ **إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه** ﴾ أى : إن الذين يخاصمونك أيها الرسول فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات بغير حجة - ما يحملهم على هذا الجدل إلا كِبرٌ فى صدورهم يمنعهم عن اتباعك وعن قبول الحق الذى جئتهم به ، إذ لو سلموا بنبوتك لزمهم أن يكونوا تحت لوائك وطوع أمرك ونهيك ، لأن النبوة ملك ورياسة وهم فى صدورهم كبر لا يرضون معه أن يكونوا فى خدمتك ، وما هم ببالغى موجب الكبر وهو دفع الرياسة والنبوة عنك ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وليس ذلك بالذى يدرك بالأمانى . ثم أمر رسوله أن يستعيذ من هؤلاء المجادلين المتكبرين ، فيقيه من أذاهم وشرهم ويكلؤه ويحفظه منهم فقال : ﴿ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ أى : فالتجىء إلى الله - تعالى - فى دفع كيد من يشنؤك ويبغى عليك فهو السميع لأقوالهم ، البصير بأفعالهم ، لا يخفى عليه شىء منها .

قوله تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون * وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء قليلا ما تتذكرون * إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ .

﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ أى : لخلق السموات والأرض ابتداء من غير سبق مادة - أعظم فى النفوس وأجل فى الصدور ، من خلق الناس لكبر أجرامهما ، واستقرارهما من غير عمد ، وجريان الأفلاك بالكواكب بلا سبب ، وقد جرت العادة فى مزاولة الأفعال أن علاج الشىء الكبير العظيم أشق من علاج الشىء الصغير ، فمن قدر على ذلك قدر على ما دونه كما قال - عز وجل - ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير ﴾[3] ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعا

---

(١) سورة ق الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) سورة طه الآية : ١٣٠ .

(٣) سورة الأحقاف الآية : ٣٣ .

لكم ولأنعامكم ﴾[١] وكقوله تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾[٢]

قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض وينكرون المعاد استبعادا وكفرا وعنادا وقد اعترفوا بما هو أولى بما أنكروا . ثم قال تعالى : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء قليلا ما تتذكرون ﴾ أى : كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره ، بل بينهما فرق عظيم كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار . (قليلا ماتتذكرون) أى : ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾[٣] وكقوله تعالى فى سورة هود بعد ماتحدث عن الكافرين والمؤمنين ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون ﴾[٤] . وكقوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار * أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار * كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾[٥] وكقوله جل فى علاه : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[٦] وكقوله عز وجل : ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون * أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون * وأما الذين كفروا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾[٨] أى : أن يوم القيامة الذى يحيى فيه الله الموتى للثواب والعقاب لآت لاشك فيه ، فأيقنوا بمجيئه ، وأنكم مبعوثون من بعد مماتكم ، ومجازون بأعمالكم ، فتوبوا إلى ربكم واشكروا له جزيل إنعامه ، ليدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ أى : ولكن أكثر الناس لا يصدقون بمجيئه ومن ثم ركبوا رءوسهم وعاثوا فى الأرض فسادا ، واجترحوا السيئات دون خوف الرقيب الحسيب . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[٩] .

قوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[١٠]

---

(١) سورة النازعات الآيات : ٢٧ ـ ٣٣ .
(٢) سورة ق الآيات : ٦ ـ ٨ .
(٣) سورة فاطر الآيات : ١٩ ـ ٢٢ .
(٤) سورة هود الآية : ٢٤ .
(٥) سورة ص الآيات : ٢٧ ـ ٢٩ .
(٦) سورة الجاثية الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .
(٧) سورة السجدة الآيات : ١٨ ـ ٢٠ .
(٨) سورة غافر الآية : ٥٩ .
(٩) سورة الحج الآيتان : ٦ ، ٧ .
(١٠) سورة غافر الآية : ٦٠ .

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة . قال الإمام أحمد عن النعمان بن بشير ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ ـ « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ ﴿ ادعونى استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[1] وهكذا رواه أصحاب السنن وقال الترمذى . حسن صحيح .

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يسأل الله يغضب عليه »[2] .

وقال : الحافظ أبو الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى بسنده عن محمد بن سعيد قال : لما مات محمد ابن سلمة الأنصارى وجدنا فى ذؤابة سيفه كتابا بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله ﷺ ـ يقول : « إن لربكم فى بقية أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها »[3] لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبداً .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾[4] وقال بعض السلف : ان الله تعالى يجيب كل الدعاء ، فإما أن يعجل الإجابة فى الدنيا ، وإما أن يكفر عن الداعى وإما أن يدّخر له فى الآخرة ، لما رواه أبو سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطعية رحم إلا أعطاه الله بها ثلاثاً : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخّر له ثوابها ، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها »[5] .

واعلم أن إجابة الدعاء لابد لها من شروط ، فشرط الداعى أن يكون عالماً بأن لا قادر إلا الله ، وأن الوسائط فى قبضته ومسخرة بتسخيره ، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب ، فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه ، وأن يكون متجنباً لأكل الحرام ، ولا يمل من الدعاء .

ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعاً كما قال عليه الصلاة والسلام « ما لم يدع بإثم ، أو قطعية رحم »[6] فيدخل فى الإثم كل ما يأثم به من الذنوب ، ويدخل فى الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم » .

قال ابن عطاء الله : إن للدعاء أركانا ، وأجنحة ، وأسبابا ، وأوقاتا ، فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار إلى السماء ، وإن وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه نجح ، فأركانه حضور القلب والخشوع ، وأجنحته الصدق ، ومواقيته الأسحار ، وأسبابه الصلاة على النبى ﷺ .

---

(١) مسند أحمد ٤/٢٧١ والترمذى ـ كتاب تفسير القرآن ـ باب سورة البقرة ٥/٢١١ رقم ٢٩٦٩ وابن ماجه كتاب الدعاء ـ باب فضل الدعاء رقم ٣٨٢٨ وقال الترمذى : حسن صيحح .

(٢) مسند أحمد ٢/٤٤٢ .

(٣) أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن مسلمة وابن أبى الدنيا فى كتاب الفرج من حديث أبى هريرة واختلف فى إسناده .

(٤) سورة البقرة الآية : ١٨٦ .

(٥) مسند أحمد : ٣/١٨ .

(٦) مسند أحمد : ٥/٣٢٩ والترمذى ـ كتاب الدعاء ـ باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ٥/١٣٠ رقم ٣٤٤١ .

ومن آداب الدعاء أن يدعو الداعى مستقبلا القبلة ، ويرفع يديه لما روى عن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله ربكم حى كريم ليستحى من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرا »[1] وأن يخفض صوته بالدعاء لقوله تعالى : ﴿ ادعو ربكم تضرعا وخفية ﴾ وعن أبى عبدالرحمن الهمدانى قال : صليت مع أبى إسحاق الفداة فسمع رجلا يجهر فى الدعاء فقال : كن كزكريا إذ نادى ربه نداء خفيا . وينبغى للداعى أن لا يتكلف ، وأن يأتى بالكلام المطبوع غير المسجوع . وقيل : ادعو بلسان الذلة والاحتقار ولا تدعو بلسان الفصاحة والانطلاق . ويبدأ الدعاء بالثناء على المولى سبحانه وتعالى - ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ ويثنى بالصلاة على النبى محمد - ﷺ - وينبغى للمؤمن أن يجتهد فى الدعاء ، وأن يكون على رجاء من الإجابة ، ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريماً عظيما قديرا ، وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة وذلك وقت السحر ، ووقت الفطر ، وما بين الأذان والإقامة ، وما بعد عصر الجمعة ، وعند نزول الغيث ، وعند التقاء الجيش فى الجهاد فى سبيل الله ، وفى الثلث الأخير من الليل ، وفى حالة السجود ، وأوقات الاضطرار وحالة السفر والمرضى هذا كله جاءت به الآثار والأخبار عن الحبيب المختار ، ﷺ .

إلهى

يامن يرى ما فى الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع
يامن يرجَّى للشدائد كلها ... يامن إليه المشتكى والمفزع
يامن خزائن رزقه فى قول كن ... امنن فإن الخير عندك أجمع
مالى سوى فقرى إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقرى أدفع
مالى سوى قرعى لبابك حيلة ... فلئن رددت فأى باب أقرع
ومن ذا الذى أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن تقنط عاصيا ... الفضل أجزل والمواهب أوسع
ثم الصلاة على النبى وآله ... خير الأنام ومن به يتشفع

إلهى

ياخالق الخلق يارب العباد ومن ... قد قال فى محكم التنزيل ادعونى
إنى دعوتك مضطرا فخذ بيدى ... ياجاعل الأمر بين الكاف والنون
نجيت أيوب من بلواه حين دعا ... بصبر أيوب ياذا اللطف نجينى
واطلق سراحى وامنن بالخلاص كما ... نجيت من ظلمات البحر ذا النون

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[2] أى : إن الذين يستكبرون عن دعائى وتوحيدى سيدخلون جهنم دآخرين أى : صاغرين حقيرين كما قال الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى - ﷺ - قال « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس يعلوهم كل شىء من الصغار حتى يدخلوا سجناً فى جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار »[3] .

(١) سنن أبى داود - كتاب الصلاة - باب الدعاء ٢/١٦٥ رقم ١٤٨٨ وسنن الترمذى - كتاب الدعاء - باب فى كرم الله تعالى ٥/٥٥٦ رقم ٣٥٥٦ وابن ماجه - كتاب الدعاء - باب رفع اليدين فى الدعاء رقم ٣٨٦٥ .

(٢) سورة غافر الآية : ٦٠ . (٣) مسند أحمد ٢/١٧٩ .

بحث فى الدعاء
للإمام ابن القيم

يحدثنا الامام ابن القيم فى كتابه الفوائد [الجزء الثالث] عن الدعاء وأنواعه فيقول رحمه الله ما نصه : قوله عز وجل : ﴿ ادعو ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[١] .

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعى الدعاء : دعاء العبادة ودعاء المسألة ، فإن الدعاء فى القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان ، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعى وطلب كشف ما يضره أو دفعه ، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا ، والمعبود لابد وأن يكون مالكا للنفع والضر ، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه مالا يملك ضرا ولا نفعا ، وذلك كثير فى القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾[٥] وقوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون ﴾[٦] وقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون * ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾[٧] وقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾[٨] .

فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدى فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم . وهذا فى القرآن كثير بين أن المعبود لابد أن يكون مالكا للنفع والضر ، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ، ويدعى خوفا ورجاء دعاء عبادة . فعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة . وعلى هذا فقول تعالى ﴿ وإذاسألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾[٩] يتناول نوعى الدعاء وبكل منهما فسرت الآية . قيل : أعطيه إذا سألنى ، وقيل : أثيبه إذا عبدنى ، والقولان متلازمان وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك فى معنييه كليهما ، أو استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه ، بل هذا استعمال له فى حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً ، فتأمله فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعداً هى من هذا القبيل .

---

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٥٥ ، ٥٦ .
(٢) سورة يونس الآية : ١٨ .
(٣) سورة يونس الآية : ١٠٦ .
(٤) سورة المائدة الآية : ٧٦ .
(٥) سورة الأنبياء الآيتان : ٦٦ ، ٦٧ .
(٦) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ - ٧٣ .
(٧) سورة الفرقان الآية : ٣ .
(٨) سورة الفرقان الآية : ٥٥ .(٩) سورة البقرة الآية : ١٨٦ .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾ قيل : لولا دعاؤكم إياه ، وقيل : دعاؤه إياكم إلى عبادته ، فيكون المصدر مضافا إلى المفعول وعلى الأول مضافا إلى الفاعل ، وهو الأرجح من القولين . وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء ، وهو فى دعاء العبادة أظهر ، أى : ما يعبأ بكم ربى لولا أنكم تعبدونه ، وعبادته تستلزم مسألته . فالنوعان داخلان فيه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ﴾ فالدعاء يتضمن النوعين ، وهو فى دعاء العبادة أظهر ، ولهذا عقبه بقوله : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[٢] فسر الدعاء فى الآية بهذا وهذا .

وقد روى سفيان عن منصور عن ذر عن فسيح الكندى عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : على المنبر « إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ (ادعونى استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح[٣] وأما قوله تعالى : ﴿ ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ﴾[٤] وقوله : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا ﴾[٥] وقوله : ﴿ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ﴾[٦] وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وآلهتهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة فهو فى دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة :

أحدها : أنهم قالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[٧] فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم هو عبادتهم لهم .

الثانى : أن الله تعالى فسر هذا الدعاء فى مواضع آخر بأنه العبادة كقوله : ﴿ وقيل لهم أينما كنتم تعبدون * من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾[٨] وقوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾[٩] وقوله ﴿ قل ياأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون ﴾[١٠] وهو كثير فى القرآن ، فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم لها .

الثالث : أنهم إنما كانوا يعبدونها ويتقربون بها إلى الله ، فإذا جاءتهم الحاجات والكربات الشدائد دعوا الله وحده وتركوها ، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها ، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة .

وقوله تعالى : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾[١١] هو دعاء العبادة والمعنى اعبدوه وحده وأخلصوا عبادته لا تعبدوا معه غيره .

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٧٧ . (٢) سورة غافر الآية : ٦٠ .

(٣) سنن الترمذى -كتاب تفسير القرآن- باب سورة البقرة ٢١١/٥ رقم ٢٩٦٩ .

(٤) سورة الحج الآية : ٧٣ . (٨) سورة الشعراء الآية : ٩٢ .

(٥) سورة النساء الآية : ١١٧ . (٩) سورة الأنبياء الآية : ٩٨ .

(٦) سورة فصلت الآية : ٤٨ . (١٠) سورة الكافرون الآيتان : ١ ، ٢ .

(٧) سورة الزمر الآية : ٣ . (١١) سورة غافر الآية : ١٤ .

وأما قول ابراهيم الخليل - ﷺ - : ﴿ إن ربى لسميع الدعاء ﴾[١] فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام ، لأنه سميع لكل مسموع . وإن كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب ، وسمع الرب تبارك وتعالى له إثابته على الثناء وإجابته للطلب فهو سميع لهذا وهذا .

وأما قول زكريا : ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴾[٢] فقد قيل إنه دعاء المسألة والمعنى : إنك عودتنى إجابتك وإسعافك ، ولم تشقنى بالرد والحرمان . فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه . كما حكى أن رجلا سأل رجلا وقال أنا الذى أحسنت إلىَّ وقت كذا وكذا ، فقال : مرحبا بمن توسل إلينا بنا ، وقضى حاجته . وهذا ظاهر هنا .

ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد وجعله وسيلة إلى ربه ، فطلب منه أن يجاريه على عادته التى عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله .

وأما قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا مَّا تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[٣] فهذا الدعاء المشهور وأنه دعاء المسألة وهو سبب النزول .

قالوا كان النبى ﷺ يدعو ربه فيقول مرة : يا الله ، ومرة يا رحمن ، فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قال ابن عباس : سمع المشركون النبى ﷺ يدعو فى سجوده يا رحمن يا رحيم فقالوا هذا يزعم أنه يدعو واحدا وهو يدعو مثنى مثنى ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾[٤] .

وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التسمية ، كقولهم دعوت ولدى سعيدا وأدعه بعبد الله ونحوه . والمعنى سموا الله أو سموا الرحمن . فالدعاء ههنا بمعنى التسمية ، وهذا قول الزمخشرى . والذى حمله على هذا قوله تعالى : ﴿ **أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ فإن المراد بتعدده معنى أى وعمومها ههنا تعدد الأسماء ليس إلا . والمعنى أى اسم سميتوه به من أسماء الله تعالى ، إما الله وإما الرحمن فله الأسماء الحسنى ، أى فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى ، والضمير فى (له) يعود إلى المسمى فهذا الذى أوجب له أن يحمل الدعاء فى هذه الآية على التسمية . وهذا الذى قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء فى الآية وليس هو عين المراد ، بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد فى القرآن وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء ولكنه متضمن معنى التسمية فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب ، بل التسمية الواقعة فى دعاء الثناء والطلب . فعلى هذا يصح أن يكون فى تدعو معنى تسمو فتأمله . والمعنى أيا ماتسمو فى ثنائكم ودعائكم وسؤالكم . والله أعلم .

وأما قوله تعالى : ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾[٥] فهذا دعاء العبادة المتضمن

---

(١) سورة إبراهيم الآية : ٣٩ .
(٢) سورة مريم الآية : ٤ .
(٣) سورة الإسراء الآية : ١١٠ .
(٤) تفسير الطبرى ١٢١/١٥ .
(٥) سورة الطور الآية : ٢٨ .

للسؤال رغبة ورهبة . والمعنى إنا كنا من قبل نخلص له العبادة ، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم ، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجى وغيره . فإن الله سبحانه يسأله من فى السموات ومن فى الأرض ، والفوز والنجاة إنما هى بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب .

وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف ﴿ ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ﴾[١] أى لن نعبد غيره .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين ﴾[٢] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ﴾[٣] فهذا من دعاء المسألة يباكتهم الله عز وجل ويخزيهم يوم القيامة بإرادتهم ، أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم ، وليس المراد اعبدوهم . وهو نظير قوله تعالى : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾[٤] .

وهذا التقرير نافع فى مسألة الصلاة ، وأنها نقلت عن مسماها فى اللغة فصارت حقيقة شرعية منقولة أو استعملت فى هذه العبارة مجازا للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوى ، أو هى باقية على الوضع اللغوى وضم إليها أركان وشرائط . وعلى ما قررناه لا حاجة إلى شىء من ذلك ، فإن المصلى من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء ، إما دعاء عبادة وثناء ، أو دعاء طلب ومسألة ، وهو فى الحالين داع . فما خرجت الصلاة عن حقيقة الدعاء فتأمله . إذا عرف هذا فقوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾[٥] يتناول نوعى الدعاء ، لكنه ظاهر فى دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة ، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره قال الحسن : بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا . ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ وأن الله ذكر عبدا صالحا ورضى بفعله فقال : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفيا ﴾[٦] .

وفى إخفاء الدعاء فوائد عديدة :

أحدها : أنه أعظم إيمانا ، لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع دعاءه الخفى وليس كالذى قال إن الله يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا .

وثانيها : أنه أعظم فى الأدب والتعظيم ، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات ، وإنما تخفض عندهم الأصوات ، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه . ومن رفع صوته لديهم مقتوه . ولله المثل الأعلى فإذا كان يسمع الدعاء الخفى فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به .

وثالثها : أنه أبلغ فى التضرع والخشوع الذى هو روح الدعاء ولبه ومقصوده فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل ، قد انكسر قلبه ، وذلت جوارحه ، وخشع صوته ، حتى أنه ليكاد

---

(١) سورة الكهف الآية : ١٤ .
(٢) سورة الصافات الآية : ١٢٥ .
(٣) سورة القصص الآية : ٦٤ .
(٤) سورة الكهف الآية : ٥٢ .
(٥) سورة الأعراف الآية : ٥٥ .
(٦) سورة مريم الآية : ٣ .

تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق ، فقلبه سائل طالب مبتهل ، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت ، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلا .

ورابعها : أنه أبلغ فى الإخلاص .

وخامسها : أنه أبلغ فى جمعية القلب على الله فى الدعاء ، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته ، فكلما خفض صوته كان أبلغ فى حمده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى :

وسادسها : وهو من النكت السرية البديعة جداً ، أنه دال على قرب صاحبه من الله ، وأنه لا قترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شىء إليه فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد ، ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله : ﴿ **إذ نادى ربه نداء خفياً** ﴾ .

فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه ، وأنه أقرب إليه من كل قريب وتصور ذلك ، أخفى دعاءه ما أمكنه ، ولم يتأت له رفع الصوت به ، بل يراه غير مستحسن ، كما أن من خاطب جليسا له يسمع خفى كلامه فبالغ فى رفع الصوت استهجن ذلك منه ، ولله المثل الأعلى .

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله فى الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه فى السفر فقال : « أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

وقال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾[1] وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا : يا رسول الله ، ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان)[2] .

وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة فى الدعاء لا للنداء الذى هو رفع الصوت فإنهم عن هذا سألوا فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج فى دعائه وسؤاله إلى النداء ، وإنما يسأل مسألة القريب المناجى لا مسألة البعيد المنادى ، وهذا القرب من الداعى هو قرب خاص ليس قربا عاما من كل أحد ، فهو قريب من داعيه ، وقريب من عابده ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذى لم يثبت أكثر المتكلمين سواه ، بل هو قرب خاص من الداعى والعابد كما قال النبى ﷺ راوياً عن ربه تبارك وتعالى : « من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً » فهذا قربه من عابده .

وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ وقوله : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعاً وخفية** ﴾ فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب .

وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر ، وبناء آخر ، وشأن آخر كما ذكرناه فى كتاب التحفة المكية ، على أن العبارة تنبو عنه ، ولا تحصل فى القلب حقيقة معناه أبداً ، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٨٦ .

(٢) أنظر ابن كثير طبعة الشعب ٣١٣/١ .

يكون تصديق العبد بهذا القرب . وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية ، أو يقع فى قلبك غير معناها ومرادها . فتزل قدم بعد ثبوتها .

وقد ضعف تمييز خلائق فى هذا المقام وساء تعبيرهم ، فوقعوا فى أنواع من الطامات والشطح ، وقابلهم من غلظ حجابه فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه ، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوف ، فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا .

وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء ، فى كتاب التحفه أكثر من مائة طريق والمقصود هنا الكلام على هذه الآية .

وسابعها : أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال ، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته ، فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه . وهذا نظير من يقرأ و يكرر رافعاً صوته فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته .

وثامنها : أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات ، فإن الداعى إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد ، فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره ، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والخبيثة من الجن والانس فشوشت عليه ولابد ، وما نعته وعارضته . ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى . ومن له تجربة يعرف هذا . فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة .

وتاسعها : أن أعظم النعم الإقبال على الله ، والتعبد له ، والانقطاع إليه ، والتبتل إليه ، ولكل نعمة حاسد على قدرها ، دقت أو جلت ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة . فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها ، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد ، وأن لا يقصد إظهارها له . وقد قال يعقوب ليوسف : ﴿ لا تقصص رؤ ياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾[1] وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار ، فأصبح يقلب كفيه . ولهذا يوصى العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله ، وأن لا يطلعوا عليه أحداً ، ويتكتمون غاية التكتم . كما أنشد بعضهم فى ذلك :

من سارروه فأبدى السر مجتهدا	لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعدوه فلم يظفر بقربهم	وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لايأمنون مذيعا بعض سرهم	حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شىء كتماناً لأحوالهم مع الله وما وهب الله لهم من محبته والأنس به وجمعية القلب عليه ، ولا سيما للمبتدى والسالك فإذا تمكن أحدهم وقوى وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء فى قلبه ، بحيث لا يخشى عليه من العواصف فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليقتدى به ويؤتم به لم يبال ، وهذا باب عظيم النفع وإنما يعرفه أهله .

---

(١) سورة يوسف الآية : ٥ .

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله فهو من أعظم الكنوز التى هى أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين وهذه فائدة شريفة نافعة .

وعاشرها : أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه ، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه ، فهو ذكر وزيادة ، كما أن الذكر سمى دعاء ، لتضمنه الطلب ، كما قال النبى ﷺ : « أفضل الدعاء الحمد لله »[1] فسمى « الحمد لله » دعاء وهو ثناء محض ، لأن الحمد يتضمن الحب والثناء ، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب ، فالحامد طالب لمحبوبه ، فهو أحق أن يسمى داعيا من السائل الطالب من ربه حاجة ما . فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلى ما قيل إن الذاكر متعرض للنوال ، وإن لم يكن مصرحاً بالسؤال فهو داع بما تضمه ثناؤه من التعرض ، كما قال أميه بن أبى الصلت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حباؤك أن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما ... كفاه من تعرضه الثناء

وعلى هذه الطريقة التى ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب وهو طلب المحب ، فهو دعاء حقيقة ، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذى هو دونه .

والمقصود أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه . وقد قال الله تعالى : ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول ﴾[2] فأمر تعالى نبيه أن يذكره فى نفسه . قال مجاهد وابن جريج : أمر أن يذكره فى الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح .

وتأمل كيف قال فى آية الذكر : ﴿ **واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة** ﴾ وفى آية الدعاء : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ فذكر التضرع فيهما معاً وهو التذلل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء ، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرناه من الحكم وغيرها ، وخص الذكر بالخفية لحاجة الذاكر إلى الخوف . فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولابد فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته . والمحبة ما لم تقرب بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل قد تضره ، لأنها توجب الإدلال والانبساط وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات وقالوا المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب ، وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له ، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل . ولقد حدثنى رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوه له ترك فيها حضور الجمعة ، فقال له الشيخ : أليس الفقهاء يقولون إذا خاف على شىء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه ؟ فقال له بلى ، فقال له : فقلب المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم أو كما قال ، وهو إذا خرج ضاع قلبه فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة فى حقه ، فقال له : هذا غرور بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله وحفظ قلبه مع الله . فالشيخ المربى العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر ويراعى حفظ قلبه أو كما قال .

فتأمل هذا الغرور العظيم كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة . فان من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها ، وهو يظن أنه من خاصته الخاصة . وسبب

(١) سنن الترمذى ـ أبواب الدعوات ـ باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ١٣٠/٥ رقم ٣٤٤٣ وابن ماجة ـ كتاب الأدب ـ باب فضل الحامدين ١٢٤٩/٢ رقم ٣٨٠٠ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٢٠٥ .

هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته ولهذا قال بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ، ومن عبده بالخوف والحب والرجاء فهو مؤمن ، وهذه المقامات الثلاث فى قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾[1] . فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه ، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف ، فهذه طريقة عباده وأوليائه . وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات ويقول المحب لا يضره ذنب . . والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع فى هذه المعاطب ، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد ، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الدرب ـ والرجاء حاد يحدوها يطيب لها السير ، والحب قائدها وزمامها الذى يسوقها . فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصى يردها إذا حادت عن الطريق وتركت تركب التعاسيف خرجت عن الطريق وضلت عنها . فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادا لا يرضى صلاحه أبداً ، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه .

فتأمل أسرار القرآن وحكمته فى اقتران الخفية بالذكر والخفية فى الدعاء مع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضا . فإنه قال ﴿ **واذكر ربك فى نفسك** ﴾ فلم يحتج بعدها أن يقول خفية ، وقال فى الدعاء ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾[2] فلم يحتج أن يقول فى الأول ادعوا ربكم تضرعا وخفية . فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخفية والخفية والتضرع أحسن إنتظام ودلت على ذلك أكمل دلالة .

وذكر الطمع الذى هو الرجاء فى آية الدعاء لأن الدعاء مبنى عليه ، فإن الداعى ما لم يطمع فى سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه ، إذ طلب ما لاطمع فيه ممتنع . وذكر الخوف فى آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه كما تقدم ، فذكر فى كل آية ما هو اللائق بها والأولى بها من الخوف والطمع فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ قيل المراد : أنه لا يحب المعتدين فى الدعاء كالذى يطلب ما لايليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك .

وقد روى أبو داود فى سننه أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : « اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها ، فقال يا بنى سل الله الجنة وتعوذ به من النار . فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء »[3] .

وعلى هذا فالاعتداء فى الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات وتارة بأن يسأله ما لايفعله الا الله ، مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجه إلى الطعام والشراب ، أو يسأله أن يطلعه على غيبه ، أو يسأله أن يجعله من المعصومين ونحو ذلك

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٥٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٦ .

(٣) سنن أبى داود ـ كتاب الطهارة ـ باب الإسراف فى الماء ١/ ٧٣ رقم ٩٦ .

مما سؤاله اعتداء ، فكل سؤال يناقض حكمة الله ، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره ، أو يتضمن خلاف ما أخبر به ، فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله .

وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضا فى الدعاء ، قال ابن جريج : من الاعتداء رفع الصوت فى الدعاء والنداء فى الدعاء والصياح .

وبعد ، فالآية أعم من ذلك كله ، وإن كان الاعتداء فى الدعاء مراراً بها فهو من جملة المراد . والله لا يحب المعتدين فى كل شىء دعاء كان أو غيره كما قال : ﴿ ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين ﴾[1] وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته ، وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان ، وهم الذين يدعون معه غيره فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانا ، فإن أعظم العدوان الشرك وهو وضع العبادة فى غير موضعها . فهذا العدوان لابد أن يكون داخلا فى قوله : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ .

ومن العدوان أن يدعوه غير متضرع - بل دعاء مُدل كالمستغنى بما عنده ، المدل على ربه به ، وهذا من أعظم الاعتداء المنافى لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة فى مجموع حالاته ، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد .

ومن الاعتداء أن تعبده بما لم يشرعه ، وتثنى عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه ، فإن هذا الاعتداء فى دعاء الثناء والعبادة ، وهو نظير إعتداء فى دعاء المسألة والطلب .

وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين : أحدهما محبوب للرب تبارك وتعالى مرضى له وهو الدعاء تضرعاً وخفية . والثانى مكروه له مبغوض مسخوط وهو الاعتداء . فأمر بما يحبه وندب إليه ، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير . وهو أنه لا يحب فاعله ، ومن لم يحبه الله فأى خير ناله . وفى قوله : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ عقب قوله : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعا وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم . فقسمت الآية الناس قسمين : داع لله متضرعاً وخفية ومعتد بترك ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾[2] قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصى والدعاء إلى غير طاعة الله ، بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل ، وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله ، فإن عبادة غير الله ، والدعوة إلى غيره ، والشرك به هو أعظم فساد فى الأرض ، بل فساد الأرض فى الحقيقة إنما هو الشرك به ومخالفة أمره قال تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ﴾[3] .

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح فى الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شر فى العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله ومن تدبر هذا حق القدير ، وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، وجد هذا الأمر كذلك فى خاصة نفسه وفى حق غيره عموما وخصوصا . ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٦ .

(٣) سورة الروم الآية : ٤١ .

وقوله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكره معه من الخوف والطمع . فأمر أولاً بدعائه تضرعاً وخفية ، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضاً خوفاً وطمعاً ، وفصل بين الجملتين بجملتين ، إحداهما خبرية ومتضمنة للنهى وهى قوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ والثانية طلبية وهى قوله : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ والجملتان مقررتان مقويتان للجملة الأولى ، مؤكدتان لمضمونها . ثم لما تم تقريرها . وبيان ما يضادها ويناقضها أمر بدعائه خوفاً وطمعاً . ثم قرر ذلك وأكد مضمونه بجملة خبرية وهى قوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[1] فتعلق هذه الجملة بقوله ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ كتعلق قوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ بقوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ .

ولما كان قوله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ مشتملا على جميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهى الحب والخوف والرجاء ، عقبها بقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ أى إنما ينال من دعاه خوفاً وطمعاً فهو المحسن والرحمة قريب منه ، لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة .

وقوله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ فيه تنبيه ظاهر على فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم ، ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته ، ورحمته قريب من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفاً وطمعاً ، فقرب مطلوبكم منكم وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم وهو الإحسان الذى هو فى الحقيقة إحسان إلى أنفسكم ، فإن الله هو الغنى الحميد ، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم . وقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ له دلالة بمنطوقه ، ودلالة بإيمائه وتعليله ، ودلالة بمفهومه . فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان ، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان فهو السبب فى قرب الرحمة منهم ، ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين . فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة . وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين ، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته ، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعداً ببعد وقرباً بقرب ، والله سبحانه يحب المحسنين ، ويبغض من ليس من المحسنين ، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شىء منه ، ومن أبغضه فرحمته أبعد شىء منه .

والإحسان ههنا هو فعل المأمور به ، سواء كان إحسانا إلى الناس أو إلى نفسه ، فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد ، والإنابة إلى الله ، والإقبال عليه ، والتوكل عليه ، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابة وحياء ومحبة وخشية ، فهذا هو مقام الإحسان ، كما قال النبى ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه » وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة ا لله قريب من صاحبه ، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به ، وإنما كتب رحمته للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون والذين يتبعون الرسول ، فهؤلاء هم أهل الرحمة ، كما أنهم هم المحسنون ، وكما أحسنوا جوزوا

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٦ .

بالإحسان ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان يعنى هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أنه يحسن ربه إليه . قال ابن عباس : هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة .

وقد ذكر ابن أبى شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدى عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله - ﷺ - : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ثم قال : « هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : يقول : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة »[1] .

(أ. هـ .)

قال تعالى :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ * قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

معانى المفردات

(لتسكنوا فيه) : أى لتستريحوا فيه ، (مبصراً) : أى يُبصر فيه ، (تؤفكون) تصرفون ، (قراراً) أى استقرار ، (بناء) : أى قبة (فتبارك) أى تقدس وتنزه ، (الدين) الطاعة .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير طبعة الشعب ٤٨٠/٧ .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن أثبت سبحانه أن يوم القيامة حق ، وكان المرء لا ينتفع فيه إلا بطاعة الله والتضرع إليه وأشرف أنواع الطاعات الدعاء أى العبادة ولما كانت العبادة لا تنفع إلا إذا أقيمت الأدلة على وجود المعبود ، ذكر من ذلك تعاقب الليل والنهار وخلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان فى أحسن صورة ورزقه من الطيبات ، وبعد ذلك أمر رسوله ﷺ أن يخبرهم بأنه نهى عن عبادة غيره ، وأورد ذلك بألين قول وألطفه ، ليصرفهم عن عبادة الأوثان ، ثم بين أن سبب النهى هو البينات التى جاءته ، إذ قد ثبت بصريح العقل أن إله العالم الذى تجب عبادته هو الموصوف بصفات العظمة ، لا الأحجار المنصوبة والخشب المصورة ، ثم ذكر أنه بعد أن نهى عن عبادة غيره أمر بعبادته تعالى ، وقد ذكر من الأدلة على وجوده خلق الأنفس على أحسن الصور ورزقها من الطيبات ، ثم تكوين الجسم من ابتداء كونه نطفة وجنينا إلى الشيخوخة ثم الموت .

التفســـــير

قوله تعالى : ﴿ **الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون * كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون * الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءاً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين * هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين** ﴾ .

يقول تعالى : ممتناً على خلقه بما جعل لهم من الليل الذى يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم فى المعايش بالنهار وجعل النهار مبصراً أى مضيئاً ليتصرفوا فيه بالأسفار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات كقوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾[(١)] وكقوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾[(٢)] وكقوله تعالى : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[(٣)] وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتا وجعل النهار نشوراً ﴾[(٤)] وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾[(٥)] .

ويقول جل فى علاه : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير

(١) سورة يونس الآية : ٦٧ .
(٢) سورة الإسراء الآية : ١٢ .
(٣) سورة النمل الآية : ٨٦ .
(٤) سورة الفرقان الآية : ٤٧ .
(٥) سورة الفرقان الآية : ٦٢ .

الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[١] .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أى : لا يقومون بشكر نعم الله عليهم ، ثم قال عز وجل : ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو ﴾[٣] أى الذى فعل هذه الأشياء ، الذى قلب الليل والنهار هو الواحد القهار ، خالق كل شىء الذى لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ أى فكيف تعبدون غيره من الأصنام والأنداد التى لا تخلق شيئاً بل هى مخلوقة منحوتة .

وقوله عز وجل : ﴿ **كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون** ﴾ أى كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله ، كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الجهل والهوى ، وجحدوا حجج الله وآياته .

وقوله تعالى : ﴿ **الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء** ﴾ أى : جعل الأرض مستقرا بساطا مهادا تعيشون عليها وتتصرفون فيها وتمشون فى مناكبها وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم ﴿ **والسماء بناء** ﴾ أى سقفاً للعالم محفوظا كقوله جل فى علاه : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[٢] وكقوله سبحانه : ﴿ أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون * أم مّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات** ﴾ أى : فخلقكم فى أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ أى : من المآكل والمشارب فى الدنيا فذكر أنه خلق الدار والمكان والأرزاق فهو الخالق الرازق كما قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾[٤] وقال ههنا بعد خلق هذه الأشياء : ﴿ **ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين** ﴾ أى فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم ، ثم قال سبحانه : ﴿ **هو الحى لا إله إلا هو** ﴾ أى : هو الحى أزلاً وأبداً ، لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ لا معبود بحق إلا هو

---

(١) سورة القصص الآيات : ٧١ - ٧٣ .
(٢) سورة فصلت الآيات : ٩ - ١٢ .
(٣) سورة النمل الآيتان : ٦٠ ، ٦١ .
(٤) سورة البقرة الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

﴿ **فادعوه مخلصين له الدين** ﴾ أى : موحدين له مقريين بأنه لا إله إلا هو ، ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ ، أى : احمدوه سبحانه فهو مالك جميع أصناف الخلق من ملك وإنس وجن ، لا الآلهة التى تعبدونها ، ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضراً فضلا عن نفع غيرها وضره ، وعن ابن عباس أنه قال « من قال لا إله إلا الله فليقل على إثرها : الحمدلله رب العالمين » وذلك قوله : ﴿ **فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين** ﴾ . وكان الحبيب المصطفى - ﷺ - حين يصبح يقول : « اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر »[1] ، ويقول ذلك أيضا فى المساء .

قال تعالى ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾ لا إله غيره ولا رب سواه .

أخرج الإمام أحمد بسنده كان عبد الله بن الزبير يقول دبر كل صلاة حين يسلِّم : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء والحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » قال وكان رسول الله - ﷺ - يهل بهن دبر كل صلاة »[2] . ورواه مسلم وابن داود والنسائى .

وقوله تعالى : ﴿ **قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين** ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن الله عز وجل ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان ، وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه لذا يقول سبحانه : ﴿ **وأمرت أن أسلم لرب العالمين** ﴾ . أى : وأمرت أن أنقاد له تعالى وأخلص له دينى ، لا إله إلا هو رب السموات ورب الأرض رب العالمين .

ثم ذكر سبحانه الدلائل على وجوده تعالى تكوين الإنسان من ابتداء النطفة إلى وقت الشيخوخة فقال سبحانه :

﴿ **هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون** ﴾ .

أى هو الذى خلقكم من التراب ، إذ كل انسان مخلوق من المنى ، والمنى مخلوق من الدم والدم يتولد من الأغذية ، والأغذية تنتهى إلى النبات ، والنبات يتكون من التراب والماء - ثم ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة إلى مراتب كثيرة حتى ينفصل الجنين من بطن الأم وقد رتب سبحانه عمر الإنسان ثلاث مراتب :

---

(١) سنن أبى داود - كتاب الأدب - باب ما يقول إذا أصبح ٥/٣١٤ رقم ٥٠٧٣ .

(٢) مسند أحمد ٤/٥ ومسلم - كتاب المسلم ومواضع الصلاة ١/٤١٥ رقم ٥٩٤ وأبو داود - كتاب الصلاة ٢/١٧٣ رقم ١٥٠٦ والنسائى - كتاب الافتتاح - باب التهليل بعد التسليم ٣/٦٩ .

الطفولة ـ بلوغ الأشد ـ الشيخوخة ، ومن الناس من يتوفى قبل المرتبة الأخيرة ، وهو يفعل ذلك لتبلغوا الأجل المسمى وهو يوم القيامة ولتعقلوا ما فى التنقل فى هذه الأطوار المختلفة من فنون العبر والحكم .

وكما استدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر ـ استدل على ذلك بانتقال الإنسان من الحياة إلى الموت ، ومن الموت إلى الحياة فقال سبحانه : ﴿ **هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ أى قل لهم أيها الرسول : هو الذى يحيى من يشاء بعد مماته ، ويميت من يشاء من الأحياء ، وإذا أراد كون أمر من الأمور التى يريد تكوينها ، فإنما يقول له ﴿ **كن فيكون** ﴾ بلا معاناة ولا كلفة كقوله تعالى : ﴿ **إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ فالحمد لله الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ؟ وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون .

حال أهل النار

قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ

ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

معانى المفردات

(الكتاب) القرآن ، (يسحبون) أى يجرّون ، (الحميم) . الماء الحار ، (يسجرون) أى يحرقون ، يقال سجر التنور إذا ملأه بالوقود ، (ضلوا عنا) أى غابوا ، (تفرحون) أى تبطرون (تمرحون) تختالون أشراً وبطراً .

(مثوى الكافرين) مأواهم ومقامهم ، (حاجة فى صدوركم) أمراً ذا بال تهتمون به ، (حاق بهم) أحاط بهم ، (رأوا بأسنا) عاينوا شدة عذابنا فى الدنيا .

(خلت) مضت .

المناسبة والمعنى الإجمالى

عود على بدء بالتعجب من أحوال المجادلين الشنيعة وآرائهم الفاسدة والتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بالقرآن وسائر الكتب والشرائع ، وترتيب الوعيد على ذلك . ثم أمر رسوله ﷺ بالصبر على أذاهم وتكذيبهم ، فإن الله سينجز له ما وعده من النصر والظفر على قومه ، ويجعل العاقبة له ولمن اتبعه من المؤمنين فى الدنيا والآخرة ثم عاد سبحانه إلى ذكر الدلائل على وجوده ووحدانيته بذكر نعمة من نعمه التى لا تحصى ، ثم لفت أنظارهم إلى ما يحيط بهم من أدلة هم عنها معرضون ، ثم ختم سبحانه هذه السورة بتهديد الذين يجادلون فى آياته ، طلبا للرياسة والجاه والحصول على المال ، وكسب حظوظ الدنيا ، وأبان أن هذه الدنيا فانية ذاهبة ، فما فيها من مال وجاه ظل زائل ، لا يغنى عنهم من الله شيئا وقد ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم ممن كانوا أكثر عددا وأشد قوة وآثارا فى الأرض فلم ينفعهم

شىء من ذلك حين حل بهم بأس الله ، ثم ذكر أن المكذبين حين رأوا البأس تركوا الشرك وآمنوا بالله وحده ، وأنى لهم ذلك ؟ وهيهات وهيهات .

فذلك لا يجديهم فتيلاً ولا قطميراً ، سنة الله فى عباده ، ألا ينفع الإيمان حين حلول العذاب .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون * الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون * إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون * ثم قيل لهم أين ماكنتم تشركون * من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين * ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون * ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين** ﴾ .

يقول تعالى : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ، ويجادلون فى الحق بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ﴿ **الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا** ﴾ أى من الهدى والبيان ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ هذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، من الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال سبحانه ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ وكما قال سبحانه ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير** ﴾ وكقوله سبحانه ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق * ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾[(١)] .

وههنا يقول عز وجل : ﴿ **إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل** ﴾ أى متصلة الأغلال بأيدى الزبانية يسحبون على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم ولهذا قال تعالى ﴿ **يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون** ﴾ كما قال تبارك وتعالى : ﴿ هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾[(٢)] وقال تعالى : بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم : ﴿ **ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم** ﴾ .

وقال عز وجل : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * فى سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إئنا لمبعثون * أوآباؤ نا الأولون * قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم * ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم * هذا نزلهم يوم الدين ﴾[(٣)] . وقال عز وجل : ﴿ إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم

---

(١) سورة الحج الآيات : ٨ - ١٠ .
(٢) سورة الرحمن الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ .
(٣) سورة الواقعة الآيات : ٤١ - ٥٦ .

صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾[١] . أى يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير والتهكم والاستهزاء بهم .

وعن ابن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ « لو أن رُضاضة مثل هذه ـ وأشار إلى مثل الجمجمة ـ أرسلت من السماء إلى الأرض وهى مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفا الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها »[٢] . أخرجه الترمذى وقال حديث إسناده صحيح .

وقال ابن زيد : ويقال : إن حلقة من غل أهل جهنم لو ألقيت على أعظم جبل فى الدنيا لهدته . قال ﴿ **وهم مقامع من حديد** ﴾ يقمعون بها هؤلاء ، فإذا قال : خذوه فيأخذه كذا وكذا ألف ملك ، فلا يضعون أيديهم على شيء من عظامه ، إلا صارت تحت أيديهم رفاتا ، قال : فتجمع أيديهم وأرجلهم ورقابهم فى الأغلال ، قال : فيلقون فى النار مصفودين ، قال : فليس لهم شيء يتقون به إلا الوجوه ، وهم مصفودين ، قد ذهبت الأبصار فهم عمى ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله** ﴾ **أى قيل لهم : أين الأصنام والأنداد التى كنتم تعبدونها من دون الله ، هل ينصروكم اليوم** ﴿ **قالوا ضلوا عنا** ﴾ أى ذهبوا فلم ينفعونا ﴿ **بل لم نكن ندعو من قبل شيئا** ﴾ **أى جحدوا عبادتهم كقوله جلت عظمته :** ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ ولهذا قال عز وجل : ﴿ **كذلك يضل الله الكافرين** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ذالكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون** ﴾ أى تقول لهم الملائكة هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم فى الدنيا بغير الحق ومرحكم وأشركم وبطركم . ﴿ **ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين** ﴾ أى فبئس المنزل والمقيل الذى فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ **فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون * ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون** ﴾ .

يقول تعالى : آمراً رسوله ـ ﷺ ـ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك ويجعل العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة ﴿ **فإما نرينك بعض الذى نعدهم** ﴾ أى فى الدنيا وكذلك وقع فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم : أبيدوا يوم بدر ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى حياته ﷺ وقوله عز وجل ﴿ **أو نتوفينك فإلينا يرجعون** ﴾ **أى فنذيقهم العذاب الشديد فى الآخرة ، وهذه الآية مثل قوله تعالى فى سورة الزخرف :** ﴿ **فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون * أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون * فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم** ﴾[٤] .

---

(١) سورة الدخان الآيات : ٤٣ ـ ٥٠ .

(٢) سنن الترمذى ـ أبواب صفة جهنم ـ باب ما جاء فى صفة طعام أهل النار ١٠٩/٤ رقم ٢٧١٤ .

(٣) سورة الزمر الآية : ٢٤ .

(٤) سورة الزخرف الآيات : ٤١ ـ ٤٣ .

ثم قال تعالى مسلياً رسوله ﷺ : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك** ﴾ كما قال جل فى علاه : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾[1] الآية . أى منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة : ﴿ **ومنهم من لم نقصص عليك** ﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف وقد اختلف فى عدد الأنبياء والمرسلين والمشهور فى ذلك حديث أبى ذر الطويل والذى فيه أنهم « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا » والله أعلم قاله ابن كثير .

وقوله تعالى : ﴿ **وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله** ﴾ أى ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتى قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له فى ذلك فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به . ﴿ **فإذا جاء أمر الله** ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ **قضى بالحق** ﴾ فينجى المؤمنين ويهلك الكافرين ولهذا قال عز وجل : ﴿ **وخسر هنالك الكافرون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون * ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون** ﴾ .

يقول تعالى : ممتنا على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها ويحرث عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة كما فصل وبيَّن سبحانه فى أماكن أخرى من القرآن الكريم قال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله . . ﴾ الآية[2] وقال سبحانه فى سورة النحل : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾[3] .

وقال جل فى علاه : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾[4] وقال سبحانه : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾[5] .

وقال سبحانه فى سورة المؤمنون : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾[6] .

وقال سبحانه فى سورة الزخرف : ﴿ والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾[7] وههنا يقول سبحانه : ﴿ **لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾ .

---

(١) سورة النساء الآية : ١٦٤ .
(٢) سورة الأنعام الآية : ١٤٢ .
(٣) سورة النحل الآيات : ٥ - ٨ .
(٤) سورة النحل الآية : ٨٠ .
(٥) سورة النحل الآية : ٦٦ .
(٦) سورة المؤمنون الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .
(٧) سورة الزخرف الآيات : ١٢ - ١٤ .

وقوله جل وعلا : ﴿ ويريكم آياته ﴾ اى حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم ﴿ **فأى آيات الله تنكرون** ﴾ أى لا تقدرون على إنكار شىء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا كما قال سبحانه بعد أن عدد النعم على العباد فى سورة النحل قال بعد ذلك : ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون * فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون** ﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة فى قديم الدهر وماذا أحل بهم من العذاب مع شدة قواهم وما آثروه فى الأرض وجمعوه من الأموال فما أغنى عنهم ذلك شيئا ولا رد عنهم ذرة من بأس الله وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الدافعات ، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم فى زعمهم عما جاءتهم به الرسل .

قال مجاهد : قالوا نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب ، وقال السدى : فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به ﴿ **وحاق بهم** ﴾ أى أحاط بهم ﴿ **ما كانوا به يستهزئون** ﴾ أى يكذبون ويستبعدون وقوعه . ﴿ **فلما رأوا بأسنا** ﴾ أى عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿ **قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين** ﴾ . أى وحدوا الله عز وجل وكفروا بالطاغوت ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المعذرة وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾[2] قال الله تبارك وتعالى : ﴿ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾[3]فلم يقبل الله منه ﴿ **فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده** ﴾ أى هذا حكم الله فى جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل ولهذا جاء فى الحديث الصحيح « إن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر » أى فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاين الملك فلا توبة حينئذ ولهذا قال تعالى ﴿ **وخسر هنالك الكافرون** ﴾ . أ . هـ

---

(١) سورة النحل الآية : ٨٣ .

(٢ ، ٣) سورة يونس الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .

تفسير سورة فصلت

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، عدد **آياتها** أربع وخمسون فى عد الكوفة ، **وكلماتها** سبعمائة وست وتسعون **وحروفها** : ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسون . مجموع فواصل آياتها : ﴿ **ظن طب حرم صد** ﴾

وللسورة اسمان : حم السجدة ، لاشتمالها على السجدة ، وسورة المصابيح ، لقوله تعالى ﴿ **زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا** ﴾

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان شرف القرآن ، وإعراض الكفار من قبوله ، وكيفية تخليق الأرض والسماء ، والإشارة إلى إهلاك عاد وثمود ، وشهادة الجوارح على العاصين فى القيامة ، وعجز الكفار فى سجن جهنم ، وبشارة المؤمنين بالخلود فى الجنان ، وشرف المؤذنين بالأذان ، والاحتراز من نزغات الشيطان ، والحجة والبرهان على وحدانية الرحمن ، وبيان شرف القرآن ، والنفع والضر ، والإساءة والإحسام ، وجزع الكفار عند الابتلاء والامتحان ، وإظهار الآيات الدالة على الذات والصفات الحسان ، وإحاطة علم الله بكل شىء من الأسرار والإعلان بقوله ﴿ **ألا إنه بكل شىء محيط** ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى ﴿ **فى أربعة أيام** ﴾ أى مع اليومين اللذين تقدما فى قوله : ﴿ **خلق الأرض فى يومين** ﴾ كيلا يزيد العدد على ستة أيام ، فيتطرق إليه كلام المعترض ، وإنما جمع بينهما ولم يذكر اليومين على الانفراد بعدهما : لدقيقة لا يهتدى إليها إلا كل فطن خِرِّيت ـ الحاذق ـ وهى أن قوله ﴿ **خلق الأرض فى يومين** ﴾ صلة ﴿ **الذى** ﴾ و ﴿ **وتجعلون له أندادا** ﴾ عطف على ﴿ **لتكفرون** ﴾ ﴿ **وجعل فيها رواسى** ﴾ عطف على قوله ﴿ **خلق الأرض** ﴾ وهذا ممتنع فى الإعراب لا يجوز فى الكلام ، وهو فى الشعر من أقبح الضرورات ، لا يجوز أن يقال : جاءنى الذى يكتب وجلس ، ويقرأ : لأنه لا يحال بين صلة الموصول وما يعطف عليه بأجنبى من الصلة ، فإذا امتنع هذا لم يكن بد من إضمار فعل يصح الكلام به ومعه ، فيضمر ﴿ **خلق الأرض** ﴾ بعد قوله ﴿ **ذلك رب العالمين** ﴾ فيصير التقدير ذلك رب العالمين ، خلق الأرض ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، ليقع هذا كله فى أربعة أيام فسقط الاعتراض والسؤال ، وفيه معجزة وبرهان .

قوله (حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم) وفى الزخرف وغيره (حتى إذا جاءوها) بغير (ما) ، لأن (حتى) ههنا التى تجرى مجرى واو العطف فى نحو قولك ، أكلت السمكة حتى رأسها أى ورأسها . وتقدير الآية منهم يوزعون ، وإذا ما جاءوها و (ما) هى التى تزاد مع الشرط ، نحو أينما وحيثما . وحتى فى غيرها من السورة للغاية .

قوله ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ ومثله فى الأعراف ، لكنه ختم بقوله (سميع عليم) : الآية فى هذه السورة متصلة بقوله (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) وكان مؤكدا بالتكرار ، وبالنفى والإثبات ، فبالغ فى قوله ﴿ **إنه هو السميع العليم** ﴾ بزيادة (هو) وبالألف

واللام ، ولم يكن فى الأعراف هذا النوع من الاتصال ، فأتى على القياس : المخبر عنه معرفة ، والخبر نكرة .

قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ﴾ وفى عسق (الشورى) بزيادة قوله (إلى أجل مسمى) وزاد فيها أيضا : (بغيا بينهم) : لأن المعنى تفرق قول اليهود فى التوراة ، وتفرق قول الكافرين فى القرآن ، ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير العذاب إلى يوم الجزاء ، لقضى بينهم بإنزال العذاب عليهم . وخصت عسق بزيادة قوله تعالى (إلى أجل مسمى) لأنه ذكر البداية فى أول الآية وهو (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم) وهو مبدأ كفرهم ، فحسن ذكر النهاية التى أمهلوا إليها ، ليكون محدودا من الطرفين . قوله ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ﴾ بزيادة من ، وفى هود ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ﴾ ، لأن فى هذه السورة بين جهة الرحمة ، وبالكلام حاجة إلى ذكرها ، وحذف فى هود ، اكتفاء بما قبله ، وهو قوله ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ ، وزاد فى هذه السورة (من) لأنه لما حد الرحمة والجهة الواقعة منها ، حد الطَّرف الذى بعدها فتشاكلا فى التحقيق ، وفى هود لما أهمل الأول أهمل الثانى . قوله ﴿ أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ﴾ وفى الأحقاف ﴿ وكفرتم به ﴾ بالواو ، لأن معناه فى هذه السورة كان عاقبة أمركم بعد الإمهال للنظر والتدبر والكفر ، فحسن دخول ثم ، وفى الأحقاف عطف عليه (وشهد شاهد) فلم يكن عاقبة أمرهم فكان من مواضع الواو .

مناسبة السورة لما قبلها

(١) إنهما اشتركتا فى تهديد قريش وتقريعهم ، فقد توعدهم فى السورة السابقة بقوله (أفلم يسيروا فى الأرض - الآية) وهددهم هنا بقوله (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) .

(٢) إن كلتيهما بدأت بوصف الكتاب الكريم .

قال تعالى :

حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢) كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ (٥) قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (٦) ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ (٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٨) *

تفسير المفردات

﴿ لا يسمعون ﴾ أى لا يقبلون ولا يطيعون ، من قولهم : تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولى . أى لم يقبله ولم يعمل به فكأنه لم يسمعه ، ﴿ والأكنة ﴾ واحدها كنان : وهى خريطة السهام ، والمراد إنها فى أغطية متكاثفة . ﴿ والوقر ﴾ الثقل فى السمع . ﴿ فاستقيموا إليه ﴾ أى فأخلصوا له العبادة ، ﴿ ويل ﴾ أى هلاك ، ﴿ لا يؤتون الزكاة ﴾ أى لا يتصدقون بجزء من مالهم للسائل والمحروم ، ﴿ ممنون ﴾ : أى مقطوع من قولهم مننت الحبل إذا قطعته .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيراً ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينكْ حجاب فاعمل إننا عاملون** ﴾ .

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة عن محمد بن كعب القرظى قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده ، يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ ، وذلك حين أسلم حمزة ـ رضى الله عنه ـ ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، فقالوا بلى ياأبا الوليد فقم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : ياابن أخى ، إنك منا حيث علمت من البسطة فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال فقال له رسول الله ﷺ : « قل ياأبا الوليد أسمع » قال : ياابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال « أفرغت ياأبا الوليد ؟ قال نعم . قال « فاستمع منى » قال : افعل . قال (بسم الله الرحمن الرحيم حمّ * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤ ها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال « قد سمعت ياأبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك . فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك ياأبا الوليد ؟ قال ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به . قالوا سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه ؟ قال هذا رأيى فيه فاصنعوا مابدا لكم »[١] .

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

يقول تعالى ﴿ **حمٓ * تنزيل من الرحمن الرحيم** ﴾ يعنى القرآن الكريم منزل من الرحمن الرحيم كقوله تعالى ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين** ﴾ . وقوله تعالى ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم** ﴾ وكقوله سبحانه ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾وكقول جل فى علاه ﴿ **تنزيل من حكيم حميد** ﴾ وكقوله ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ .

وقوله تبارك اسمه : (كتاب فصلت آياته) أى بينت معانيه وأحكمت أحكامه (قرآنا عربيا) أى فى حال كونه عربيا بيناً واضحاً فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشكلة كقوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[1] أى هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **لقوم يعلمون** ﴾ أى إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الرساخون ، أصحاب العقول النيرة والقلوب السليمة .

وقوله (بشيرا ونذيرا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾[3] وكقوله سبحانه ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ﴾[4] وكقوله ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدقٍ عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾[5] وكقوله جل وعلا ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً ﴾[6] .

وقوله تعالى : ﴿ **فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون** ﴾ أى : فاستكبر أكثر المشركين عن الإصغاء إليه ، ولم يقبلوه ولم يطيعوا ما فيه من أوامر ونواه ، إعراضا عن الحق . ثم صرحوا بنضرتهم منه ، وتباعدهم عنه ، وذكروا لذلك ثلاثة أسباب ، تعللاً واحتقارا لدعوته .

(١) (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) أى إن قلوبنا فى أغطية متكاثفة مما تدعونا إليه من الإيمان بالله وحده ، وترك ما ألفينا عليه آباءنا ، فهى لا تفقه ما تقول من التوحيد ، ولا يصل إليها قولك .

(٢) (وفى آذاننا وقر) أى وفى آذاننا صمم يمنعها من استماع قولك .

(٣) (ومن بيننا وبينك حجاب) أى ومن بيننا وبينك ستر يمنعنا عن إجابتك . روى أن أباجهل استغشى على رأسه ثوباً وقال : يامحمد بيننا وبينك حجاب ، وقصارى ما يقولون . إن قلوبهم نابية عن إدراك ماجئت به من الحق وتقبله واعتقاده ، كأنها فى غُلُف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ، وأسماعهم لا يدخل إليها شىء منه ، كأن بها صمما ، ولتباعد الدينين وتباعد **الطريقتين** كان بينهم وبين رسول الله ﷺ حجاب كثيف ، وحاجز منيع .

---

(١) سورة هود الآية : ١ .
(٢) سورة فصلت الآية : ٤٢ .
(٣) سورة الأحقاف الآية : ١٢ .
(٤) سورة هود الآيتان : ١ ، ٢ .
(٥) سورة يونس الآية : ٢ .
(٦) سورة الكهف الآيات : ١ - ٣ .

ثم بارزوه بالخلاف وشن الغارات الجدلية بما لم يبق بعده - مجال للوفاق فقالوا : (فاعمل إننا عاملون) أى فاعمل فى إبطال أمرنا جهد طاقتك ، ونحن نعمل جاهدين فى فض الناس من حولك وتشتيت شمل من آمن بك حتى تبطل دعوتك .

قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾ .

يقول تعالى : قل يامحمد لهؤلاء المكذبين المشركين : (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهاكم إله واحد ﴾ لا كما تعبدون من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين إنما الله إله واحد ، (فاستقيموا إليه) أى : أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل (واستغفروه) أى : لسالف الذنوب (وويل للمشركين) أى : دمار لهم وهلاك عليهم (الذين لا يؤتون الزكاة) قال ابن عباس يعنى الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله وكذا قال عكرمة وهذا كقوله تعالى : (قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) وكقوله جلت عظمته ﴿ **قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ **فقل هل لك إلى أن تزكى** ﴾ فالمراد بالزكاة هنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك ، وزكاة المال سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه ، وتوفيقا إلى استعمال الطاعات . وقال السدى (وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة) أى لا يدينون بالزكاة ، وقال قتادة : يمنعون زكاة أموالهم وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين واختاره ابن جرير ، يقول العلامة ابن كثير : وفيه نظر ، لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال لا يبعد أن يكون أهل الصدقة والزكاة كان مأمورا به فى ابتداء البعثة كقوله تعالى ؛ ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ ، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة ويكون هذا جمعا بين القولين . كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى ابتداء البعثة فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئا فشيئا ، وقصارى ذلك - دمار وهلاك لمن أشرك بربه ولم يطهر نفسه من دنس الرذائل التى من أهمها البخل بالمال ، وأنكر البعث والجزاء .

ثم قال جل جلاله : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾ قال مجاهد وغير : غير مقطوع كقوله تعالى ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً ﴾[1] وكقوله تعالى : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾[2] .

(١) سورة الكهف الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٢) سورة هود الآية : ١٠٨ .

من آيات التوحيد

قال تعالى

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾

معانى المفردات

﴿ **فى يومين** ﴾ أى فى نوبتين ﴿ **الرواسى** ﴾ : الجبال الثوابت ، ﴿ **أقواتها** ﴾ أى : أقوات أهلها ﴿ **سواء** ﴾ أى كاملة لا نقصان فيها ولا زيادة ، ﴿ **للسائلين** ﴾ أى لطالبى الأقوات المحتاجين إليها ، ﴿ **استوى** ﴾ الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، فهو استواء يليق بعظمة ربنا سبحانه وتعالى ﴿ **دخان** ﴾ أى مادة غازية أشبه بالدخان ﴿ **فقضاهن** ﴾ أى : فرغ من تسويتهن ، ﴿ **أمرها** ﴾ أى : شأنها ﴿ **بمصابيح** ﴾ أى : بكواكب ونجوم . ﴿ **وحفظا** ﴾ حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن أمر رسوله ﷺ بأن يقول للمشركين : إن ما تلقيته بالوحى أن **إلاهكم** إله واحد ، فأخلصوا له العبادة ـ أردف هذا ما يدل على كمال قدرته وحكمته فى خلق السموات والأرض على أطوار مختلفة متعاقبة وأكمل لكل منها ما هى مستعدة له ، وزين السماء بالنجوم والكواكب الثوابت والسيارات ولا **عجب** فذلك تقدير العزيز الغالب على أمره ، العليم بكل ما فيهما ، لا يخفى عليه شىء منهما ، **فكيف يسوغ لكم أن تجعلوا** الأوثان والأصنام شركاء له ، وليس لها شىء فى خلقهما وتقديرهما ، **تعالى الله عن ذلك** .

قوله تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب

العالمين ﴾[١] . أى : قل أيها الرسول لمشركى قومك توبيخاً وتقريعاً . كيف تكفرون بالذى خلق الأرض التى تقلّكم فى يومين ؟ فتقولون إنه لا يقدر على حشر الموتى من قبورهم ، وتنسبون إليه الأولاد وتقولون إنه لم يبعث أنبياء - أى : كيف تقولون هذا ، مع أنه خلق الأرض فى يومين .

﴿ **وتجعلون له أنداداً** ﴾ أى : وتجعلون له أنداداً وأمثالا من الملائكة والجن والأصنام والأوثان . ثم شدد عليهم فى الإنكار وبين أن مثل هذا لا ينبغى أن يكون فقال سبحانه : ﴿ **ذلك رب العالمين** ﴾ أى : ذلك الذى خلق الأرض فى نوبتين ، نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية ، ومرة جعلها ستاً وعشرين طبقة فى ستة أطوار كما بين ذلك علماء طبقات الأرض - هو رب العالمين لا ربها وحدها ، فهو مربى المخلوقات جميعاً ، فإن رباها فى نوبتين فقد ربى غيرها فى نوبات يعلم سبحانه عددها فكيف يكون شىء منها نداً له وضريباً ؟

ثم بين إحكام ذلك الخلق وحسن تدبيره فقال جل فى علاه :

﴿ **وجعل فيها رواسى من فوقها** ﴾ أى : وجعل فيها جبالا ثوابت مرتفعة عليها ، أسُسُها فى الأرض وهى الطبقة الصوانية ، وهذه الطبقة : هى التى برزت فيها الجبال ، فالجبال أساسها بعيدة الغور ، ضاربة فى جميع الطبقات ، واصلة إلى أول طبقة ، وهى الطبقة الصوانية التى لولاها لم تكن الأرض أرضا ولم نستقر عليها ؟ فأرضنا كرة من النار غطيت بطبقة صَوَّانية فوقها طبقات ألطف منها تكوّن فيها الحيوان والنبات على مدى الزمان ، والجبال نتوءات نتأت من تلك الطبقة ، وارتفعت فوقها عشرات آلاف الكيلومترات ، وصارت مخازن للمياه والمعادن وهداية للطرق وحافظة للهواء والسحاب ، ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **وبارك فيها** ﴾ أى : وجعلها مباركة كثيرة الخيرات بما خلق فيها من المنافع فجعل جبالها مبدأ لجريان الأنهار ، ومخزناً للمعادن كالذهب والفضة والحديد والنحاس وغير ذلك . ﴿ **وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين** ﴾ أى : قدر لأهلها من الأقوات ما يناسب حال كل إقليم من مطاعم وملابس ونبات ، ليكون بعض الناس محتاجاً إلى بعض ، فتروج المتاجر بينهم وتنتقل المحصولات من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر . وفى هذا عمار للأرض وانتظام أمور العالم .

ثم ذكر سبحانه فذلكة لما تقدم فقال : ﴿ **فى أربعة أيام** ﴾ أى :

إن خلق الأرض وجعل الرواسى فيها فى نوبتين ، وإكثار خيراتها وتقدير أقواتها فى نوبتين فيكون ذلك فى أربع نوبات ، كما يقول القائل خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوماً : أى : فى تتمة خمسة عشر يوماً . وقصارى ذلك - إن حصول جميع ما تقدم من خلق الأرض وخلق الجبال الرواسى فيها وتقدير الأقوات فى أربعة أيام .

---

(١) سورة فصلت الآية ٩
(٢) سورة النمل من الآية ٨٨

﴿ سواء للسائلين ﴾ أى : فى أربعة أيام كاملة وفق مراد طالب القوت ومن له حاجة إليه وهو كل حيوان على وجه الأرض كما قال سبحانه : ﴿ يسأله من فى السموات والأرض ﴾[١] فالناس والحيوان كلهم سائلون ربهم ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ولباس ورداء - سؤالاً طبيعياً مغروساً فى جبلتهم . ولما كان الإنسان يهتم بحال ما حوله من الأرض قدّم ذكرها ، وبين أنها هى وما عليها قد كونها سبحانه فى أربعة نوبات ، فنوبة لتجمد المادة الأرضية بعد أن كانت غازا ، ونوبة لتكميل بقية طبقاتها ، ويدخل فى ذلك معادنها ، ومرة للنبات وأخرى للحيوان .

ولما انتهى سبحانه من الكلام فى الأرض أخذ يذكر السماء ، فالترتيب فى الذكر فحسب فقال تعالى :

﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان ﴾ أى : ثم دعا داعى الحكمة إلى خلق السماء وهى مادة غازية أشبه بالدخان أو بالسحاب أو بالسديم ، وتسمى فى العلم الحديث (عالم السديم) وقد شاهدوا من تلك العوالم اليوم عوالم كثيرة فى عالم السديم آخذة فى البروز كما برزت شمسنا ، وسياراتها ، وأرضها ، وكانت فى الأصل دخاناً . وعلى الجملة فالتكوين لم يكن فى لحظة واحدة - وهو قادر سبحانه على ذلك وهو على كل شىء قدير - بل كان وفق الحكمة والنظام فى غير نوبة ، ثم ذكر سبحانه ما كان من شأنهما بعد خلقهما فقال سبحانه :

﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ .

أى : فقال لتلك العوالم السماوية وللأرض التى دارت حولها : ائتيا كيف شئتما طائعتين أو كارهتين ، فأجابتا ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ . قال ابن عباس : قال الله تعالى للسموات : أطلعى شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض شقى أنهارك ، وأخرجى شجرك وثمارك ، طائعتين أو كارهتين ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾[٢] .

وفى هذا دلالة على الحركة المستمرة المعبر عن سببها بالجاذبية ، فهى حركة تجرى جرى طاعة لا جرى قسر ، فإنا نشاهد أنا نرمى الحجر إلى أعلى قسراً فيأبى إلا أن ينزل إلى الأرض بطريق الجاذبية إلى جسم أكبر منه وهى الأرض ، وهكذا الأرض مجذوبة إلى الشمس التى هى أصلها بحركة دورية دائمة طوعاً لا قسراً ، لأن القسرية كرمى الحجر إلى أعلى سريعة الزوال ، أما حركة الطاعة فهى دائمة ما دام المطيع متخلقاً بخلقه الذى هو فيه .

﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾ أى : فأتم خلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن فى نوبتين سوى الأربعة الأيام التى خلق فيها الأرض ، فوقع خلق السموات والأرض فى ستة أيام كما قال سبحانه : ﴿ خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ على ما اقتضته الحكمة وحسن النظام سبحانه وتعالى :

---

(١) سورة الرحمن من الآية ٢٩

(٢) سورة فصلت من الآية ١١

وقوله تعالى : ﴿ **وأوحى فى كل سماء أمرها** ﴾ أى : وخلق فى كل منها ما استعدت له ، واقتضت الحكمة أن يكون فيها من بحار وبرد وثلج إلى نحو أولئك مما لا يعلمه إلا الله ، قاله السدى وقتادة :

﴿ **وزينا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾ أى : بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلألؤ المصابيح ، وهى وإن تفاوتت ارتفاعاً وانخفاضاً فكلها ترى متلألئة . ﴿ **وحفظاً** ﴾ أى : وحرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملإ الأعلى . كقوله تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾[1] والضمير فى قوله ﴿ **وجعلناها** ﴾ عاد على جنس المصابيح لاعلى عينها لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء بل بشهب من دونها وقد تكون مستمدة منها والله أعلم قاله ابن كثير .

﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ أى : إن ذلك الذى تقدم هو تقدير **العزيز** الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره ، العليم بحركات مخلوقاته وسكناتها سرها ونجواها ، ظاهرها وباطنها ، كقوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[2] .

قصص عاد وثمود

قال تعالى :

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

(١) سورة الملك من الآية ٥

(٢) سورة الأنعام آية ٩٦

معانى المفردات

﴿ **صاعقة** ﴾ أى : عذاباً شديد الوقع كأنه صاعقة . قال المبرد : الصاعقة : المرة المهلكة لأى شىء كان ، وهى فى الأصل : الصيحة التى يحصل بها الهلاك ، أو قطعة نار تنزل من السماء معها رعد شديد ، ﴿ **من بين أيديهم ومن خلفهم** ﴾ أى : من كل ناحية ﴿ **صرصراً** ﴾ أى : باردة تهلك بشدة بردها . ﴿ **نحسات** ﴾ وأحدها نحسه (بكسر الحاء) أى : نكدات مشئومات . ﴿ **الهون** ﴾ الذل .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أنكر سبحانه عليهم عبادة الأوثان والأنداد ، وطلب إليهم ألا يعبدوا إلا الله الذى خلق السموات والأرض ، وزين السماء الدنيا بالمصابيح وأوجد فى الأرض جبالا رواسى أن تميد بهم ، ثم أعرضوا عن كل ذلك لم يبق حينئذ طريق للعلاج . ومن ثم أمر رسوله أن ينذرهم بحلول شديد النقم بهم إن هم أصروا على عنادهم كما نزل بعاد وثمود من قبلهم .

التفسير

يقول تعالى : قل : يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى فإنى أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿ **صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾ أى : ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما ﴿ **إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم** ﴾ أى : فى القرى المجاورة لبلادهم بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له ومبشرين ومنذرين ، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم ، وما ألبس أولياءه من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا وقالوا ﴿ **لو شاء ربنا لأنزل ملائكة** ﴾ أى : لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده ﴿ **فإنا بما أرسلتم به** ﴾ أى : أيها البشر ﴿ **كافرون** ﴾ أى : لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا ، قال الله تعالى : ﴿ **فأما عاد فاستكبروا فى الأرض** ﴾ أى : بغوا وعقوا وعصوا ﴿ **وقالوا من أشد منا قوة** ﴾ ؟ حتى يستطيع قهرنا وإذلالنا وقد كانوا قوماً طوال القامة شديدى الأسر ، كما قال تعالى : حاكيا عن نبيه هود وهو يعظهم ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾[1] .

فرد الله عليهم موبخاً ، بقوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة** ﴾ ؟ أى : أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ، فإنه العظيم الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ، وأن بطشه شديد ، كما قال عز وجل : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾[2] فبارزوا الجبار بالعداوة وجحدوا بآياته ، وعصوا رسله ، فحاسبها الله حساباً شديداً وعذبها عذاباً نكراً ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرها ، يقول تعالى : ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً** ﴾ ريحا شديدة قوية

---

(١) سورة الأعراف الآية ٦٩
(٢) سورة الذاريات الآية ٤٧

لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم وكانت باردة شديدة البرد جداً كقوله تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾(١) . وهنا يقول سبحانه : ﴿ **فى أيام نحسات** ﴾ أى : متتابعات كقوله ﴿ **سبع ليال وثمانية أيام حسوما** ﴾ وكقوله : ﴿ **فى يوم نحس مستمر** ﴾(٢) . أى : ابتدأوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس ﴿ **سبع ليال وثمانية أيام حسوما** ﴾ حتى أبادهم عن آخرهم واتصل بهم خزى الدنيا بعذاب الآخرة ولهذا قال تعالى : ﴿ **لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى** ﴾أى : أشد خزياً لهم ﴿ **وهم لا ينصرون** ﴾أى : فى الأخرى كما لم ينصروا فى الدنيا وما كان لهم من الله من واحد يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال .

وقوله عز وجل : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾ أى : بصرناهم وبينا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ﴿ **فأخذتهم صاعقة العذاب الهون** ﴾ أى : بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً ﴿ **بما كانوا يكسبون** ﴾ أى : من التكذيب والجحود . ﴿ **ونجينا الذين آمنوا** ﴾ أى : من بين أظهرهم لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح ـ عليه الصلاة والسلام ـ بإيمانهم وتقواهم لله ـ عز وجل ـ والعاقبة للمتقين .

أضواء كاشفة
على قصة عاد

قال العلامة ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » ما نصه : (قصة هود ـ عليه السلام ـ) وهو هود ابن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ . وكان من قبيلة يقال لهم : عاد بن عوص بن سام بن نوح ، كانوا عرباً يسكنون الأحقاف : وهى جبال الرمل وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر واسم واديهم مغيث ، وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد ﴾(٣) أى عاد إرم وهم عاد الأولى . وأما عاد الثانية فمتأخرة ـ كما سيأتى ـ بيان ذلك فى موضعه إن شاء الله ، وأما عاد الأولى منهم عاد ﴿ **إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾ أى : مثل القبيلة . وقيل : مثل العمد والصحيح الأول كما بيناه فى التفسير . ومن زعم أن إرم مدينة تدور فى الأرض ، فتارة فى الشام ، وتارة فى اليمن ، وتارة فى الحجاز وتارة فى غيرها فقد أبعد النجعة وقال : ما لا دليل عليه ولا برهان يعول عليه ولا مستند يركن إليه . وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه منهم أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر .

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل ـ عليه السلام ـ العرب العاربة وهم : قبائل كثيرة منهم عاد ، وثمود ، وجرهم ، وطسم ، وجديس . وأميم . ومدين ، وعملاق ، وعبيل ، وجاسم ، وقحطان . وأما العرب المستعربة منهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل . وكان إسماعيل بن

---

(١) سورة الحاقة لآيات ٦ ـ ٨ (٢) سورة القمر من الآية ١٩ (٣) سورة الفجر الآيتان ٦ ـ ٧

إبراهيم ـ عليهما السلام ـ أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة . وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم ، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة ، والبيان وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

والمقصود : أن عاداً وهم عاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان . وكان أصنامهم ثلاثة : صدا ، وصمودا ، ونقرا . فبعث الله فيهم أخاهم هوداً ـ عليه السلام ـ فدعاهم إلى الله تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم فى سورة الأعراف : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون * قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤ نا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين * فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾[1] وقال تعالى : بعد ذكر قصة نوح فى سورة هود : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون * يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على لذى فطرنى أفلا تعقلون * ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين * قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم * فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربى على كل شىء حفيظ * ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ * وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾[2] .

وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون ـ بعد قصة قوم نوح : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين * فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين * قال رب انصرنى بما كذبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين ﴾[3] وقال تعالى فى سورة الشعراء : بعد قصة قوم نوح أيضاً : ﴿ كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم

---

(١) سورة الأعراف الآيات ٦٥ ـ ٧٢

(٢) سورة هود الآيات ٥٠ ـ ٦٠

(٣) سورة المؤمنون الآيات ٣١ ـ ٤١

هود ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذبين * فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[١] . وقال تعالى : فى سورة حم فصلت ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة * أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾[٢] وقال تعالى فى سورة الأحقاف : ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون * فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾[٣] .

وقال تعالى فى الذاريات : ﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾[٤] وقال تعالى فى النجم : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى * وثمود فما أبقى * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى * والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى * فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾[٥] وقال تعالى فى سورة اقتربت : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابى ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[٦] وقال فى الحاقة : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾[٧] وقال فى سورة الفجر : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد ﴾[٨] وقد تكلمنا على كل من هذه القصص فى أماكنها من كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة .

وقد جرى ذكر عاد فى سورة براءة ، وابراهيم ، والفرقان ، والعنكبوت ، وفى سورة (ص) وفى سورة (ق) ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه البيانات مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار . وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان ، وذلك تبين فى قوله لهم ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٢٣ - ١٤٠
(٢) سورة فصلت الآيات ١٥ - ١٦
(٣) سورة الاحقاف الآيات ٢١ - ٢٥
(٤) سورة الذاريات الآيتان ٤١ - ٤٢
(٥) سورة النجم الآيات ٥٠ - ٥٥
(٦) سورة القمر الآيات ١٨ - ٢٢
(٧) سورة الحاقة الآيات ٦ - ٨
(٨) سورة الفجر الآيات ٦ - ١٤

من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة ﴾[١] أى : جعلهم أشد أهل زمانهم فى الخلقة والشدة والبطش . وقال فى المؤمنون ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ وهم قوم هود على الصحيح .

والمقصود : أن عادا كانوا عربا جفاة كافرين عتاه متمردين فى عبادة الأصنام فأرسل الله فيهم رجلا منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم فى طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة ﴾[٢] أى : هذا الأمر الذى تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التى يرتجى منها النصر والرزق ومع هذا نظن أنك تكذب فى دعواك أن الله أرسلك ﴿ قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ﴾[٣] أى : ليس الأمر كما تظنون ولا ما تعتقدون ﴿ أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ﴾[٤] والبلاغ : يستلزم عدم الكذب فى أصل المبلغ ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه ، ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب ، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة فى غاية النصح لقومه والشفقة عليهم ، والحرص على هدايتهم لا يبتغى منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلا بل هو مخلص لله - عز وجل - فى الدعوة إليه والنصح لخلقه لا يطلب أجره إلا من الذى أرسله فإن خير الدنيا والآخرة كله فى يديه وأمره إليه ولهذا ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ﴾[٥] أى : مالكم عقل تميزون به وتفهمون أنى أدعوكم إلى الحق المبين الذى تشهد به فطرتكم التى خلقتم عليها وهو دين الحق الذى بعث الله به نوحا وأهلك من خالفه من الخلق ، وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجرا عليه بل أبتغى ذلك عند الله مالك الضر والنفع ولهذا قال : مؤمن (يس) .

﴿ قال ياقوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون * ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ﴾[٦] وقال : قوم هود له فيما قالوا :

﴿ قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾[٧] يقولون : ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به وما نحن بالذين نترك عبادة أصناما عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته * وما نظن إلا أنك مجنون فيما نزعمه ، وعندنا إنما أصابك هذا أن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك فى عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهو قولهم : ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ﴾ وهذا تحدّ منه لهم وتبرٍّ من آلهتهم ، وتنقص منه لها ، وبيان أنها لا تنفع شيئا ولا تضر ، وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله . فإن كانت كما تزعمون من أنها تضر وتنفع فهاأنا برىء منها لاعن لها (فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون) أنتم جميعا بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ولا تؤخرونى ساعة واحدة ولا طرفة عين فإنى لا أبالى ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم (إنى توكلت على الله

(١) سورة الأعراف من الآية ٦٩
(٢) سورة الأعراف من الآية ٦٦
(٣) سورة الأعراف من الآية ٦٧
(٤) سورة الأعراف من الآية ٦٨
(٥) سورة هود الآية ٥١
(٦) سورة يس الآيات ٢٠ - ٢٢
(٧) سورة هود الآية ٥٣ ومن الآية ٥٤

ربى وربكم ما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها إن ربى على صراط **مستقيم** ﴾ أى : أنا متوكل على الله ومتأيد به ، وواثق بجنابه الذى لا يضيع من لاذ به واستند إليه فلست أبالى مخلوقا سواه ولست أتوكل إلا عليه ، ولا أعبد إلا إياه . وهذا وحده برهان قاطع على أن هودا عبدالله ورسوله وأنهم على جهل وضلال فى عبادتهم غير الله ، لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروها فدل على صدقه فيما جاءهم به وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه . وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح ـ عليه السلام ـ ﴿ ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾[١] . وهكذا قال الخليل عليه السلام ﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ﴾[٣] استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشريا وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً كما قال تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾[٤] ولهذا قال لهم هود : عليه السلام ـ ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾[٥] أى : ليس هذا بعجيب فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وقوله : ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين * قال ربى انصرنى ﴾[٦] استبعدوا المعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابا وعظاما ، وقالوا : هيهات هيهات ، أى : بعيد بعيد هذا الوعد إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين .

أى : يموت قوم ويحيى آخرون . وهذا هو اعتقاد الدهرية كما يقول : بعض الجهلة من الزنادقة أرحام تدفع وأرض تبلع . وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بنى آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون كما قال تعالى : ﴿ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾[٧] وقال لهم فيما وعظهم به ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾[٨] يقول لهم : أتبنون بكل مكان مرتفع بناء

---

(١) سورة يونس من الآية ٧١
(٢) سورة الأنعام الآيات ٨٠ ـ ٨٣
(٣) سورة المؤمنون ٣٣ ـ ٣٤
(٤) سورة الإسراء الآيتان ٩٤ ـ ٩٥
(٥) سورة الأعراف من الآية ٦٩
(٦) سورة المؤمنون ٣٥ ـ ٣٩
(٧) سورة الأنعام ١١٣
(٨) سورة الشعراء ١٢٨ ، ١٢٩

عظيما هائلا كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه وماذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ .

فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التى تحمل الخيام . وقوله ﴿ **وتتخذون مصانع** ﴾ قيل هى : القصور . وقيل : بروج الحمام ، وقيل : مآخذ الماء ﴿ **لعلكم تخلدون** ﴾ أى : رجاء منكم أن تعمروا فى هذه الدار أعمارا طويلة ﴿ **وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذى أمدكن بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ وقالوا له : مما قالوا : ﴿ **أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ أى : أجئتنا لنعبد الله وحده ونخالف أباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه . فإن كنت صادقا فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك كما قالوا : ﴿ **سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذبين** ﴾ .

قال : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾(١) أى : قد استحقيتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وأباؤكم ﴿ **ما نزل الله بها من سلطان** ﴾ أى : لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلا ولا برهانا ، وإذا أبيتم قبول الحق وتماديتم فى الباطل وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم وبأسه الذى لا يرد ونكاله الذى لا يصد وقال تعالى : ﴿ قال رب انصرنى بما كذبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون * فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾(٣) وقد ذكر الله تعالى : خبر إهلاكهم فى غير ما آية كما تقدم مجملاً ومفصلا كقوله تعالى : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾(٤) وكقوله : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ * وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾(٥) وكقوله ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين ﴾(٦) وقال تعالى : ﴿ فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٧) .

وأما تفصيل إهلاكهم فكما قال تعالى : ﴿ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾(٨) .

(١) سورة الأعراف الآية ٧١
(٢) سورة المؤمنون الآيات ٣٩ ـ ٤١
(٣) سورة الأحقاف الآيات ٢١ ـ ٢٥
(٤) سورة الأعراف الآية ٧٢
(٥) سورة هود الآيات ٥٨ ـ ٦٠
(٦) سورة المؤمنون الآية ٤١
(٧) سورة الشعراء الآيتان ١٣٩ ـ ١٤٠
(٨) سورة الأحقاف الآية ٢٤

كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين مسنتين فطلبوا السقيا فرأوا عارضا فى السماء وظنوه سقيا رحمة فإذا هو سقيا عذاب ولهذا قال تعالى : ﴿ **بل هو ما استعجلتم به** ﴾ أى : من وقوع العذاب وهو قولهم ﴿ **فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ ومثلها فى الأعراف : ﴿ **بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها** ﴾ فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ؟ والحسوم : الدائمة فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك قال الإمام محمد بن اسحق : واعتزل هود ـ عليه السلام ـ فيما ذكر لى فى حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود ويلتذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة . وقد قال ابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من أئمة التابعين : فى قوله تعالى : ﴿ **ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها** ﴾ قالوا : هى الباردة ، والعاتية الشديدة الهبوب . ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾(١) أى : كوامل متتابعات . قيل كان أولها الجمعة وقيل الأربعاء ﴿ **فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾ شبههم بأعجاز النخل ، التى لا رؤس لها وذلك لأن الريح كانت تجىء إلى أحدهم فتحمله فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس كما قال تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر** ﴾ أى : فى يوم نحس عليهم مستمر عذابه عليهم ﴿ **تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر** ﴾ ومن قال : إن اليوم النحس المستمر هو : يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القرآن فإنه قال فى الآية الأخرى . ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات** ﴾ ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات فلو كانت نحسات فى أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها شؤمة وهذا لا يقوله أحد ، وإنما المراد فى أيام نحسات أى : عليهم . وقال تعالى : ﴿ **وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم** ﴾(٢) أى : التى لا تنتج خيرا فإن الريح المفردة لا تنثر سحابا ، ولا تلقح شجرا بل هى عقيم لا نتيجة خير لها ، ولهذا قال ﴿ **ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ أى : كالشىء البالى الفانى الذى لا ينتفع به بالكلية .

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « **نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور** »(٣) وأما قوله تعالى : ﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ فالظاهر : أن عاداً هذه هى : عاد الأولى فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى . ويحتمل أن يكون المذكورون فى هذه القصة هم : عاد الثانية ، ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتى من الحديث عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ . وأما قوله : ﴿ **فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا** ﴾ فإن عادا لما رأوا هذا العارض وهو الناشىء فى الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر فإذا هو سحاب عذاب ، اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة ، رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر قال الله تعالى : ﴿ **بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم** ﴾ يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب التى استمرت سبع ليال بأيامها

---

(١) سورة الحاقة من الآية ٧ (٢) سورة الذاريات الآية ٤١

(٣) انظر صحيح مسلم فى كتاب ـ صلاة الاستسقاء ـ باب ريح الصبا والدبور جـ ٢ ص ٦١٧ رقم ١٧/٩٠٠ .
وفى صحيح البخارى : ج ٢ ص ٤٠ ، ٤١ كتاب الاستسقاء ـ باب ـ قول النبى ﷺ (نصرت بالصبا) عن ابن عباس .

الثمانية فلم تبق منهم أحدا بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة فكما منوا بقوتهم وشدتهم وقالوا من أشد منا قوة ، سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم وهو : الريح العقيم . ويحتمل أن هذه الريح أثارت فى آخر الأمر سحابة ظن من بقى منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقى منهم فأرسلها الله عليهم شررا وناراً كما ذكره غير واحد ، ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التى ذكرها فى سورة قد أفلح المؤمنون والله أعلم .

روى مسلم فى صحيحه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به قالت : وإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سرِّى عنه ، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال : لعله يا عائشة كما قال : قوم عاد : فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا »[1] رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث ابن جريج .

طريق أخرى . قال الإمام أحمد : عن عائشة : ـ رضى الله عنها ـ قالت : ما رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ مستجمعاً ضاحكا قط حتى أرى منه لهواته إنما كان يبتسم . وقالت : كان إذا رأى غيماً ـ أو ريحاً ـ عُرف ذلك فى وجهه ، قالت : يا رسول الله ، (الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف من وجهك الكراهية ؟ فقال : يا عائشة : ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم نوح بالريح . وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا)[2] فهذا الحديث كالصريح فى تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً . فعلى هذا تكون القصة المذكورة فى سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية . وتكون بقية السياقات فى القرآن خبرا عن عاد الأولى والله أعلم بالصواب ا.هـ .

أضواء كاشفة
على قصة ثمود

قال العلامة ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » (قصة صالح نبى ثمود ـ عليه السلام) وهم : قبيلة مشهورة يقال : ثمود باسم جدهم ثمود أخى جريس وهما أبناء عابر بن إرم بن سام بن نوح ، وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك . وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتى بيانه ، وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو : عبد الله ورسوله صالح بن عبد الله ماشخ ، بن عبيد ، بن حاجر ، بن ثمود ، ابن عابر ، بن إرم ، بن سام ، بن نوح . فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئا ، فآمنت به طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه جـ ٢ ص ٦١٦ كتاب صلاة الاستسقاء رقم ٨٩٩/١٥ عن عائشة .
(٢) انظر صحيح مسلم ـ صلاة الاستسقاء جـ ٢ ص ٦١٦ ، ٦١٧ رقم ٨٩٩/١٦ وانظر سند الإمام أحمد جـ ٦ ص ٦٦ عن عائشة .
وفى صحيح البخارى جـ ٦ ص ١٦٧ فى تفسير سورة الاحقاف .

بقتله وقتلوا الناقة التى جعلها الله حجة عليهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون * فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾[1] ، وقال تعالى فى سورة هود : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب * قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤ نا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير * ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب * فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب * فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾[2] . وقال تعالى فى سورة الحجر : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾[3] وقال سبحانه وتعالى فى سورة الإسراء : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾[4] . وقال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجرى إلا على رب العالمين * أتتركون فى ما هاهنا آمنين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون * قالوا إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأتِ بآية إن كنت من الصادقين * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوءٍ فيأخذكم عذاب يوم عظيم * فعقروها فأصبحوا نادمين * فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[5] وقال تعالى فى سورة النمل : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون * قال يا قوم لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون * قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم

(١) سورة الأعراف الآيات ٧٣ ـ ٧٩
(٢) سورة هود الآيات ٦١ ـ ٦٨
(٣) سورة الحجر الآيات ٨٠ ـ ٨٤
(٤) سورة الإسراء آية ٥٩
(٥) سورة الشعراء الآيات ١٤١ ـ ١٥٩

تفتنون * وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون * قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون * ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[١] .

وقال تعالى فى سورة فصلت ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[٢] وقال تعالى فى سورة القمر : ﴿ كذبت ثمود بالنذر * فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر * أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر * سيعلمون غداً من الكذاب الأشر * إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر * ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها * فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها ﴾[٤] . وكثيرا ما يقرن الله فى كتابه بين ذكر عاد وثمود كما فى سورة براءة ، وإبراهيم ، والفرقان ، وسورة ، (ص) ، وسورة (ق) ، والذاريات ، والنجم ، والفجر ، . ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب وليس لهما ذكر فى كتابهم التوراة ولكن فى القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما كما قال تعالى : فى سورة إبراهيم : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد * ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾[٥] الآية . الظاهر : أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيدا ولا اعتنوا بحفظه وإن كان خبرهما كان مشهوراً فى زمان موسى ـ عليه السلام ـ وقد تكلمنا على هذا كله فى التفسير متقصيا ولله الحمد والمنة .

والمقصود : الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم وكيف نجى الله نبيه صالحاً ـ عليه السلام ـ ومن آمن به ، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم ـ عليه السلام ـ قد قدمنا أنهم كانوا عربا وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم . ولهذا قال لهم نبيهم ـ عليه السلام ـ ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾[٦] أى : إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم وتعملوا بخلاف عملهم وأباح لكم هذه الأرض تبنون فى سهولها القصور وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين أى : حاذقين فى صنعتها وإتقانها وإحكامها ، فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لا شريك له

---

(١) سورة النمل الآيات ٤٥ ـ ٥٣
(٢) سورة فصلت الآيتان ١٧ ـ ١٨
(٣) سورة القمر الآيات ٢٣ ـ ٣٢
(٤) سورة الشمس الآيات ١١ ـ ١٥
(٥) سورة إبراهيم الآيات ٨ ـ ٩
(٦) سورة الأعراف من الآية ٧٢ ـ ٧٤

وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته فإن عاقبة ذلك وخيمة ولهذا وعظهم بقوله : ﴿ أتتركون فى ما هاهنا آمنين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيمٌ ﴾[(١)] أى : متراكم كثير حسن بهى ناضج ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾[(٢)] وقال لهم أيضاً ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾[(٣)] أى : هو الذى خلقكم فأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها ، أى : أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهو الخالق الرزاق فهو الذى يستحق العبادة وحده لا سواه ﴿ **فاستغفروه ثم توبوا إليه** ﴾ أى : أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿ **إن ربى قريب مجيب * قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا** ﴾ أى : قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملا قبل هذه المقالة وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة وترك ما كنا نعبده من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا : ﴿ **أتنهانا أن نترك ما يعبد أباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وأتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير** ﴾ . وهذا تلطف منه لهم فى العبادة ولين الجانب وحسن تأت فى الدعوة لهم إلى الخير أى : فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ماذا عذركم عند الله وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون منى أن أترك دعاءكم إلى طاعته وأنا لا يمكننى هذا لأنه واجب على ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرنى منه ولا ينصرنى فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له حتى يحكم الله بينى وبينكم . وقالوا له أيضا : ﴿ **إنما أنت من المسحرين** ﴾ أى : من المسحورين يعنون مسحوراً لا تدرى ما تقول فى دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده وخلع ما سواه من الأنداد وهذا القول عليه الجمهور . إن المراد بالمسحرين ! المسحورين وقولهم : ﴿ **فأت بآية إن كنت من الصادقين** ﴾ سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم ﴿ **قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم** ﴾ وقال : ﴿ **قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها** ﴾ .

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوما فى ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هناك ، ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافا سموها ونعتوها وتعتنوا فيها وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا فقال لهم : النبى صالح ـ عليه السلام ـ أرأيتم أن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به ، قالوا نعم ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ثم قام إلى ـ صلاة لله ـ عز وجل ـ ما قدر له ثم دعا ربه ـ عز وجل ـ أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله ـ عز وجل ـ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذى طلبوا ، فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً ، فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ولهذا قال تعالى : ﴿ **فظلموا بها** ﴾ أى : جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أى : أكثرهم .

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٤٦ ـ ١٤٨ (٢) سورة الشعراء الآيات ١٤٩ ـ ١٥٢ (٣) سورة هود من الآية ٦١

ولهذا قال لهم صالح ـ عليه السلام ـ (هذه ناقة الله لكم آية) أضافها لله سبحانه وتعالى : إضافة تشريف وتعظيم كقوله : بيت الله وعبد الله ، ﴿ لكم آية ﴾ أى : دليلاً على صدق ما جئتكم به ﴿ فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾ فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوماً بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهم ويقال : إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ولهذا ، قال : ﴿ لها شرب ولكم شربُ يوم معلوم ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ﴾ أى : اختبارا لهم أيؤمنون بها أم يكفرون ، والله أعلم بما يفعلون ﴿ فارتقبهم ﴾ أى : انتظر ما يكون من أمرهم ، ﴿ واصطبر ﴾ على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾ فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان أعمالهم ، قال الله تعالى : ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ . وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف بن جندع ، وكان يقال : إنه ولد زانية ولد على فراش سالف وهو : ابن رجل يقال له : صبيان ، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم ، قال الله تعالى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابى ونذر ﴾ وقال تعالى : ﴿ إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴾ أى : احذروها ﴿ فكذبوه فعقروها * فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها ﴾ . وقال تعالى : فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ فجمعوا فى كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه . منها أنهم خالفوا الله ورسوله فى ارتكابهم النهى الأكيد فى عقر الناقة التى جعلها الله لهم آية : وفيها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين ، أحدهما : الشرط عليهم فى قوله : ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾ . وفى آية عظيم ، وفى الأخرى أليم والكل حق . والثانى : استعجالهم على ذلك ، وفيها أنهم كذبوا الرسول الذى قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علما جازماً ، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم قال الله تعالى : ﴿ فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف ـ لعنه الله ـ فعرقبها فسقطت إلى الأرض ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها ، فلما عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات فلهذا قال لهم صالح : ﴿ تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ﴾ أى : غير يومهم ذلك فلم يصدقوه أيضا فى هذا الوعد الأكيد بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله) أى : لنكبسنه فى داره مع أهله فلنقتلنه ثم نجحدن قتله وننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه . ولهذا قالوا : ﴿ ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ﴾ قال الله تعالى : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ وذلك أن الله تعالى : أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ، ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح ـ عليه السلام ـ ، فلما أمسوا نادوا

بأجمعهم ، ألا قد مضى يوم من الأجل ، ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل . وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة ، فلما أمسوا نادوا إلا قد مضى يومان من الأجل . ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل فلما كان صبيحة يوم الأحد تحفظوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أى جهة يأتيهم العذاب فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق **﴿ فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾** لا أرواح فيها ولا حراك بها ، قال تعالى : **﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾** أى : لم يقيموا فيها فى سعة ورزق وغناء **﴿ ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾** أى : نادى عليهم لسان القدر بهذا .

وقوله تعالى : **﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾** إخبار عن صالح أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ فى الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلا لهم : (يا قوم لقد أبلغتم رسالة ربى ونصحت لكم) أى : جهدت فى هدايتكم بكل ما أمكننى وحرصت على ذلك بقولى وفعلى ونيتى (ولكن لا تحبون الناصحين) أى : لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد وليس لى فيكم حيلة ولا لى بالدفع عنكم يدان والذى وجب علىّ من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد ، وهكذا خاطب النبى ﷺ - أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال : « يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً ، وقال لهم : فيما قال : بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم فقال له عمر : يا رسول الله تخاطب أقواما قد جيفوا فقال : (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . ولكنهم لا يجيبون)[1] . وسيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله . ويقال إن صالحاً - عليه السلام - انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات .

قال الإمام أحمد : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما مر النبى - ﷺ - بوادى عسفان حين حج قال : يا أبا بكر (أى واد هذا قال : وادى عسفان قال : لقد مر به هود وصالح - عليهما السلام - على بكرات خطمها الليف ، أزرهم العباء وأرديتهم النمار ، يلبون ، يحجون البيت العتيق[2] . إسناد حسن . وقد تقدم فى قصة نوح - عليه السلام - من رواية الطبرانى ، وفيه نوح ، وهود ، وإبراهيم .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٠٣ رقم ٢٨٧٤/٧٧ - كتاب صفات الجنة باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، وإثبات عذاب القبر ، والتعوذ منه عن أنس بن مالك .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ١ ص ٢٣٢ مسند ابن عباس

مرور النبي بوادى الحجر
من أرض ثمود عام تبوك

قال **الإمام أحمد** : عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله - ﷺ - بالناس على تبوك نزل بهم الحجر ، عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله - ﷺ - فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذبوا (إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم)[١] . وقال أحمد أيضا : عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم »[٢] وفى بعض الروايات إنه - عليه السلام - لما مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين وفى رواية فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم - صلوات الله وسلامه عليه - (وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) . أ . هـ

أحوال أعداء الله وتوجيهات
إلى أولياء الله

قال تعالى :

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟

(١) انظر مسند الإمام جـ ٢ ص ١١٧ عن ابن عمر
(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ٩ عن عبدالله بن عمر

فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ * وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

معانى المفردات

(يوزعون) أى : يحبس أولهم ليلحق آخرهم لكثرتهم . (جلودهم) أى : جوارحهم (أرداكم) أى : أهلككم ، (مثوى) أى : مُقام ، (وأن يستعتبوا) أى : يطلبوا العتبى والرضا (من المعتبين) أى : المجابين إلى ما يطلبون . (وقيضنا) أى : ويسرنا وهيأنا (قرناء) واحدهم قرين : أى : أخدانا وأصحابا من غواة الجن والإنس (والغوا فيه) أى : عارضوه باللغو والباطل حين يقرأ لتهوشوا عليه (دار الخلد) أى : دار الإقامة المستمرة ، (تحت أقدامنا) أى : ندوسهما بهما انتقاما منهما ، (استقاموا) أى : ثبتوا على الإيمان والصراط المستقيم (أولياؤكم) أى : أعوانكم فى شئونكم ، (تدعون) أى : تتمنون وتطلبون ، (النزل) ما يهيأ للضيف ليأكله حين نزوله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه كيف عاقب أولئك الجاحدين فى الدنيا وأذاقهم عذاب الهون بما كانوا يكسبون ـ أردف ذلك ذكر عقابهم فى الآخرة ، ليكون ذلك أتم للزجر ، وأكثر فى الاعتبار لمن اعتبر ، ولما ذكر سبحانه الوعيد الشديد فى الدنيا والآخرة على الكفر والمعاصى أردف ذلك ذكر السبب الذى من أجله وقعوا فى الكفر ، ثم حكى عنهم جناية أخرى وهى أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن أعملوا الحيلة فى عدم إسماع الناس له حتى لا يتدبروا معناه ، فتشاغلوا حين قراءته ، ثم ذكر أنهم حين يقعون فى العذاب الشديد ، يطلبون أن يروا من كان السبب فى وقوعهم فى الضلال من الجن والانس ليدوسهم تحت أقدامهم انتقاما منهم على أن صيروهم فى هذه الهاوية . ثم أعقب هذا الوعد الشريف للمؤمنين كما هى سنة القرآن من اتباع أحدهما بالآخر كما جاء فى قوله : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾[١] ، فبعد أن ذكر أن قرناء السوء يدعون إلى المعاصى ـ أردف ذلك ذكر حال أضدادهم ، السعداء الذين يدعون الناس إلى توحيد ربهم وطاعته باللين والرفق والموعظة الحسنى .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا * قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين * فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين** ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون** ﴾ أى : اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار ﴿ **يوزعون** ﴾ أى : تجمع الزبانية أولهم على آخرهم كما قال تبارك وتعالى : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾[٢] وكقوله تعالى : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا ما جاءوها ﴾[٤] أى : وقفوا عليها ﴿ **شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون** ﴾ أى : بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يكتم منه حرف . كقوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق **ويعلمون** أن الله هو الحق المبين ﴾[٥] .

---

(١) سورة الحجر الآيتان ٤٩ ـ ٥٠
(٢) سورة مريم الآية ٨٦
(٣) سورة النمل الآية ٨٣
(٤) سورة النمل من الآية ٨٤
(٥) سورة النور الآيتان ٢٤ ـ ٢٥

وقوله : ﴿ **وقالوا لجلودهم لِم شهدتم علينا** ﴾ ؟ أى : لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿ **قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة** ﴾ قال الحافظ أبو بكر البزّار : عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : ضحك رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم أو تبسم فقال : ﷺ ـ « ألا تسألونى عن أى شىء ضحكت ؟ » قالوا : يا رسول الله : من أى شىء ضحكت ؟ قال ـ ﷺ ـ « عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول أى رب أليس وعدتنى أن لا تظلمنى ؟ قال بلى فيقول فإنى لا أقبل علىّ شاهدا إلا من نفسى فيقول الله تبارك وتعالى : أوليس كفى بى شهيدا والملائكة الكرام الكاتبين ؟ قال : فيردد هذا الكلام مرارا قال : فيختم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول بعدا لكنَّ وسحقاً ، عنكنَّ كنت أجادل »[1] وقد أخرجه أيضا مسلم والنسائى .

وقال ابن أبى حاتم : عن أبى موسى : ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه ـ عز وجل ـ عمله فيجحد ويقول : أى رب وعزتك لقد كتب علىّ هنا الملك مالم أعمل . فيقول له الملك أما عملت كذا فى يوم كذا فى مكان كذا ؟ فيقول لا . وعزتك أى رب ما عملته . قال : فإذا فعل ذلك ختم على فيه .

قال أبو موسى الأشعرى : ـ رضى الله عنه ـ فإنى لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى .

وقوله تعالى : ﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم** ﴾ أى : تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم : ما كنتم تكتمون منا الذى كنتم تفعلونه بل وكنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصى ولا تبالون منه فى زعمكم لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه لا يعلم جميع أفعالكم ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم** ﴾ أى : هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيرا مما تعملون هو الذى أتلفكم وأرداكم عند ربكم ﴿ **فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ أى : فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم .

قال الإمام أحمد : عن عمار ، عن عبد الرحمن ، بن يزيد ، عن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال : كنت مستترا بأستار الكعبة : (فجاء ثلاثة نفر قرشى وختناه ثقفيان ـ أو ثقفى وختناه قرشيان ـ كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهما : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سمعه كله ـ قال ـ فذكرت ذلك للنبى ـ ﷺ)[2] فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **من الخاسرين** ﴾ وكذلك رواه البخارى ومسلم والترمذى .

قال معمر : تلا الحسن ﴿ **وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ ثم قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : قال الله تعالى : (أنا مع عبدى عند ظنه بى ، وأنا معه إذا دعانى)[3] ثم

---

(١) انظر صحيح مسلم ـ كتاب الزهد والرقائق جـ ٤ ص ٢٢٨٠ ، ٢٢٨١ رقم ٢٩٦٩/١٧ وانظر المستدرك على الصحيحين جـ ٤ ص ٦٠١ .

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ جـ ٤ ص ٢١٤١ رقم ٢٧٧٥/٥

ـ وفى صحيح البخارى جـ ٦ ص ١٦١ فى تفسير سورة حم السجدة .

ـ وفى تحفة الاحوذى يشرح جامع الترمذى فى تفسير سورة حم السجدة جـ ٩ رقم ٣٣٠١ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٠٢ رقم ٢٦٧٥/١ كتاب التوبة ـ باب فى الحض على التوبة والفرح بها عن ابى هريرة .

افتنر الحسن ينظر فى هذا فقال : ألا إنما عمل الناس على قدر ظنهم بربهم ، فأما المؤمن فأحسن الظن بالله ، فأحسن العمل ، وأما الكافر والمنافق فأساءا الظن بالله فأساءا العمل ثم قال : قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ . الآية .

وقوله تعالى : ﴿ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ أى : سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم فى النار لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها ، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا فما لهم أعذار ولا تقال لهم عثرات كما قال سبحانه : ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين * ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ﴾[١] . وكقوله تعالى : إخبارا عنهم ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾ يذكر تعالى : أنه هو الذى أضل المشركين وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته وهو الحكيم فى أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿ **فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ أى : حسنوا لهم أعمالهم فى الماضى وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين كما قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾[٤] ، وقوله تعالى : ﴿ **وحق عليهم القول** ﴾ أى : كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس ﴿ **إنهم كانوا خاسرين** ﴾ أى : استووا هم وإياهم فى الخسار والدمار .

كقوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون * فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون * ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون * وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾ .

أى : وقال الذين كفروا بالله ورسوله : **لا** تنصتوا لسماع هذا القرآن وعارضوه باللغو والباطل بإنشاء الشعر والأراجيز والمكاء والصفير حتى تهوّشوا على القارىء لعلكم تغلبون على قراءته وتميتون ذكره . قال

(١) سورة الجاثية الآيتان ٣٤ ـ ٣٥
(٢) سورة المؤمنون الآيات ١٠٦ ـ ١٠٨ .
(٣) سورة الزخرف الآيتان ٣٦ ، ٣٧
(٤) سورة مريم من الآية ٧٥
(٥) سورة الأعراف الآية ١٧٩

ابن عباس : قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول : وهذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن الكريم وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال تعالى : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾[1] .

ثم قال سبحانه : منتصرا للقرآن منتقماً ممن عاداه من أهل الكفر ﴿ **فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذى كان يعملون** ﴾ أى : فلنذيقن الكافرين عذاباً لا يحاط بوصفه ، ولنجازينهم بأسوأ أعمالهم ، لأن أعمالهم الحسنة كصلة الأرحام وإكرام الضيف قد أحبطها الكفر ، ولم يبق لهم إلا القبيح ومن ثم لما يجازوا إلا على السيئات . ﴿ **ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ أى : ذلك الجزاء المعد لأعداء الله هو النار مخلدون فيها أبداً ، لا انقطاع لعذابها ، ولا انتقال منها جزاء لهم على جحودهم بآياتنا واستكبارهم عن سماعها .

ثم بين سبحانه أنهم حين وقوعهم فى العذاب الشديد يطلبون الانتقام ممن أضلوهم من شياطين الإنس والجن فقال :

﴿ **وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين** ﴾ قال سفيان الثورى : عن على ـ رضى الله عنه ـ فى قوله تعالى : ﴿ **اللذين أضلانا** ﴾ قال إبليس : وابن آدم الذى قتل أخاه ، وفى الحديث (ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها)[2] لأنه أول من سن القتل . وقولهم : (نجعلهما تحت أقدامنا) أى : أسفل منا فى العذاب ليكونا أشد عذابا منا ولهذا قالوا (ليكونا من الأسفلين) أى : فى الدرك الأسفل من النار وهذا كقوله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾[3] أى : أنه سبحانه قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال بحسب عمله وإفساده . كما قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم** ﴾ .

قال ابن جرير : عن سعيد ، بن عمران قال : قرأت عند أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ هذه الآية ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ قال : هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً ، وكذا قال ابن عباس : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله . وقال الزهرى :

(١) سورة الأعراف ٢٠٤
(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد جـ ١ ص ٣٨٣ عن عبدالله بن مسعود .
(٣) سورة الأعراف الآيتان ٣٨ ـ ٣٩
(٤) سورة النحل الآية ٨٨

تلا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ هذه الآية على المنبر ثم قال : استقاموا والله لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعلب وقال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ﴿ **قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ على أداء فرائضه ، وكان الحسن البصرى يقول : « اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة وقال أبو العالية : ﴿ **ثم استقاموا** ﴾ أخلصوا له الدين والعمل ، وقال ابن تيمية : استقاموا على محبته فلم يلتفتوا يمنة ولا يسرة ، وقال الإمام أحمد : عن عبد الله بن سفيان الثقفى ، عن أبيه ، أن رجلاً قال : يا رسول الله مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحدا بعدك قال ـ ﷺ ـ (قل آمنت بالله ثم استقم ، قلت : فما أتقى ؟ فأومأ إلى لسانه)[1] وقد أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى أيضا .

وقوله تعالى : ﴿ **تتنزل عليهم الملائكة** ﴾ أى : عند الموت ﴿ **أن لا تخافوا** ﴾ أى : مما تقدمون عليه من عمل الآخرة ﴿ **ولا تحزنوا** ﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال ، أو دين ، فإنا نخلفكم فيه ﴿ **وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون** ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير ، وهذا كما جاء فى حديث البراء ـ رضى الله عنه ـ قال : (إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجى أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمرينه ، اخرجى إلى روح ، وريحان ، ورب غير غضبان)[2] وقيل : إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم)[3] حكاه ابن جرير عن ابن عباس والسدى .

وقال ابن أبى حاتم : بسنده حدثنا جعفر بن سليمان ، قال : سمعت ثابتا قرأ سورة حمَ السجدة حتى بلغ ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة** ﴾ فوقف فقال : بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله تعالى من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا فيقولان له لا تخف ، ولا تحزن ﴿ **وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون** ﴾ قال فيؤمن الله تعالى خوفه ، ويقر عينه ، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هى للمؤمن قرة عين لما هداه الله تبارك وتعالى ، ولما كان يعمل له فى الدنيا ، وقال زيد ابن أسلم : يبشرونه عند موته ، وفى قبره وحين يبعث رواه ابن أبى حاتم ، قال العلامة ابن كثير : وهذا القول يجمع الأقوال كلها ، وهو حسن جدا ، وهو الواقع .

وقوله تعالى : ﴿ **نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ أى : تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا أولياؤكم أى : قرناؤكم فى الحياة الدنيا نسددكم ، ونوفقكم ، ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤنس منكم الوحشة فى القبور ، وعند النفخة فى الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوزكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم كما قال تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون** ﴾ كقوله جل شأنه : ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى سنده جـ ٤ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ عن عبدالله بن سفيان .
ـ وأخرجه مسلم فى صحيحه ـ كتاب الايمان ـ باب جامع أوصاف الإسلام جـ ١ ص ٦٥ رقم ٣٨/٦٢ وفى تحفة الأحوذى جـ ٧ ص ٩١ فى كتاب الزهد ـ باب ما جاء فى حفظ اللسان رقم ٢٥٢٢ .
(٢) أنظر تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الأنعام من أول قوله وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار جـ ٣ ص ٢٦٢ عن حديث أبى هريرة . ـ وآخر ابن ماجة فى سننه جـ ٢ ص ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ رقم ٤٢٦٢ ـ كتاب الزهد ـ باب ذكر الموت والاستعداد له وأخرجه الإمام أحمد فى سنده جـ ٢ ص ٣٦٤ ٣٦٥
(٣) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٤ ص ٧٤ فى تفسير سورة فصلت .
(٤) سورة الرعد من الآية ٢٣ ، ٢٤ .

الأعين وأنتم فيها خالدون * وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾[١] وكقوله عز وجل : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون * هم وأزواجهم فى ظلال على الآرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون * سلام قولاً من رب رحيم ﴾[٢].

وكقوله سبحانه : ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب * متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب * وعندهم قاصرات الطرف أتراب * هذا ما توعدون ليوم الحساب * إن هذا لرزقنا ماله من نفاذ ﴾[٣] وكقوله تعالى : ﴿ والسابقون السابقون * أولئك المقربون * فى جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين * على سرر موضونة * متكئين عليها متقابلين * يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين * لا يصدعون عنها ولا ينزفون * وفاكهة مما يتخيرون * ولحم طير مما يشتهون * وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون * جزاء بما كانوا يعملون * لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قيلاً سلاماً سلاماً * وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين * فى سدر مخضود * وطلح منضود * وظل ممدود * وماء مسكوب * وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة * وفرش مرفوعة * إنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكار * عربا أترابا * لأصحاب اليمين * ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين ﴾[٤] . وقال الحبيب المصطفى - ﷺ - « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[٥] ، وقوله تعالى : ﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ أى : ضيافة ، وعطاء ، وإنعاماً من غفور لذنوبكم ، رحيم بكم رؤوف ، حيث غفر ، وستر ، ورحم ، ولطف .

قوله تعالى : **﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين * ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾** .

قوله تعالى : **﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ﴾** أى : لا أحد أحسن قولاً ممن جمع بين خصال ثلاث :

١ - الدعاء إلى توحيد الله وطاعته ، قال ابن سيرين ، والسدى ، وابن زيد ، والحسن : والداعى : هو : رسول الله - ﷺ - ، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب إليه .

٢ - العمل الصالح بفعل الطاعات ، واجتناب المحرمات .

٣ - أن يتخذ الإسلام دينا ، ويخلص إلى ربه ، ويعلم أن العز كل العز فى طاعة الله وفى إسلام الوجه والقلب له سبحانه وتعالى .

(١) سورة الزخرف الايات ٧٠ - ٧٣
(٢) سورة (يس) الآيات ٥٥ - ٥٨
(٣) سورة (ص) الآيات ٥٠ - ٥٤
(٤) سورة الواقعة الآيات ١٠ - ٤٠
(٥) انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٧٤ رقم ٣٣٤٦ فى تفسر سورة الواقعة عن أبى هريرة وانظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٧٤ رقم ٢ ، ٢٨٢٤/٣ عن أبى هريرة كتاب الجنة وصفة نعيمها .

وقيل المراد بها : المؤذنون الصلحاء كما ثبت فى صحيح مسلم ﴿ المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة ﴾[١] .

وقالت السيدة عائشة فى قوله تعالى : ﴿ **ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين** ﴾ قالت : فهو المؤذن إذا قال : حى على الصلاة فقد دعا إلى الله وهكذا قال ابن عمر - رضى الله عنهما - وعكرمة : أنها نزلت فى المؤذنين ، قال ابن كثير : والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم ، فأما حال نزول الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعا بالكلية لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة كما فى الصحيح . إذن : إنها عامة .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة** ﴾ أى : فرق عظيم بين هذه وتلك ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن** ﴾ أى : من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عمر - رضى الله عنه - : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .

وقوله عز وجل : ﴿ **فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾ أى : إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولى حميم أى : قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك ثم قال عز وجل : ﴿ **وما يلقاها إلا الذين صبروا** ﴾ أى : وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك فإنه يشق على النفوس كقوله تعالى : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾[٢] وقوله : ﴿ يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾[٣] وقوله : ﴿ **وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ أى : ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والآخرة . قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس ، فى تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم . وقوله تعالى : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله** ﴾ أى : إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه ، فأما شيطان الحق فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا للاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه كفه عنك ورد كيده كما قال تعالى : ﴿ وقل ربى أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾[٤] وقد كان - ﷺ - إذا قام إلى الصلاة يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه »[٥] وهذه الآيات كقوله تعالى فى آخر سورة الأعراف : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾[٦] وفى سورة المؤمنون عند قوله : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾[٧] .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٢٩٠ رقم ٣٨٧/١٤ عن طلحة بن يحيى كتاب الصلاة باب - الآذان وهرب الشيطان عند سماعه .
(٢) سورة الشورى الآية ٤٣ (٣) سورة لقمان الآية ١٧
(٤) سورة المؤمنون الآيتان ٩٧ ، ٩٨
(٥) الحديث فى سند الإمام أحمد جـ ٣ ص ٥٠ عن أبى سعيد الخدرى
(٦) سورة الأعراف الآيتان ١٩٩ - ٢٠٠
(٧) سورة المؤمنون الآيات ٩٦ - ٩٨

رسالة (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)

إلى دعاة الإســـلام

فإن بين يديك - أيها القارىء الكريم - رسالة « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - ولا ريب أنها رسالة قيمة يحتاج إليها كل مسلم يدعو إلى الله على هدى وبصيرة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : هو الذى أنزل الله به كتبه . وأرسل به رسله وهو من الدين .

فإن رسالة الله : إما إخبار ، وإما إنشاء . فالإخبار : عن نفسه ، وعن خلقه مثل التوحيد ، والقصص الذى يندرج فيه الوعد والوعيد . والإنشاء : الأمر والنهى والإباحة .

وهذا كما ذكر فى الحديث أن « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن »[١] لتضمنها الثلث الذى هو : التوحيد . إذ القرآن ، قصص ، وتوحيد ، وأمر .

وقوله سبحانه وتعالى فى صفة نبينا - ﷺ - ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾[٢] هو بيان لكمال رسالته . فإنه - ﷺ - هو الذى أمر الله على لسانه بكل معروف . ونهى عن كل منكر وأحل كل طيب . وحرم كل خبيث .

ولهذا روى عنه - ﷺ - أنه قال : ﴿ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ﴾[٣] وقال فى الحديث المتفق عليه : « إنما مثلى ومثل الأنبياء : كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فكان الناس يطوفون بها ، ويعجبون من حسنها ويقولون : لولا موضع اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة »[٤] .

فبه أكمل الله الدين المتضمن للأمر بكل معروف ، والنهى عن كل منكر ، وإحلال كل طيب ، وتحريم كل خبيث .

وتحريم الخبائث : يندرج فى معنى النهى عن المنكر ، كما أن إحلال الطيبات : يندرج فى الأمر بالمعروف ، لأن تحريم الطيبات مما نهى الله عنه ، وكذلك الأمر بجميع المعروف ، والنهى عن كل منكر : مما لم يتم إلا لرسول الله الذى تمم الله به مكارم الأخلاق المندرجة فى المعروف . وقد قال الله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[٥] . فقد أكمل الله لنا الدين ، وأتم علينا النعمة . ورضى لنا الإسلام دينا .

وكذلك وصف الأمة بما وصف به نبيها ، حيث قال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون

---

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ١٢٢ عن أبى مسعود .

(٢) سورة الأعراف من الآية ١٥٧

(٣) انظر سنن البيهقى (كتاب الشهادات) بيان مكارم الأخلاق - الخ ص ١٠ ص ١٩٢ من حديث أبى هريرة .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى جـ ٤ ص ٢٢٥ رقم ٣٠٢٢ عن جابر بن عبد الله - أبواب الأمثال - باب ما جاء مَثَلُ النبى والأنبياء وفى الباب عن أبى هريرة وأبى كعب . هذا حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه .

(٥) سورة المائدة من الآية ٣

بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾(١) . وقال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾(٢) ولهذا قال أبو هريرة : ـ رضى الله عنه ـ « كنتم خير أمة اخرجت للناس تأتون بهم فى القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة »(٣) (رواه البخارى موقوفا على أبى هريرة) .

فبين الله سبحانه : أن هذه الأمة خير الأمم للناس . فهم أنفعهم لهم ، وأعظمهم إحسانا إليهم . لأنهم كملوا كل خير ونفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر من جهة الصفة والقدر ، حيث أمروا بكل معروف ، ونهوا عن كل منكر لكل أحد ، وأقاموا ذلك بالجهاد فى سبيل الله بأنفسهم وأموالهم وهذا كمال النفع للخلق .

ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة ، لأن الله تعالى قد أخبر : أنهم يأمرون بكل معروف ، وينهون عن كل منكر . فلو اتفقوا على إباحة محرم ، أو إسقاط واجب ، أو تحريم حلال ، أو إخبار عن الله تعالى ، أو خلقه بباطل : كانوا متصفين بالأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، والأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ليس من الكلم الطيب والعمل الصالح . بل الآية تقتضى : أن ما لم تأمر به الأمة : فليس من المعروف وما لم تنه عنه : فليس من المنكر . إذ كانت آمرة بكل معروف ، ناهية عن كل منكر . فكيف يجوز أن تأمر كلها بمنكر ، أو تنهى كلها عن معروف ؟

والله سبحانه وتعالى : كما أخبر بأنها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ـ فقد أوجب ذلك على الكفاية منها بقوله : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾(٤) .

وإذا أخبر الله بوقوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منها ، لم يكن من شرط ذلك : أن يصل أمر الآمر ، ونهى الناهى منها إلى كل مكلف فى العالم . إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة . فكيف يشترط فيما هو من توابعها ؟ بل الشرط : أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم . ثم إذا فرَّطوا فلم يسعوا فى وصوله إليهم ـ مع قيام فاعله بما يجب عليه ـ كان التفريط منهم لا منه .

وكذلك وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يجب على كل أحد بعينه ، بل هو على الكفاية ، كما دل عليه القرآن .

ولما كان الجهاد من تمام ذلك : كان الجهاد أيضا كذلك . فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه : أثم كل قادر بحسب قدرته . إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته كما قال النبى ـ ﷺ ـ « من رأى منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . . وذلك أضعف الإيمان » رواه (م)(٥) وإذا كان كذلك فمعلوم : أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإتمامه بالجهاد . هو من أعظم الذى أمرنا به . ولهذا قيل : وليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر » .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠
(٢) سورة التوبة من الآية ٧١
(٣) انظر البخارى كتاب التفسير جـ ٦ ص ٤٧ عن أبى هريرة .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٤
(٥) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ٦٩ رقم ٤٩/٧٨ ـ كتاب الايمان .

الأمر بالمعروف لا يكون إلا بالمعروف

وإذا كان : هو من أعظم الواجبات أو المستحبات . فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة . إذ بهذا بعثت الرسل ، ونزلت والله لا يحب الفساد ، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح . وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات . وذم الفساد والمفسدين فى غير موضع .

فحيث كانت مفسدة الأمر والنهى أعظم من مصلحته : لم يكن مما أمر الله به ، وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم . إذ المؤمن عليه أن يتقى الله فى عباد الله وليس عليه هداهم .

وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾[١] والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب .

فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - كما قام بغيره من الواجبات - لم يضره ضلال الضال .

وذلك يكون تارة بالقلب ، وتارة باللسان ، وتارة باليد .

فأما القلب : فيجب على كل حال ، إذ لا ضرر فى فعله . ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن ، كما قال : النبى - ﷺ - « وذلك أدنى - أو أضعف الإيمان »[٢] وقال : « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[٣] (م) وقيل لابن مسعود : - رضى الله عنه - « من ميت الأحياء ؟ فقال : الذى لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكراً » وهذا هو المفتون الموصوف بأن قلبه « كالكوزمجخيا » (والكوز المجخى - بفتح الجيم وكسر الخاء مشددا - المائل عن الاستقامة والاعتدال شبه القلب الذى لا يعى الخير بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء) - فى حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما - فى الصحيحين « تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير . . » الحديث[٤]

من هم الآمرون بالمعروف ؟

وهنا يغلط فريقان من الناس . .

فريق يترك ما يجب عليه من الأمر والنهى ، تأويلا لهذه الآية كما قال أبوبكر الصديق - رضى الله عنه - فى خطبته : (يأيها الناس ، إنكم تقرؤ ون هذه الآية (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)[٥] وإنكم تضعونها على غير موضعها . وإنى سمعت النبى - ﷺ - يقول : إن الناس إذا رأوا

---

(١) سورة المائدة من الآية : ١٠٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ١ ص ٦٩ رقم ٤٩/٧٨ كتاب الإيمان وفى النسائى جـ٨ ص ١٠١ - ١٠٢ كتاب تفاضل الإيمان .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ١ ص ٧٠ رقم ٥٠/٨٠ كتاب الإيمان .

(٤) انظر صحيح مسلم جـ١ ص ١٢٨ رقم ١٤٤/٢٣١ كتاب الإيمان عن حذيفة .

(٥) سورة المائدة من الآية : ١٠٥ .

المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)[١] رواه الإمام أحمد وإسناده صحيح .

والفريق الثانى : من يريد أن يأمر وينهى - إما بلسانه ، وإما بيده - مطلقا من غير فقه ، ولا حلم ولا صبر ، ولا نظر فيما يصلح من ذلك ومالا يصلح وما يقدر عليه ومالا يقدر ، كما فى حديث إلى ثعلبة الخشنى سألت عنها - يعنى الآية - رسول الله ﷺ فقال : « بل ائتمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، ورأيت أمرا لا يدان لك به ، فعليك بنفسك ، ودع عنك أمر العوام ، فإن من ورائك أيام الصبر . الصبر فيهن مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن كأجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله)[٢] (رواه أبوداود والترمذى وأخرجه ابن كثير فى تفسيره (٢٠٨/٣) ط الشعب) .

فيأتى بالأمر والنهى معتقداً أنه مطيع لله ولرسوله . وهو معتد فى حدوده ، كما نصب كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهى ، كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والفحص والجهاد على ذلك وكان فساده أعظم من صلاحه .

ولهذا أمر النبى - ﷺ - بالصبر على جور الأئمة ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة ، وقال (أدوا إليهم حقوقهم ، وسلوا الله حقوكم)[٣] (رواه البخارى ومسلم) وقد بسطنا القول فى ذلك فى غير هذا الموضع .

لزوم السنة والجماعة

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة : لزوم الجماعة ، وترك قتال الأئمة ، وترك القتال فى الفتنة .

وأما أهل الأهواء - كالمعتزلة - فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم وقد تكلمت على قتال الأئمة فى غير هذا الوضع .

وجماع ذلك : داخل فى القاعدة العامة ، فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد ، والحسنات والسيئات ، أو تزاحمت . فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد ، وتعارضت المصالح والمفاسد .

فإن الأمر والنهى - وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ، ودفع مفسدة - فينظر فى المعارض له . فإن كان الذى يفوت من المصالح ، أو يحصل من المفاسد أكثر . لم يكن مأمورا به . بل يكون محرما ، إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته . الاعتبار بالمصالح والمفاسد .

لكن اعتبار المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة .

---

(١) انظر مسند أحمد فى جـ ١ ص ٩ مسند أبى بكر - رضى الله عنه .

(٢) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى جـ ٨ ص ٤٢٤ فى تفسير سورة المائدة وقال الترمذى ، هذا حديث حسن غريب صحيح وفى سنن الترمذى جـ ٤ ص ٣٣٢ رقم ٥٠٥١ باب تفسير سورة المائدة - وفى سنن أبى داود جـ ٤ ص ٥١٢ ، رقم ٤٣٤١ كتاب الملاحم باب الأمر والنهى .

(٣) انظر صحيح البخارى جـ ٩ ص ٥٩ كتاب الفتن عن عبد الله
وانظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٤٧٢ رقم ١٨٤٣/٤٥ - كتاب الامارة .

فمتي قدر الإنسان على اتباع النصوص . لم يعدل عنها ، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر . وقل أن تعوِزَ النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام .

وعلى هذا : إذا كان الشخص والطائفة جامعين بين معروف ومنكر ، بحيث لا يفرقون بينهما ، بل إما يفعلوهما جميعا ، أو يتركوهما جميعا لم يجز أن يؤمروا بمعروف . ولا أن ينهوا عن منكر ، بل ينظر . فإن كان المعروف أكثر أمر به ، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر . ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه ، بل يكون النهى حينئذ من باب الصد عن سبيل الله ، والسعى فى زوال طاعته وطاعة رسوله ، - ﷺ - وزوال فعل الحسنات . وإن كان المنكر أغلب : نهى عنه . وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف، ويكون الأمر بذلك المعروف ، المستلزم للمنكر الزائد عليه : أمراً بمنكر ، وسعياً فى معصية الله ورسوله .

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان : لم يأمر بهما ، ولم ينه عنهما ، فتارة يصلح الأمر ، وتارة يصلح النهى ، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهى ، حيث كان المعروف والمنكر متلازمين ، وذلك فى الأمور المعنية الواقعة . وأما من جهة النوع . فيؤمر بالمعروف مطلقا ، وينهى عن المنكر مطلقا . وفى الفاعل الواحد والطائفة الواحدة : يؤمر بمعروفها ، وينهى عن منكرها ويحمد محمودها . ويذم مذمومها ، بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه ، أو حصول منكر فوقه . ولا يتضمن النهى عن المنكر حصول ما هو أنكر منه ، أو فوات معروف أرجح منه .

وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن ، حتى يتبين له الحق . **فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية** . وإذا تركها كان عاصيا . فترك الأمر الواجب معصية وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية ، وهذا باب واسع ولا حول ولا قوة إلا بالله .

هدى رسول الله ﷺ
فى
الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

ومن هذا الباب : ترك النبى - ﷺ - لعبد الله بن أبي سلول وأمثاله من أئمة النفاق والفجور ، لما لهم من أعوان . فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم ، وبنفور الناس إذا سمعوا أن رسول الله - ﷺ - يقتل أصحابه . ولهذا لما خطب الناس فى قضية الإفك بما خطبهم به ، واعتذر عنه ، وقال له سعد بن معاذ قوله الذى أحسن فيه ، حمى له سعد بن عبادة - مع حسن إيمانه وصدقه - وتعصب لكل منهم قبيلة حتى كادت تكون فتنة .

وأصل هذا : أن تكون محبة الإنسان للمعروف وبغضه ، وإرادته لهذا وكراهته لهذا : موافقا لحب الله وبغضه ، وإرادته وكراهته الشرعيين . وأن يكون فعله للمحبوب ، ودفعه للمكروه ، بحسب قوته وقدرته . فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها وقد قال : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾[1] .

---

(١) سورة التغابن من الآية : ١٦ .

الموالاة والمعاداة القلبية

فأما حب القلب وبغضه ، وإرادته وكراهته : فينبغى أن تكون كاملة جازمة لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان . وأما فعل البدن : فهو بحسب قدرته . ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة ، وفعل العبد معها بحسب قدرته ، فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل ، كما قد بيناه فى غير هذا الموضع . فإن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها لا بحسب محبة الله ورسوله ، وبغض الله ورسوله . وهذا من نوع الهوى . فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ ﴾[1] فإن أصل الهوى : هو محبة النفس ويتبع ذلك بعضها .

حقيقة الهوى

وأصل الهوى : وهو الحب والبغض الذى فى النفس ـ لا يلام العبد عليه . فإن ذلك قد لا يملكه . وإنما يلام على اتباعه ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ وقال النبى : ـ ﷺ ـ « ثلاث منجيات : خشية الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الفقر والغنى ، وكلمة الحق فى الغضب والرضى ، وثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه »[2] (رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس وإسناده حسن) .

والحب والبغض يتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغوض ، ووجد وإرادة وغير ذلك . فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله : فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . بل قد يتمادى به الأمر إلى أن يتخذ إلهه هواه .

واتباع الأهواء فى الديانات أعظم من اتباع الأهواء فى المشتهيات . فإن الأول : حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين كما قال تعالى : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ قل ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾[6] وقال فى الآية الأخرى ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾[8] .

---

(١) سورة القصص من الآية : ٥٠ .

(٢) انظر حلية الأولياء جـ ٢ ص ٣٤٣ وقد ورد الحديث بلفظه عن أنس ثم قال : هذا حديث غريب من حديث قتادة . ورواه عكرمة بن إبراهيم عن هشام بن يحيى بن أبى كثير عن قتادة عن أنس ـ رضى الله عنه ـ

ـ وانظر كنز العمال جـ ١٦ ص ٤٤ رقم ٤٣٨٦٧ .

(٣) سورة القصص الآية : ٥٠ .

(٤) سورة الأنعام : ١١٩ .

(٥) سورة المائدة الآية : ٧٧ .

(٦) سورة البقرة الآية : ١٢٠ .

(٧) سورة البقرة من الآية : ١٤٥

(٨) سورة المائدة من آية : ٤٩ .

ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة ـ من المنسوبين إلى العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء ، كما كان السلف ـ رحمهم الله يسمونهم « أهل الأهواء » وذلك : أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه . والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذى بعث به رسوله ـ ﷺ ـ. ولهذا قال تعالى : فى موضع ﴿ وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾[1] وقال فى موضع آخر ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ ؟ .

فالواجب على العبد : أن ينظر إلى نفسه إلى حبه وبغضه ، ومقدار حبه وبغضه هل موافق لأمر الله ورسوله ؟ وهو هدى الله الذى أنزله على رسوله ـ ﷺ ـ بحيث يكون مأمورا بذلك الحب والبغض . لا يكون متقدما فيه بين يدى الله ورسوله فإن الله تعالى قد قال : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾[2] .

ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله : ففيه نوع من التقدم بين يدى الله ورسوله . ومجرد الحب والبغض هوى . لكن المحرم منه : اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله . ولهذا قال لنبيه داود ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ﴾[3] .

فأخبر : أن من اتبع هواه . . أضله ذلك عن سبيل الله . وسبيل الله هو هداه الذى بعث به رسوله ، وهو السبيل إليه .

الإخلاص واتباع السنة شرط قبول العمل . (وهو شرط فى الآمر الناهى) وتحقيق ذلك : إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : هو من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها . وقد قال تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾[4] . وهو كما قال : الفضيل بن عياض رحمه الله : أخلصه وأصوبه . فإن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صوابا ، لم يقبل ، وإذا كان صوابا ، ولم يكن خالصا ، لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا . والخالص : أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة . فالعمل الصالح : لابد أن يراد به وجه الله تعالى . فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده . كما فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة : عن النبى ـ ﷺ ـ قال : يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء ، وهو كله للذى أشرك »[5] (رواه مسلم) .

وهذا هو التوحيد الذى هو أصل الأسلام : وهو دين الله الذى بعث به جميع رسله وله خلق الخلق ، وهو حقه على عباده : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . ولابد ـ مع ذلك ـ أن يكون العمل صالحا ، وهو ما أمر الله به ورسوله ، وهو الطاعة ، فكل طاعة عمل صالح ، وكل عمل صالح طاعة . وهو العمل المشروع المسنون إذ العمل المشروع المسنون هو المأمور به أمر إيجاب أو استحباب ، وهو العمل الصالح

---

(١) سورة الانعام من الآية : ١١٩ .
(٢) سورة الحجرات الآية : ١ .
(٣) سورة (ص) من الآية : ٢٦ .
(٤) سورة الملك من الآية : ٢ .
(٥) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٨٩ رقم ٢٨٨٥/٤٦ ـ كتاب الزهد .

وهو الحسن وهو البر . وهو الخير . وضده : المعصية والعمل الفاسد ، والسيئة والفجور والظلم .

والعمل المحمود : هو الصالح ، وهو المأمور به . ولهذا كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه - يقول فى دعائه « اللهم اجعل عملى كله صالحا ، ولوجهك الكريم خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا » .

وإذا كان هذا حد كل عمل صالح ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يجب أن يكون كذلك هذا فى حق الآمر الناهى نفسه .

العلم والفقه شرط فى الآمر الناهى

ولا يكون عمله صالحا إن لم يكن بعلم وفقه كما قال عمر بن عبدالعزيز - رضى الله عنه : - « من عبد الله بغير علم . كان ما يفسد أكثر مما يصلح » كما فى حديث معاذ بن جبل - رضى الله عنه - « العلم أمام العمل ، **والعمل** تابعه » وهذا ظاهر . فإن القصد والعمل : إن لم يكن بعلم كان جهلا وضلالا . واتباعا للهوى ، كما تقدم وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الإسلام . فلابد من العلم بالمعروف والمنكر ، والتمييز بينهما . ولابد من العلم بحال المأمور وحال المنهى .

الرفق والحلم والصبر (شروط فى الآمر الناهى)

ومن الصلاح : أن يأتى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الصراط المستقيم . والصراط المستقيم : أقرب الطرق الموصلة الى حصول المقصود .

ولابد فى ذلك من الرفق كما قال النبى - ﷺ - : (ما كان الرفق فى شىء إلا زانه . ولا كان العنف فى شىء إلا شانه »[١] (رواه مسلم) ولابد أيضا أن يكون حليما ، صبورا على الأذى ، فإنه لابد أن يحصل له أذى . فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، كما قال لقمان لابنه : ﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾[٢] .

ولهذا أمر الله الرسل - وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - بالصبر كقوله لخاتم الرسل - ﷺ - بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة فإنه أول ما أرسل أنزلت عليه سورة (يأأيها المدثر) بعد أن أنزلت عليه سورة ﴿ أقرأ ﴾ التى بها نبِّىء فقال الله تعالى : ﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر ﴾[٣] فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة . وختمها بالأمر بالصبر ونفس الإنذار أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . فعُلم أنه يجب بعد ذلك الصبر . وقال تعالى ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾[٥] وقال : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[٦] وقال : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ﴾[٧] وقال : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾[٨] وقال : ﴿ واصبر فإن الله

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٠٤ رقم ٢٥٩٤/٧٨ - كتاب البر والصلة .
(٢) سورة لقمان الآية : ١٧ .
(٣) سورة المدثر الآيات : ١ - ٧ .
(٤) سورة الطور من الآية : ٤٨ .
(٥) سورة المزمل الآية : ١٠ .
(٦) سورة الأحقاف من الآية : ٣٥ .
(٧) سورة القلم من الآية : ٤٨ .
(٨) سورة النحل من الآية : ١٢٧ .

لا يضيع أجر المحسنين ﴾(١) فلابد من هذه الثلاثة : العلم ، الرفق ، الصبر . العلم قبل الأمر والنهى ، والرفق معه ، والصبر بعده .

وهذا كما جاء فى الأثر عن بعض السلف ـ ورووه مرفوعا ـ ذكره القاضى أبو يعلى فى المعتمد « لا يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر : إلا من كان فقيها فيما يأمر . فقيها فيما ينهى . رفيقاً فيما يأمر رفيقاً فيما ينهى عنه . حليما فيما يأمر . حليماً فيما ينهى عنه » .

لا ينبغى ترك الأمر بالمعروف لصعوبته

وليعلم أن الأمر بهذه الخصال فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر : مما يوجب صعوبته على كثير من النفوس . فيظن أنه بذلك يسقط عنه فيدعه . وذلك مما يضره أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال ، أو أقل . فإن ترك الأمر الواجب معصية وفعل ما نهى الله عنه فى الأمر معصية . فالمنتقل من معصية إلى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار . والمنتقل من معصية إلى معصية كالمنتقل من دين باطل إلى دين باطل . قد يكون الثانى شراً من الأول . وقد يكون دونه وقد يكونان سواء . فهكذا تجد المقصر فى الأمر والنهى ، والمعتدى فيه ، قد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكونان سواء .

سبب المصائب : السيئات ، وسبب النعم : الطاعة

ومن المعلوم ـ بما أرانا الله من آياته فى الآفاق ، وفى أنفسنا ، وبما شهد به فى كتابه : أن المعاصى سبب المصائب . فسيئات المصائب والجزاء : من سيئات الأعمال . وأن الطاعة سبب النعمة . فإحسان العبد العمل سبب لإحسان الله قال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾(٣)

وقال تعالى : ﴿ أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾(٤) .

وقد أخبر الله سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم ـ كقوم نوح وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وقوم فرعون ـ فى الدنيا وأخبر بما سيعاقبهم به فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر ﴾(٥) وقال : ﴿ سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾(٦) .

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان ، فقد يذنب الرجل والطائفة ، ويسكت آخرون عن الأمر والنهى . فيكون ذلك من ذنوبهم وينكر عليهم آخرون إنكارا منهيا عنه ، فيكون ذلك من ذنوبهم ، فيحصل التفرق والاختلاف والشر . وهذا من أعظم الفتن والشرور قديما وحديثا .

(١) سورة هود الآية : ١١٥ .
(٢) سورة الشورى الآية : ٣٠ .
(٣) سورة النساء من الآية : ٧٩ .
(٤) سورة آل عمران من الآية : ١٦٥ .
(٥) سورة القلم من الآية : ٣٣ .
(٦) سورة التوبة من الآية : ١٠١ .

إذ الإنسان ظلوم جهول . والظلم والجهل أنواع . فيكون ظلم الأول وجهله من نوع وظلم كل من الثانى والثالث وجهلهما من نوع آخر وآخر .

أسباب الفتن

ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك ، ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ، ومن دخل فى ذلك من ملوكها ومشايخها ، ومن تبعهم من العامة من الفتن هذا أصلها . ويدخل فى ذلك أسباب الضلال والغى : الأهواء الدينية والشهوانية . والبدع فى الدين ، والفجور فى الدنيا . وذلك أن أسباب الضلال والغى ، التى هى البدع فى الدين والفجور فى الدنيا مشتركة تعم بنى آدم ، لما فيهم من الظلم والجهل . فيذنب بعض الناس بظلم نفسه وغيره ـ بفعل الزنا أو التلوط أو غيره ، أو بشرب خمر ، أو ظلم فى المال بخيانة أو سرقة أو غصب ونحو ذلك .

ومعلوم أن هذه المعاصى ـ وإن كانت مستقبحة مذمومة فى العقل والدين ـ فهى مشتهاة فى الطباع أيضا . ومن شأن النفوس : أنها لا تحب اختصاص غيرها بشىء وزيادته عليها ، لكن تريد أن يحصل لها ما حصل له . وهذا هو الغبطة التى هى أدنى نوعى الحسد . فهى تريد الاستعلاء على الغير والاستئثار دونه ، أو تحسده وتتمنى زوال النعمة عنه ، وإن لم يحصل ففيها من إرادة العلو والفساد والاستكبار والحسد ما يتقاضاها : أن تختص عن غيرها بالشهوات . فكيف إذا رأت الغير قد استأثر عليها بذلك ، واختص به دونها ؟ فالمعتدل منهم فى ذلك : الذى يحب الاشتراك والتساوى وأما الآخر : فظلوم حسود .

وهذان يقعان فى الأمور المباحة والأمور المحرمة لحق الله .

فما كان جنسه مباحا : من أكل وشرب ، ونكاح ، ولباس ، وركوب ، وأموال ـ إذا وقع فيها الاختصاص : حصل بسببه الظلم والبخل والحسد .

وأصلها الشح . كما فى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم . أمرهم بالبخل فبخلوا . وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا »[1] (رواه مسلم) ولهذا قال تعالى فى وصف الأنصار : ﴿ والذين تبوءُوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾[2] أى : من قبل المهاجرين ﴿ **يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ أى : لا يجدون الحسد مما أوتى إخوانهم من المهاجرين ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ . ثم قال : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[3] .

وسُمع عبد الرحمن بن عوف وهو يطوف بالبيت يقول : « رب قنى شح نفسى ، رب قنى شح نفسى » فقيل له فى ذلك . فقال « إذا وقيت شح نفسى فقد وقيت البخل والظلم والقطيعة » أو كما قال :

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩٩٦ رقم ٢٥٧٨/٥٦ كتاب البر والصلة ولفظه : عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) .
(٢ ، ٣) سورة الحشر الآية : ٩ .

فهذا الشح - الذى هو شدة حرص النفس - يوجب البخل بمنع ما عليه ، والظلم بأخذ مال الغير ، ويوجب قطيعة الرحم . ويوجب الحسد وهو كراهة ما اختص به الغير وتمنى زواله ، والحسد فيه بخل ، وظلم . فإنه بخل بما أعطيه عن غيره . وظلم بطلب زوال ذلك عنه . فإذا كان هذا فى جنس الشهوات المباحة ، فكيف بالمحرمة ، كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك ؟ وإذا وقع فيها اختصاص ، فإنه يصير فيها نوعان :

أحدهما : بغضها لما فى ذلك من الاختصاص والظلم ، كما يقع فى الأمور المباحة الجنس .

والثانى : بغضها لما فى ذلك من حق الله .

الذنوب ثلاثة أقسام

ولهذا كانت الذنوب ثلاثة أقسام :

أحدها : ما فيه ظلم للناس ، كالظلم بأخذ الأموال ، ومنع الحقوق والحسد ونحو ذلك .

والثانى : ما فيه ظلم للنفس فقط ، كشرب الخمر والزنا ، إذا لم يتعد ضررهما .

والثالث : ما يجتمع فيه الأمران . مثل أن يأخذ المتولى أموال الناس ليزنى بها ويشرب بها الخمر .

إنما تستقيم أمور الناس بالعدل .

وأمور الناس إنما تستقيم فى الدنيا مع العدل الذى قد يكون فيه الاشتراك فى بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم فى الحقوق ، وإن لم تشترك فى إثم . ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة ، وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة ، وإن كانت مسلمة .

وقد قال النبى - ﷺ - (ليس ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم)[1] (رواه أبو داود وإسناده حسن وقال الترمذى حديث صحيح) فالباغى يصُرع فى الدنيا ، وإن كان مغفورا له مرحوماً فى الآخرة .

وذلك : أن العدل نظام كل شىء ، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها فى الآخرة من خلاق ، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم . وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به فى الآخرة .

طبيعة النفس حب العلو

فالنفس فيها داعى الظلم لغيرها بالعلو عليه ، والحسد له ، والتعدى عليه فى حقه ، وفيها داعى الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة - كالزنا وأكل الخبائث فهى قد لا تظلم من لا يظلمها . وتؤثر هذه

---

(١) انظر سنن أبو داود جـ ٥ ص ٢٠٨ رقم ٤٩٠٢ - كتاب الأدب
وانظر الترمذى جـ ٤ ص ٧٤ رقم ٢٦٢٩ - باب صفة القيامة .

الشهوات ، وإن لم يفعلها غيرها فإذا رأت نظراءها قد ظلموا ، أو تناولوا هذه الشهوات : صار داعى هذه الشهوات والظلم فيها أعظم بكثير .

وقد يصير ويهيج ذلك لها من بغض ذلك الغير وحسده ، وطلب عقابه وزوال الخير عنه ، ما لم يكن فيها قبل ذلك ، ولها حجة عند نفسها من جهة العقل والدين ، يكون ذلك الغير قد ظلم نفسه والمسلمين . وأن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر والجهاد على ذلك من الدين .

والناس هنا ثلاثة أقسام : قوم لا يقومون إلا فى أهواء نفوسهم . فلا يرضون إلا بما يعطونه . ولا يغضبون إلا لما يحرمونه ، فإذا أعطى أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال ، أو الحرام : زال غضبه . وحصل رضاه . وصار الأمر الذى كان عنده منكرا ـ ينهى عنه ويعاقب عليه ، ويذم صاحبه ، ويغضب عليه ـ صار فاعلا له وشريكا فيه ، ومعاونا ومعاديا لمن ينهى عنه وينكر عليه .

وهذا غالب فى بنى آدم : ترى الإنسان يسمع من ذلك ما لا يحصيه إلا الله . وسببه : أن الإنسان ظلوم جهول ، فلذلك لا يعدل ، بل ربما كان ظالما فى الحالين . يرى قوما ينكرون على المتولى ظلمه لرعيته ، واعتداءه عليهم . فيُرضى أولئك المنكرين ببعض الشىء ، فينقلبون أعوانا له . وأحسن أحوالهم : أن يسكتوا عن الإنكار عليه وكذلك تراهم على من يشرب الخمر ويزنى ، ويسمع الملاهى ، حتى يدخلوا أحدهم معهم فى ذلك ، أو يرضوه ببعض ذلك . فتراه حينئذ قد صار عوناً لهم .

وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم إلى أقبح من الحال التى كانوا عليها . وقد يعودون إلى ما هو دون ذلك أو نظيره .

وقوم يقومون قومة ديانة صحيحة ، يكونون فى ذلك مخلصين لله ، مصلحين فيما عملوه ، ويستقيم لهم ذلك ، حتى يصبروا على ما أوذوا . فهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وهم من خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا . وهم من غالب المؤمنين .

فمن فيه دين وله شهوة يجتمع فى قلبه إرادة الطاعة ، وإرادة المعصية . وربما غلب هذا تارة وهذا تارة .

وهذه القسمة الثلاثية كما قيل : الأنفس ثلاث : أمارة ، ولوامة ، ومطمئنة .

فالأولون : هم أهل النفس الأمارة التى تأمر بالسوء .

والوسط : هم أهل النفس المطمئنة التى يقال لها : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة * أرجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى * وادخلى جنتى ﴾[1] .

(القسم الثالث) وهؤلاء هم أهل النفس اللوامة ، التى تفعل الذنب ثم تلوم عليه . وتتلون تارة كذا وتارة كذا . وتخلط عملاً صالحا وآخر سيئا .

---

(١) سورة الفجر الآيات : ٢٧ ـ ٣٠ .

ولهذا لما كان الناس فى زمن أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - وهما اللذين أُمر المسلمون بالاقتداء بهما - كما قال النبى - ﷺ - (اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر)[١] (رواه الترمذى وقال : حسن صحيح) لما كان الناس أقرب عهدا بالرسالة ، وأعظم إيمانا وصلاحا ، وأئمتهم أقوم بالواجب ، وأثبت فى الطمأنينة : لم تقع فتنة . إذ كانوا فى حكم القسم الوسط .

ولما كان فى آخر خلافة عثمان ، وفى خلافة على - رضى الله عنهما - كثر القسم الثالث فصار فيهم شهوة وشبهة ، مع الإيمان والدين . قد صار ذلك فى بعض الولاة وبعض الرعايا . ثم كثر بعد ذلك . فنشأت الفتنة التى سببها ما تقدم - من عدم تمحيص التقوى والطاعة فى الطرفين ، واختلاطهما بنوع من الهوى والمعصية فى الطرفين - وكل منهما متأول : أنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وأنه مع الحق والعدل ، ومع هذا التأويل نوع من الهدى ، ففيه نوع من الظن وما تهوى الأنفس ، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى .

فلهذا يجب على المؤمن : أن يستعين بالله ، ويتوكل عليه فى أن يعمر قلبه بالإيمان والتقوى ، ولا يزيغه ، ويثبته على الهدى والتقوى ، ولا يتبع الهوى ، كما قال تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم ﴾[٢] .

وهذا أيضا حال الأمة فيما تفرقت فيه ، واختلفت فى المقالات والعبادات وهذه الأمور مما تعظم بها المحنة على المؤمنين . فإنهم محتاجون إلى شيئين : إلى دفع الفتنة التى ابتلى بها نظراؤهم - من فتنة الدين والدنيا - عن نفوسهم ، مع قيام المقتضى لها . فإن معهم نفوسا وشياطين ، كما مع غيرهم . فمع وجود ذلك من نظائرهم يقوى المقتضى عندهم . كما هو الواقع . فيبقى الداعى فى نفس الشيطان وشيطانه ، ودواعى الخير كذلك ، وما يحصل من الداعى بفعل الغير والنظير .

فكم من الناس من لم يرد خيرا ولا شرا ، حتى رأى غيره - لا سيما إن كان نظيره - يفعله ففعله . فإن الناس كأسراب القطا ، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض .

ولهذا كان المبتدىء بالخير وبالشر له من الأجر والوزر مثل من تبعه ، كما قال النبى - ﷺ - : (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا)[٣] (رواه مسلم) وذلك لاشتراكهم فى الحقيقة . وأن حكم الشىء حكم نظيره . وشبيه الشىء منجذب إليه .

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ٥ ص ٢٧١ رقم ٣٧٤٢ - أبواب المناقب وقال : حديث حسن .
(٢) سورة الشورى من الآية : ١٥ .
(٣) انظر صحيح مسلم جـ٢ ص ٧٠٤ - ٧٠٥ رقم ١٠٠٧/٦٩ كتاب الزكاة وأيضاً جـ٤ ص ٢٠٥٩ رقم ١٠١٧/١٥ كتاب العلم .

دواعي الخير والشر

فإذا كان هذان داعيين قويين ، فكيف إذا انضم اليهما داعيان آخران . وذلك : أن كثيرا من أهل المنكر يحبون من يوافقهم على ما هم فيه ، ويبغضون من لا يوافقهم ، وهذا ظاهر فى الديانات الفاسدة : من موالاة كل قوم لموافقيهم ومعاداتهم لمخالفيهم . وكذلك فى أمور الدنيا والشهوات : كثيرا ما يختار أهلها ويؤثرون من يشاركهم فى أمورهم وشهواتهم ، إما للمعاونة على ذلك ، كما فى المتغلبين من أهل الرياسات وقطاع الطرق ونحو ذلك . وإما لتلذذهم بالموافقة ، كما فى المجتمعين على شرب الخمر ـ مثلاً ـ فإنهم يحبون أن يشرب كل من حضر عندهم وإما لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير : إما حسدا له على ذلك ، وإما لئلا يعلو عليهم بذلك ، ويحمده الناس دونهم . وإما لئلا يكون له عليهم حجة وإما لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه ، أو بمن يرفع ذلك إليهم ، أو لئلا يكونوا تحت منته وخطره ونحو ذلك من الأسباب قال الله تعالى : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾[1] وقال تعالى فى المنافقين : ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾[2] وقال عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ « ودت الزانية لو زنى النساء كلهن » والمشاركة ، قد يختارونها فى نفس الفجور ، كالاشتراك فى الشرب ، والكذب والاعتقاد الفاسد ، وقد يختارونها فى النوع ، كالزانى الذى يود أن يزنى غيره ، والسارق الذى يود أن يسرق غيره أيضا ، لكن فى غير العين التى زنى بها والتى سرقها .

وأما الداعى الثانى : فقد يأمرون الشخص بمشاركتهم فيما هم عليه من المنكر فإن شاركهم وإلا عادوه ، وآذوه على وجه قد ينتهى إلى حد الإكراه أو لا ينتهى إلى حد الاكراه .

ثم إن هؤلاء الذين يختارون مشاركة الغير لهم فى قبيح فعلهم ، أو يأمرونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه . فإنهم متى شاركهم وعاونهم وأطاعهم انتقصوه واستخفوا به ، وجعلوا ذلك حجة عليه فى أمور أخرى .

وإن لم يشاركهم عادوه وآذوه . وهذه حال غالب الظالمين القادرين .

وهذا الموجود فى المنكر نظيره موجود فى المعروف ، وأبلغ منه ، كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾[3] فإن داعى الخير أقوى ، فإن الإنسان فيه داع يدعوه إلى الإيمان والعلم والصدق والعدل ، وأداء الأمانة . فإذا وجد من يعمل ذلك مثله : صار له داع آخر ـ لاسيما ـ إذا كان نظيره . لا سيما مع المنافسة . وهذا محمود حسن .

فإن وجد من يحب موافقته على ذلك ، ومشاركته له من المؤمنين والصالحين ، ومن يبغضه إذا لم يفعل ذلك : صار له داع ثالث .

فإذا أمروه بذلك ووالوه على ذلك ، وعادوه وعاقبوه على تركه : صار له داع رابع .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١٠٩ .

(٢) سورة النساء من الآية : ٨٩ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٦٥ .

مقابلة السيئات والحسنات

ولهذا يؤمر المؤمنون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات ، كما يقابل الطبيب المرضى بضده فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه وذلك بشيئين : بفعل الحسنات ، وترك السيئات مع وجود ما ينفى الحسنات ، ويقتضى السيئات ، وهذه أربعة أنواع .

ويؤمر أيضا بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة ، بحسب قدرته وإمكانه .

قال تعالى : ﴿ والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[1] روى عن الشافعي ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « لو فكر الناس كلهم فى سورة العصر لكفتهم » وهو كما قال : فإن الله تعالى أخبر فيها : أن جميع الناس خاسرون إلا من كان فى نفسه : مؤمنا صالحا ، ومع غيره موصياً بالحق ، موصيا بالصبر .

وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سببا لعلو الدرجة ، وعظيم الأجر . كما سئل النبى ـ ﷺ ـ (أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء . ثم الصالحون . ثم الأمثل فالأمثل . يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة . زيد فى بلائه . وإن كان فى دينه رقة خفف ، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على وجه الأرض وليس عليه خطيئة)[2] رواه الترمذى وقال حسن صحيح . وحينئذ فيحتاج من الصبر ما لا يحتاج إليه غيره . وذلك هو سبب الإمامة فى الدين ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾[3] فلابد من الصبر على فعل الحسن المأمور به ، وعلى ترك السيء المحظور المنهى عنه .

الصبر على الأذى

ويدخل فى ذلك : الصبر على الأذى ، وعلى ما يقال . والصبر على ما يصيبه من المكاره ، والصبر عن البَطَر عند النعم ، وغير ذلك من أنواع الصبر .

ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ، ويتنعم به ، ويتغذى به وهو اليقين كما فى الحديث الذى رواه أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « أيها الناس ، سلوا الله اليقين والعافية ، فإنه لم يعط أحد ـ بعد اليقين ـ خيرا من العافية . فسلوهما الله »[4] .

(رواه أحمد فى مسنده وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح) .

وكذلك إذا أمر غيره بحسن ، أو أحب موافقته له على ذلك ، أو نهى غيره عن سيء : فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحسانا يحصل به مقصوده من حصول المحبوب ، واندفاع المكروه . فإن النفوس

---

(١) سورة العصر الآيات : ١ ـ ٣ .
(٢) أنظر سنن الترمذى جـ ٤ ص ٢٨ رقم ٢٥٠٩ ـ باب الزهد .
(٣) سورة السجدة الآية : ٢٤ .
(٤) انظر مسند الإمام أحمد جـ ١ ص ٨ .

لا تصبر على المر إلا بنوع من الحلو لا يمكن غير ذلك . ولهذا أمر الله ـ تعالى ـ بتأليف القلوب ، حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيباً من الصدقات وقال تعالى لنبيه : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾[(١)] وقال تعالى : ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾[(٢)] فلابد أن يصبر وأن يرحم . وهذا هو الشجاعة والكرم .

ولهذا يقرن الله بين الصلاة والزكاة تارة ، وهى الإحسان إلى الخلق ، وبينها وبين الصبر تارة .

ولابد من الثلاثة : الصلاة ، والزكاة ، والصبر . لا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك فى صلاح نفوسهم ، وإصلاح غيرهم ـ لا سيما ـ كلما قويت الفتنة والمحنة فإن الحاجة إلى ذلك تكون أشد .

الصبر صبران

والصبر صبران : صبر عند الغضب ، وصبر عند المصيبة ، كما قال الحسن رحمه الله : « ماتجرع عبدٌ جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب ، وجرعة صبر عند المصيبة » وذلك لأن أصل ذلك : هو الصبر على المؤلم وهذا هو الشجاع الشديد الذى يصبر على المؤلم .

والمؤلم : إن كان مما يمكن دفعه : أثار الغضب ، وإن كان مما لايمكن دفعه : أثار الحزن ، ولهذا يحمر الوجه عند الغضب ، لثوران الدم عند استشعار القدرة ويصفر عند الحزن ، لفور الدم عند استشعار العجز .

ولهذا جمع بينهما النبى ﷺ ـ فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال النبى ـ ﷺ ـ : « ما تعدون الرَّقوب فيكم ؟ قالوا : الرقوب الذى لا يولد له . قال : ليس ذاك بالرَّقوب ولكن الرقوب الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئا ، ثم قال : ما تعدون الصرعة فيكم ؟ قلنا الذى لا يصرعه الرجال . فقال : ليس بذلك . ولكن الصرعة : هو الذى يملك نفسه عند الغضب »[(٣)] .

فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة ، والصبر عند الغضب .

قال الله تعالى : ﴿ وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ الآية[(٤)] .

وقال تعالى فى الغضب : ﴿ **وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ وهذا الجمع بين صبر المصيبة ، وصبر الغضب ، نظير الجمع بين صبر المصيبة ، وصبر النعمة كما فى قوله تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور * إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾[(٥)] وقال : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾[(٦)] .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٩٩ .
(٢) سورة البلد من الآية : ١٧ .
(٣) أنظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠١٤ ـ كتاب البر والصلة ـ رقم ٢٦٠٨/١٠٦
(٤) سورة البقرة من الآية : ١٥٥ ، والآية ١٥٦
(٥) سورة هود الآيات : ٩ ـ ١١ .
(٦) سورة الحديد من الآية : ٢٢ .

ما يدعو إلى تعدى الحدود

ولما كان الشيطان يدعو الناس ـ عند هذين النوعين ـ إلى تعدى الحدود بقلوبهم وأصواتهم ، وأيديهم . نهى النبى ـ ﷺ ـ عن ذلك . فقال لما قيل له ـ وقد بكى لما رأى ابراهيم عند النزع ـ « أتبكى ، وأنت تنهى عن البكاء ؟ فقال : إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين ـ صوت عند نغمة لهو ولعب ، ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة : لطم خدود ، وشق جيوب ، ودعاء بدعوى الجاهلية »[١] فجمع بين الصوتين [الحديث إسناده حسن قال الهيثمى فى مجمع الزوائد] .

وأما نهيه عن ذلك فى المصائب فمثل قوله ـ ﷺ ـ « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[٢]

وقال « أنا برىء من الحالقة والصالقة والشاقة »[٣] (خ) .

وقال فى القتِلة والمصائب والفرح : « إن الله كتب الإحسان على كل **شىء** ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليُحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته »[٤] (رواه م) .

وقال : « لاتمثلوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليدا »[٥] رواه (م) .

إلى غير ذلك مما أمر ـ ﷺ ـ به فى الجهاد : من العدل ، وترك العدوان ، اتباعا لقوله تعالى : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾[٦] .

ولقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[٧] .

ونهى عن لباس الحرير ، والتختم بالذهب ، والشرب فى آنية الذهب والفضة ، وإطالة الثياب إلى غير ذلك من أنواع السرف ، والخيلاء فى النعم .

وذم الذين يستحلون الخز [ثوب من حرير] والحِرَ [الزنا] ، والحرير ، والخمر ، والمعازف وجعل فيهم الخسف والمسخ ، إن هم ارتكبوا ذلك .

وقد قال تعالى : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً ﴾[٨] وقال عن قارون : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾[٩] .

---

(١) انظر مجمع الزوائد جـ٣ ص ١٧ ـ باب ما جاء فى البكاء وانظر شرح السنه للبغوى جـ ٥ ص ٤٣١ ـ وانظر الجامع الصحيح جـ ٢ ص ٢٣٧ رقم ١٠١١ وقال أبوعيسى : هذا حديث صحيح .

(٢) انظر صحيح البخارى جـ٢ ص ١٠٤ ـ باب ليس منا من ضرب الخدود ـ كتاب الجنائز .

(٣) انظر البخارى جـ ٢ ص١٠٣ ـ باب ما ينهى من الحلق عند المصيبة ـ كتاب الجنائز .

(٤) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٤٨ رقم ١٩٥٥/٥٧ كتاب الصيد والذبائح ـ باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفره .

(٥) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص ١٣٥٧ رقم ١٧٣١/٣ ـ باب الجهاد وباب ـ تأمير الإمام لأمراء على البعوث ووصيته إياهم بأداب العزو وغيرها .

(٦) سورة المائدة من الآية : ٨ .

(٧) سورة البقرة الآية : ١٩٠ .

(٨) سورة النساء من الآية : ٣٦ .

(٩) سورة القصص من الآية : ٧٦ .

وهذه الأمور الثلاثة ـ مع الصبر عن الاعتداء فى الشهوة ـ هى جوامع هذا الباب وذلك : إن الإنسان بين ما يحبه ويشتهيه ، وبين ما يبغضه ويكرهه ، فهو يطلب الأول بمحبته وشهوته ، ويدفع الثانى يبغضه ونفرته ، وإذا حصل الأول أو اندفع الثانى : أوجب له فرحا وسرورا . وإن حصل الثانى أو اندفع الأول حصل له حزن ـ فهو محتاج ـ عند المحبة والشهوة ـ أن يصبر على عدوانها ، وعند الغضب والنفرة : أن يصبر عن عدوانهما ، وعند الفرح : أن يصبر عن عدوانه ، وعند المصيبة أن يصبر عن الجزع منها .

فالنبى ـ ﷺ ـ ذكر الصوتين الأحمقين الفاجرين : الصوت الذى يوجب الاعتداء فى الفرح ، حتى يصير الإنسان فرحا فخورا . والصوت الذى يوجب الجزع عند الحزن ، حتى يصير الإنسان هلوعا جزوعاً .

وأما الصوت الذى يثير الغضب لله : فكالأصوات التى تقال فى الجهاد من الأشعار المنشدة . فتلك لم تكن بآلات . وكذلك أصوات الشهوة فى الفرح . فرخص منها فيما وردت به السنة . من الضرب بالدف فى العرس ، والأفراح للنساء والصبيان وعامة الأشعار التى تنشد بالأصوات لتحريك النفوس . هى من هذه الأقسام الأربعة وهى التشبيب وأشعار الغضب والحمية وهى الحماسة والهجاء . وأشعار المصائب كالمراثى ، وأشعار النعم والفرح وهى المدائح .

والشعراء جرت عادتهم أن يمشوا مع الطبع ، كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون** ﴾ ولهذا أخبر : أنهم يتبعهم الغاوون ، والغاوى : هو الذى يتبع هواه بغير علم . وهذا هو الغى . وهو خلاف الراشد ، كما أن الضال هو الذى لا يعلم مصلحته . هو خلاف المهتدى قال سبحانه : ﴿ والنجم إذا هوى * ماضل صاحبكم وما غوى ﴾[1] ولهذا قال : رسول الله ـ ﷺ ـ « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى »[2] .

ما يحتاج إليه المؤمن

فهذه الأخلاق والأعمال يحتاج إليها المؤمن عموما . وخصوصا فى أوقات المحن والفتن الشديدة . فإنهم يحتاجون إلى صلاح نفوسهم ، ودفع الذنوب والمصائب عن نفوسهم عند المقتضى للفتنة عندهم .

وكل من هذين الأمرين فيه من الصعوبة ما فيه ، وإن كان يسيرا على من يسره الله عليه .

وهذا لأن الله أمر المؤمنين بالإيمان والعمل الصالح . وأمرهم بدعوة الناس وجهادهم على الإيمان والعمل الصالح . ولكنهم كما قال تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة

(١) سورة النجم الآيتان : ١ ـ ٢ .
(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ١٢٧ (حديث العرباض بن سارية عن النبى ﷺ .

الأمور ﴾(١) وكما قال : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين امنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾(٢) وكما قال : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾(٣) وكما قال : ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾(٤) .

ولما كان فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يتعرض به المرء للفتنة صار فى الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة كما قال تعالى : عن المنافقين ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾(٥) .

وقد ذكروا فى التفسير : أنها نزلت فى الجد بن قيس لما أمره النبى ـ ﷺ ـ بالتجهيز لغزو الروم ، وأظن رسول الله ـ ﷺ ـ قال له : « هل لك فى نساء بنى الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله ، إنى رجل لا أصبر على النساء . وإنى أخاف الفتنة بنساء بنى الأصفر فائذن لى ، ولا تفتنى »(٦) .

وهذا الجد : هو الذى تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة : واستتر بجمل أحمر . وجاء فيه الحديث : « إن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر »(٧) فأنزل الله فيه « ومنهم من يقول : ائذن لى ولا تفتنى ، ألا فى الفتنة سقطوا » .

يقول : إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء ، فلا يفتتن بهن . فيحتاج إلى الاحتراز من المحظور ، ومجاهدة نفسه عنه ، فيتعذب بذلك ، أو يواقعه فيأثم . فإن من رأى الصور الجميلة وأحبها . فإن لم يتمكن منها ـ إما لتحريم الشارع وإما للعجز عنها ـ يعذب قلبه . وإن قدر عليها وفعل المحظور : هلك . وفى الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء .

فهذا وجه قوله : (ولا تفتنى) قال الله تعالى : ﴿ **ألا فى الفتنة سقطوا** ﴾ يقول : إن نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ، ونكوله عنه ، وضعف إيمانه ومرض قلبه الذى زين له ترك الجهاد : فتنة عظيمة قد سقط فيها .

فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه ، بوقوعه فى فتنة عظيمة قد أصابته ؟
والله تعالى يقول : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾(٨)
فمن ترك القتال الذى أمر الله به لئلا تكون فتنة : فهو فى الفتنة ساقط ، بما وقع فيه من ريب قلبه ، ومرضى فؤاده ، وترك ما أمره الله به من الجهاد . فتدبر هذا . فإن هذا مقام خطر . فإن الناس هنا ثلاثة أقسام :

قسم يأمرون ، وينهون ، ويقاتلون ، طلبا لإزالة الفتنة ـ زعموا ـ ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة كالمقاتلين فى الفتن الواقعة بين الأمة . مثل الخوارج .

---

(١) سورة الحج من الآية : ٤٠ والآية ٤١ . (٢) سورة غافر الآية : ٥١ . (٣) سورة المجادلة الآية : ٢١ .
(٤) سورة الصافات الآية ١٧٣ . (٥) سورة التوبة : ٤٩ .
(٦) أنظر تفسير ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى . . . . » الخ جـ ٤ ص ١٠١ .
(٧) انظر صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين ـ باب صفات المنافقين واحكامهم جـ ٤ ص ٢١٤٥ رقم ١٢/٢٨٨٠ .
(٨) سورة الأنفال من الآية : ٣٩ .

وأقوام ينكلون عن الأمر والنهى والقتال الذى يكون به الدين كله لله . وتكون كلمة الله هى العليا ، لئلا يفتنوا ، وهم قد سقطوا فى الفتنة .

وهذه الفتنة المذكورة فى سورة « براءة » دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة . فإنها سبب نزول الآية . وهذه حال كثير من المتدينة ، يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهى وجهاد ، يكون به الدين كله لله . وتكون به كلمة الله هى العليا ، لئلا يفتتنوا بجنس الشهوات . وهم قد وقعوا فى الفتنة التى هى أعظم مما زعموا أنهم فروا منها .

وإنما الواجب عليهم : القيام بالواجب من الأمر والنهى ، وترك المحظور ، والقيام بالواجب وترك المحظور متلازم ، لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعا ، أو تركهما جميعا ، مثل كثير ممن يحب الرياسة ، أو المال أو شهوات الغى ، فإذا فعل ما وجب عليه : من أمر ، ونهى وجهاد ، وإمارة ونحو ذلك ، فلابد أن يفعل معها شيئا من المحظورات .

فالواجب عليه حينئذ : أن ينظر أغلب الأمرين ، فإن كان المأمور أعظم أجراً من ترك ذلك المحظور . لم يترك ذلك ، لما يخاف من أن يقترن به ما هو دونه من المفسدة وإن كان ترك المحظور أعظم أجراً . لم يفوت ذلك برجاء ثواب فعل واجب يكون دون ذلك . فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين : من الحسنات والسيئات . فهذا هذا . وتفصيل ذلك يطول .

الأمر والنهى فى كل شىء

كل بشر على وجه الأرض : فلابد له من أمر ونهى ، ولابد أن يؤمر وينهى . حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها . إما بمعروف ، وإما بمنكر . كما قال تعالى : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾(١) .

فإن الأمر : هو طلب الفعل وإرادته . والنهى : طلب الترك وإرادته . ولابد لكل حى من إرادة وطلب فى نفسه ، فإن الإنسان حى يتحرك بإرادته . وبنو آدم لا يعيشون إلا بإجتماع بعضهم مع بعض .

وإذا اجتمع اثنان فصاعدا ، فلابد أن يكون بينهما ائتمار بأمر ، وتناه عن أمر ولهذا كان أقل الجماعة فى الصلاة : اثنان كما قيل « الاثنان فما فوقهما جماعة » لكن لما كان ذلك اشتراكا فى مجرد الصلاة : حصل باثنين ، أحدهما : إمام والآخر مأموم وأما فى الأمور العادية ، ففى السنن ، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (لا يحل لثلاثة يكونون فى سفر إلا أمروا عليهم أحدهم)(٢) [رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع].

(١) سورة يوسف من الاية : ٥٣ .

(٢) الحديث فى مجمع الزوائد كتاب الخلافة ـ باب الأمير فى السفر جـ ٥ ص ٢٤٩ رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

الأمر بالمعروف من لوازم بنى آدم

وإذا كان الأمر والنهى من لوازم وجود بنى آدم . فمن لم يأمر بالمعروف الذى أمر الله به ورسوله . وينهى عن المنكر ، الذى نهى الله عنه ورسوله . ويؤمر بالمعروف الذى أمر الله به ورسوله ، ويُنهى عن المنكر الذى نهى الله عنه ورسوله . وإلا فلا بد أن يأمر وينهى ، ويُؤمر ويُنهى . إما بما يضاد ذلك . وإما بما يشترك فيه الحق الذى أنزله الله ، بالباطل الذى لم ينزله الله .

وإذا اتخذ ذلك ديناً : كان ديناً مبتدعاً ضالاً باطلاً . وهذا كما أن كل بشر فإنه حى متحرك بإرادته ، همام حارث . فمن لم تكن نيته وعمله عملا صالحاً لوجه الله . وإلا كان عمله عملا فاسداً ، أولغير وجه الله . وهو الباطل كما قال تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾[١] .

وهذه الأعمال كلها باطلة من جنس أعمال الكفار . قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾[٢] وقال : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾[٣] .

وقد أمر الله تعالى فى كتابه بطاعته وطاعة رسوله ، وطاعة أولى الأمر من المؤمنين . كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾[٤] .

﴿**وأولو الأمر** ﴾ أصحاب الأمر وذووه . وهم الذين يأمرون الناس وينهونهم وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة ، وأهل العلم والكلام .

فلهذا كان ﴿ **أولو الأمر** ﴾ صنفين : العلماء ، والأمراء . فإذا صلحوا : صلح الناس ، وإذا فسدوا . فسد الناس : كما قال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ للأحمسية لما سألته : « ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح ؟ قال : ما استقامت لكم أئمتكم » .

ويدخل فيهم : الملوك ، والمشايخ ، وأهل الديوان . وكل من كان متبوعاً : فهو من أولى الأمر .

وعلى كل واحد من هؤلاء : أن يأمر بما أمر الله به ، وينهى عما نهى الله عنه . وعلى كل واحد ممن عليه طاعته . أن يطيعه فى طاعة الله ، ولا يطيعه فى معصية الله . كما قال أبو بكر الصديق فى خطبته : « أيها الناس ، القوى فيكم : الضعيف عندى ، حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم : القوى عندى ، حتى آخذ له الحق . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم »

(رواه ابن كثير فى البداية والنهاية وقال هذا إسناد صحيح)

---

(١) سورة الليل الآية : ٤ .
(٢) سورة محمد الآية : ١ .
(٣) سورة الفرقان الآية : ٢٣ .
(٤) سورة النساء الآية : ٥٩ .

من آيات التوحيد

قال تعالى :

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ (٣٨) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ (٤١) لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٤٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (٤٥) مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)

معانى المفردات

﴿ **يلحدون** ﴾ يقال : ألحد الحافر فى الأرض : إذا مال عن الاستقامة فحفر شق منها ، والمراد

بالملحدين : ، المنحرفون فى تأويل الآيات بحملها على المحامل الباطلة ﴿ **الذكر** ﴾القرآن ﴿ **من بين يديه ومن خلفه** ﴾ أى : من جميع جهاته ﴿ **حكيم** ﴾ أى : فى جميع أفعاله ﴿ **حميد** ﴾ أى : محمود إلى جميع خلقه بكثرة نعمه عليهم .

﴿ **الساعة** ﴾ يوم القيامة : ﴿ **الأكمام** ﴾ واحدها كِمْ (**بكسر الكاف**) : **وعاء الثمرة ، وقد يطلق على كل ظرف لمال أو غيره** ، ﴿ **آذناك** ﴾ أى : أعلمناك .

﴿ **ضلّ عنهم** ﴾ أى غاب وزال ، ﴿ **ظنوا** ﴾ أى : أيقنوا وعلموا ﴿ **محيص** ﴾ أى مهرب : يقال حاص يحيص حيصا : إذا هرب .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه وتعالى أن الدعوة إلى دين الله أسمى المقاصد ، وأنها إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد وصحة البعث يوم القيامة ـ أعقب هذا بتهديد من ينازع فى تلك الدلائل بإلقاء الشبهات ، ثم هددهم بضروب من التهديد فهددهم بقوله : ﴿ **لا يخفون علينا** ﴾ وبقوله : ﴿ **اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير** ﴾وبقوله : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر . . ﴾ الآية وبعد ذلك سلّى رسوله على ما يصيبه من أذى المشركين وطعنهم فى كتابه ، وحثه على الصبر ، وألا يضيق صدره بما حكاه عنهم من نحو قولهم : ﴿ **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه** ﴾ فما قاله أولئك الكفار فى شأنه وشأن ما أنزل إليه من القرآن لا يعدو شأن ما قاله أمثالهم من الأمم السابقة ، ثم أجاب عن شبهة قالوها ، وهى هلا نزل القرآن بلغة العجم ـ بأنه لو نزل كما يريدون لأنكروا أيضا وقالوا ما لنا ولهذا ؟ ثم ذكر أن القرآن هداية وشفاء للمؤمنين ، والذين لا يؤمنون به فى آذانهم صمم عن سماعه ، ثم ذكر أن الاختلاف فى شأن الكتب عادة قديمة للأمم ، فقومك ليسوا ببدع بين الأمم ، ثم أبان أن المرء وما عمل ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ولا يظلم ربك أحداً . ثم ذكر ـ سبحانه ـ يوم القيامه وأن هذا اليوم لا سبيل للخلق إلى معرفته ، فلا يعلمه إلا هو ، وأن علم الحوادث المقبلة فى أوقاتها المعنية بأوصافها المعنية استأثر الله به ، فلا يعلم أحد متى تخرج الثمر من الأكمام ، ولا متى تحمل المرأة ولا متى تضع . ثم ذكر سبحانه أن يوم ينادى المشركين تهكما وتقريعا لهم : أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ فيجيبون : الآن لا نشهد لأحد منهم بالشركة فى الألوهية ، وقد غابوا عنا فلا يرجون منهم نفعاً ، ولا يفيدونهم خيراً ، وأيقنوا حينئذ أن لا مهرب لهم من العذاب .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون * فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون * ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير** ﴾ .

يقول تعالى : منبهاً على قدرته العظيمة وأنه الذى لا نظير له وأنه على ما يشاء قادر ﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر** ﴾ أى : أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضيائه وهما متعقبان لا يفتران ، والشمس ونورها وإشراقها و تمر وضياؤه وتقدير منازله فى فلكه واختلاف سيره فى سمائه ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار والجمع والشهور والأعوام كقوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلاً ﴾(١) وكقوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾(٢) وكقوله سبحانه : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾(٣) وكقوله جلت قدرته : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلكٍ يسبحون ﴾(٤) .

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال : ﴿ **لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ أى : ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به وكيف يسجدون للشمس والقمر ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس يسجدون للكبير المتعالى : كما قال ـ عز وجل ـ ﴿ ألم ترَ أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ ـ الآية(٥) فحق العذاب على الذين يستكبرون عن عبادة الله ، وهنا يقول سبحانه : ﴿ **فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون** ﴾ أى : فإن استكبر هؤلاء المشركون الذين يعبدون الكواكب وأبوا إلا أن يسجدوا لها وحدها دون الله ـ فالله لا يعبأ بهم ، فالملائكة الذين فى حضرة قدسه وهم خير منهم لا يستكبرون عن عبادته ، بل يسبحون له ويصلون ليلا ونهاراً ، وهم لا يفترون عن ذلك ولا يملون ، كقوله تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾(٦) وقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير** ﴾ .

لما ذكر ـ سبحانه ـ الدلائل الفلكيه أتبعها بذكر الدلائل الأرضية ، أى : ومن الدلائل على قدرته ـ تعالى ـ على البعث ، وإحياء الموتى بعد بلاها ، وإعادتها لهيئتها كما كانت من بعد فنائها ـ أنك ترى الأرض يابسة غبراء لا نبات بها ولا زرع ، فإذا نزل عليها الغيث من السماء تحركت بالنبات ،

---

(١) سورة الإسراء الآية : ١٢ .
(٢) سورة يونس الآية : ٥ .
(٣) سورة النحل الآية : ١٢ .
(٤) سورة يس الآيات : ٣٧ ـ ٤٠ .
(٥) سورة الحج الآية : ١٨ .
(٦) سورة الأنبياء الآيتان : ١٨ ، ١٩ .

وانتفخت ، وأخرجت ألوان الزرع والثمار ، كما يشاهد من ارتفاع الأرض وانتفاخها ، ثم تصدعها وتشققها إذا حان ظهور النبات منها ، وتراه يسمو في الجو ويغطي قشرتها ، ثم تتشعب عروقه ، وتغلظ سُوقه ﴿ **إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير** ﴾ أى : إن الذى أحيا هذه الأرض الدارسة ، وأخرج منها النبات ، وجعلها تهتز بالزرع - قادر على أن يحيى أموات بنى آدم بعد مماتهم وهو القدير على كل شىء ، لا يعجزه شىء كائناً ما كان كقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(١) .

وكقوله تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون * وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾(٢) وكقوله جلت قدرته : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير * إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد * ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم** ﴾ .

قوله تبارك وتعالى : ﴿ **إن الذين يلحدون فى آيتنا** ﴾ قال ابن عباس : الإلحاد : وضع الكلام على غير مواضعه ، وقال قتادة وغيره : هو الكفر والعناد ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾(٤) . وقوله عز وجل : ﴿ **لا يخفون علينا** ﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد أى : أنه تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته وسيجزيه على ذلك بالعقوبة ، والنكال ولهذا قال تعالى : ﴿ **أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة** ﴾ أى : أيستوى هذا وهذا ؟ لا يستويان . ثم قال عز وجل : تهديداً للكفرة ﴿ **اعملوا ما شئتم** ﴾ إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم ولهذا قال : ﴿ **إنه بما تعملون بصير** ﴾ .

ثم قال جل جلاله : ﴿ **إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم** ﴾ قال الضحاك وقتادة : وهو القرآن . ﴿ **وإنه لكتاب عزيز** ﴾ أى : منيع الجناب لا يرام أن يأتى أحد بمثله ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ أى : ليس للبطلان إليه سبيل لأنه منزل من رب العالمين كما قال سبحانه وتعالى :

---

(١) سورة الحج من الآية : ٥ - ٧ .
(٢) سورة الروم الآيتان : ٤٨ - ٥٠ .
(٣) سورة الأعراف الآية : ٥٧ .
(٤) سورة الأعراف الآية : ١٨٠ .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[١] ولهذا قال سبحانه : ههنا ﴿ **تنزيل من حكيم حميد** ﴾ أى : حكيم فى أقواله وأفعاله حميد : بمعنى محمود أى : فى جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته .

وروى الحاكم عن ابن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (إن هذا القرآن مأدبة الله ، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم ، إن القرآن حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فَيُستعتب ، ولا يعوجُ فيتقوّم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يَخلُقُ من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأمركم على تلاوته ، كل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول آلم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف)[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم** ﴾ فكما كذبت كُذبوا وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك كقوله تعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **إن ربك لذو مغفرة** ﴾أى : لمن تاب إليه ﴿ **وذو عقاب أليم** ﴾ أى : لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته .

قوله تعالى : ﴿ **ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد** ﴾

لما ذكر سبحانه وتعالى : القرآن وفصاحته وبلاغته وأحكامه فى لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت كما قال سبحانه : ﴿ **ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين** ﴾ وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد ﴿ **لولا فصلت آياته أعجمى وعربى** ﴾ أى : لقالوا هلا أنزل مفصلا بلغة العرب ، ولأ نكروا ذلك فقالوا أعجمى وعربى أى : كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه ؟ هكذا روى هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمه وغيرهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء** ﴾ أى : قل يا محمد هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما فى الصدور من الشكوك والريب ﴿ **والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر** ﴾ أى لا يفهمون ما فيه ﴿ **وهو عليهم عمى** ﴾ أى : لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾[٤] .

---

(١) سورة النساء الآية : ٨٢ .

(٢) الحديث فى كنز العمال جـ ١ ص ٥٥٦ رقم ٢٣٥٦ ـ باب فى تلاوة القرآن وفضائله وفى مجمع الزوائد جـ ٧ ص ١٦٤ عن ابن مسعود قال الهيثمى : رواه الطبرانى وفيه مسلم بن إبراهيم الهجرى وهو متروك .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٣٤ .

(٤) سورة الإسراء الآية : ٨٢ .

وقوله تعالى : ﴿ **أولئك ينادون من مكان بعيد** ﴾ قال مجاهد : يعنى بعيد عن قلوبهم . وقال ابن جرير : معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول قال ابن كثير : وهذا كقوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب * من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد * إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أُنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد * وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه** ﴾ أى : ولقد أرسلنا موسى وآتيناه التوراة ، فاختلفوا فيها ، فمن مصدِّق بها ومن مكذب ، وهكذا شأن قومك معك فمن مصدق بكتابك ومن مكذب به ، فلا تأس على ما فعلوا معك ، واسلك سبيل أولى العزم من الرسل ـ صلوات الله عليهم أجمعين .

ثم أخبر سبحانه أنه أخر عذابهم إلى حين ولم يعاجلهم بالعقاب على ما اجترحوا من تكذيب الرسول وجحدهم بكتابه فقال : ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم** ﴾ أى : ولولا ما سبق من قضاء الله وحكمه فيهم من تأخير عذابهم إلى القيامة لعجل الفصل بينهم فيما اختلفوا فيه بإهلاك المكذبين كما فعل بمكذبى الأمم السالفة .

ثم بين سبحانه ما يقتضى إهلاكهم فقال سبحانه : ﴿ **وإنهم لفى شك منه مريب** ﴾ أى : وإن قومك لفى شك من أمر القرآن موجب لقلقهم واضطرابهم ، فما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم حين قالوا : ما قالوا : بل كانوا شاكين غير محققين لشىء مما كانوا فيه من عنادك ومقاومة دعوتك .

ثم بين سبحانه : أن الجزاء من جنس العمل وأنه لا يظلم ربك أحداً فقال سبحانه : ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[٢] وكان النبى ـ ﷺ ـ يقول فى خطبته : « ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ولا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا »[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ أى : لا يعاقب أحدا إلا بذنبه ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه .

وقوله تعالى : ﴿ **إليه يرد علم الساعة** ﴾ أى : إذا سئل عنها أحد رد علمها إليه تعالى ، فإنه لا يعلم متى قيامها سواه ، وقد جاء فى الحديث الصحيح (أن جبريل ـ عليه السلام ـ سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الساعة فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . . الحديث »[٤] .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٧١ . (٢) سورة الإسراء الآية : ١٥ .

(٣) انظر اتحاف السادة المتقين جـ ٧ ص ٥٧٥ وأنظر سنن أبى داود وكتاب النكاح ـ باب خطبة النكاح جـ ٢ ص ٥٩٢ .

(٤) انظر صحيح البخارى كتاب التفسير ـ تفسير سورة لقمان جـ ٦ ص ١٤٤ ، وفى صحيح مسلم كتاب الإيمان جـ ١ ص ٣٩ رقم ٩/٥ ، وفى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى جـ ٧ ص ٣٤٧ رقم ٢٧٣٨ وفى النسائى كتاب الإيمان باب نعت الإسلام جـ ٨ ص ١٠٠ ، ١٠١ .

وبعد أن ذكر سبحانه أنه استأثر بعلم الساعة مبين أنه اختص أيضاً بعلم الغيب ومعرفة ما سيحدث من مستأنف الأزمنة فقال سبحانه : ﴿ **وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ أى : وما تبرز الثمرة من وعائها الذى هى مغلّقه به ، وما تحمل أُنثى ولا تضع ولدها إلا بعلم من الله ، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ونحو الآن قوله تعالى : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أُنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾(٢)

وكقوله تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾(٣)

ثم ذكر سبحانه : بعض ما يحدث فى هذا اليوم فقال تعالى : ﴿ **ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد** ﴾ أى : واذكر أيها الرسول لقومك يوم ينادى سبحانه عباده المشركين على رءوس الأشهاد تهكما بهم ، واستهزاء بأمرهم - أين شركائى الذين عبدتموهم معى ؟ فيقولون : أعلمناك أنه ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكا ونفى الشهادة يراد به التبرؤ منهم : لأن الكفار يوم القيامة ينكرون عبادة غير الله كما حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل** ﴾ أى : وغابت عنهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها فى الدنيا ، فأخذ بها طريق غير طريقهم فلم تنفعهم ، ولم تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله الذى حل بهم . ﴿ **وظنوا ما لهم من محيص** ﴾ أى : وأيقنوا حينئذ أنه لا ملجأ لهم من عذاب الله .

---

(١) سورة الرعد الآية : ٨ ، ٩ .
(٢) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .
(٣) سورة لقمان الآية : ٣٤ .